



مجلس
التشاور الإسلامي

المجلس الأعلى

للعلم والثقافة الإسلامية

لغاية ٢٠١٢



مجلس
التشاور الإسلامي

العلم والدين

سراج الفكر وسعة البيان

بحوث المؤتمر العلمي الدولي الأهل

الجزء الخامس

أثر السنة النبوية في نهج البلاغة (دراسة تحليلية للروايات الشريفة)

المدرس الدكتور: وفقان خضير محسن الكعبي (النجف الأشرف كلية الدراسات الإنسانية الجامعة)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد:

البحث في كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) وبيان معانيها صعب مستصعب لأجل كون القائل هو سيد البلغاء وأمير الفصاحة والبيان. ومن النعم أن تشرفت جامعة الكوفة وما يتبعها من مؤسسات علمية رصينة في الالتفات إلى نهج البلاغة، وتكليف مركز دراسات الكوفة بالكتابة عنه. فالكتاب ومن نسب إليه، والجامعة والجامع له-الشريف الرضي-كلهم معينا ثرا يغني الباحثين بجوانب المعرفة المتعددة وميادينها. وهذا البحث المتواضع حول بعض الروايات النبوية التي وظفها المتكلم في خطابه بالنص الروائي، وكيفية استفادة الحكم منها. وينتظم البحث في مبحثين مهمين اختصارا، وفي البحث الأول: أخص بالذكر الأحاديث النبوية التي استدل بها على حرمة بعض المحرمات ومصادر هذه النصوص مقارنة من كتب الحديث والرواية. والبحث الثاني: في بعض الأفكار العلمية في ميادين العقائد والأخلاق والمعارف الأخرى. ومجالات الأثر الروائي في نهج البلاغة كثيرة ومتنوعة، التي استقاها الأمام من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكر البحث بعضا منها كتطبيق وأنموذج ويبقى المجال مفتوحا للبحث الأكثر تفصيلا وبعدا لدراسات وبحوث أخرى إن شاء الله تعالى في ذلك. وربما يعتذر الباحث في أمور ومشاغل الدنيا وآلامها وهمومها، وقلة الباع في هذا الميدان المفتوح أمام العلماء معتنرا بالقاعدة (ما لا يدرك كله لا يترك جله). ولا بد لي أن أقدم أسمى آيات الشكر والاحترام لمن هبى هذا المؤتمر وسمح لي بالمشاركة، ونسأل من الله العلي القدير القبول والغفران والحمد لله رب العالمين..

الباحث الدكتور وفقان خضير محسن الكعبي

التمهيد:

السنة النبوية التي تمثل أقوال وأفعال وتقرير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان لها الأثر الواضح في لسان الإمام علي (عليه السلام)، وقد وصلنا مدى تعامل الإمام علي (عليه السلام) مع الروايات الكريمة التعاطي والترابط بين أفصح من نطق بالضاد، وأبلغ ما وصلنا من كلام نهج البلاغة لإمام لعلي (عليه السلام). فالصلة والترابط بين الروايات الواردة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكلام الإمام (عليه السلام) في نهج البلاغة ظاهرا جدا؛ لأن المعاني الإسلامية التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذاتبة في نفس الإمام علي (عليه السلام).

فالمعاني الإسلامية ذاتبة في نفس الإمام علي (عليه السلام)، فقد «كان مما أنعم الله على علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه كان في حجر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الإسلام..»^١.

وفي عصر الإسلام لا يفارقه ويسمع منه قائلا: «أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب؟ وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر، وقد علمتم موضع من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعتني في حجره، وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمني، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل، ولقد قرن الله تعالى به (صلى الله عليه وآله) من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر امه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالافتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة»^٢.

النبوة»^١.

ولذا كان الإمام علي (عليه السلام) يمثل سلوك الرسول في حياته ويطبق أحكامه بلا زيادة ولا نقصان فكانت لغته وتعبيره هو سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأقوال وأفعال ابن عمه وسيرته الكريمة والبحث يجد هذا التناسق في اللفظ والمعنى بين القمرين الكريمين أبيي هذه الأمة المرحومة في تربيتهما.

١ . الطبري - تاريخ الطبري: ٢/٢١٣.

٢ . الشريف الرضي - نهج البلاغة: ١/٣٩٢.

والروايات النبوية التي سمعها علي (عليه السلام) أكبر شاهد وقرينة على صدق وصدور نهج البلاغة لكونها قرينة خارجية وقد نقلها الرواة والحفاظ في المصادر الحديث من طرق متعددة.

البحث الأول: ظواهر الأحاديث التي يستفاد منها الحرمة

١- آثار الحسد:

بين الإمام علي (عليه السلام) من آثار الحسد نفي الإيمان، فهناك آثار دنيوية وآثار أخروية للحسد والإيمان، فالحسد لا يبقى من إيمانه شيئاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومن المعلوم أن الاهتمام بالآخرة أكثر من الدنيا لأنها الحياة الباقية والدنيا زائلة.

فقال (عليه السلام): «...ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب، ولا تباغضوا فإنها الحالقة»^١.

الحسد من الذنوب الكبائر؛ لأنه يوصل إلى زوال نعمة غيره، ويتمنى عدم بقائها، والحاسد ساخط على الله وعلى الناس وضار لنفسه، والنهي عن الحسد، نهى عن أثره في الآخرين، وعدم البغي في حسد الناس والاعتداء عليهم^٢.

ومن جانب البيان، التشبيه بين الحسد وهو أمر معنوي نفسي وإحراق النار للحطب وهو أمر محسوس وعدم إبقاء شيء من ذلك الحطب إلا الرماد الأسود الذي لا ينفع شيئاً.

عن الإمام الصادق (عليه السلام): «لا تحاسدوا ولا تنازعوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»^٣. والأكل بمعنى زوال والذهاب وعدم بقاء روح الإيمان.

وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام): (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)^٤. والاختلاف في الرواية الأيمان أعم من الحسنات وفعل الخير.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «دب إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، حالقة الدين»^٥.

١ . الشريف الرضي - نهج البلاغة : ١٥١/١ .
٢ . انظر: الباحث- الاستدلال بحديث الرفع على البراءة، بحث منشور في مجلة بحوث ودراسات، العدد السادس لسنة ١٤٣١ هـ، ص ٥.
٣ . ابن شعبة- تحف العقول : ١٥٠ + القاضي النعمان-دعائم الإسلام: ٣٥١/٢+ العاملي: محسن الأيمن- أعيان الشيعة : ٦٧٠/١ .
٤ . السيد المرتضى -المجازات النبوية : ٢١٠ ح ١٩٣+ ابن فهد -عدة الداعي: ٣١٩ .

الحالقة: أي الماحية لكل خير وبركة، فالحسد والبغضاء تمحوا الذنب والخير ومن البغضاء خصوصا بين الرحم والأقارب والتباغض بينهم.

٢- السلطان الجائر

للإمام علي (عليه السلام) موقف يحدد ويبين عذاب وعقاب السلطان الجائر في النار يوم القيامة، فمن يتقدم على الناس ويدير شؤونهم واحتياجاتهم الدنيوية، عليه أن يسيس العباد بالعدل فإذا جار وطغى عليهم فالنتيجة يعطيها العالم بها الإمام علي (عليه السلام) قائلا: «بعض أخبار أمير المؤمنين (عليه السلام) في الشورى وفي عهد عثمان واني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في نار جهنم فيدور فيها كما تدور الرحي ثم يرتبط في قعرها»^١.

المفردات اللغوية: يرتبط في قعرها أي يشد^٢ ويحبس في قعر جهنم. ونصوص الآيات كثيرة واسعة، والروايات في حرمة الظلم والجور، إذ تتدد بأعمال الجائر في الدنيا وتبين جرائمه من ضلال الناس، ووقوعهم في الخطأ، أماتة السنن المأثورة عن الأنبياء والأمم السابقة، وإحياء البدع والعادات السيئة. وفي مقابل هذا ويبين الإمام (عليه السلام) العدل والحكم بالمساواة والإنصاف بين الناس إذ قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

(واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعده عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتنع، فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في غير موطن: «لن تقدر أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتنع»^٣).

المفردات اللغوية: لذوي الحاجات: أي المتظلمين، ينظر الوالي والسلطان في مظالمهم. تقعده عنهم جندك: أي لا يتعرضوا لهم بسوء.

غير متتنع: أي غير متردد من عجز أو عي، والمقصود اللازم وهو غير خائف، والإمام نظر للوالي ثلاث طوائف معه من الجند، الحارس الذي يحرس

١ . أحمد بن حنبل - مسند: ١/١٦٤+المقدسي: لأبي عبد الله - الأحاديث المختارة: ٣/٨١+الفاضل الهندي- كنز العمال: ٣/٦٢٢.

٢ . ابن منظور - لسان العرب: ١٠/٦٣.

٣ . الطبري- تاريخ الطبري: ٥ : ٩٦+البلاذري- الأنساب : ٥ : ٦٠+الشريف الرضي: نهج البلاغة ١ : ٣٠٣+ ابن الأثير: الكامل : ٣ : ٦٣+ابن الكثير- تاريخ ابن كثير: ٧ : ١٦٨+الأميني- عبد حسين: الغدير: ٩/٧٤.

٤ . ابن منظر- لسان العرب: ٧/٣٠٢.

٥ . صبحي صالح- نهج البلاغة: ٦٠٩.

الحاكم من وصول المكروه، والشرطة وهم من أعوان الحاكم. وهذا القول سمعه من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مجالس كثيرة، كان النبي يهتم به. التقديس التطهير، والتركية لا تحصل للأمة حتى تعطي حق الفقراء والمحتاجين.

وهذه من أهم الوصايا التي توخاها الإمام في طلب المساواة والعدالة في المجتمع بين أفراد الأمة وإعطاء حق الضعيف من القوي، وهي صفة حكومة الإمام علي (عليه السلام) في رسم صوت العدالة الحقبة بين جميع الناس سواء.

٣- التمثيل بجسد الميت والحي

حرمة المثلة بالجسد وقطع الأطراف منه سواء كان جسد الحي تعذيباً أو الميت فإن حرمة الميت كحرمة الحي، فالتشويه الخلقي للبدن نهى عنه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسمعه الإمام منه.

فقال الإمام (عليه السلام) في وصيته لولده الحسن (عليه السلام): «...يا بني عبد المطلب لا أأفينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»^١.

فإمام (عليه السلام) ينهى أولاده وعشرتيه أن يجدهم يسفكون دماء المسلمين، من أجل قتل علي (عليه السلام) وحرمة المثلة أي تغيير الخلقة بالعقوبة، والحديث يحرم المثلة ولو بالحيوان والكلب العقور الذي يعدوا على غيره ويعظه وإن كان لا حرمة له؛ فمن طريق أولى حرمة التمثيل بالإنسان المحترم في الإسلام.

فالقاتل الذي يستحق القتل قصاصاً لا يمثل به فمن فحوى الكلام غير القاتل من المؤمنين لا يقتل ولا يمثل به.

والروايات عن النهي عن المثلة وارده في مصادر الأخبار عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنه نهى عن المثلة»^٢.

٤- لواء الغادر

الغدر معصية كبيرة يعرف بها صاحبها في يوم القيامة بل في الدنيا، فالغادر بغيره له علامة مرفوعة يتميز بها في يوم القيامة أمام الخلائق.

١ . المثلة: القيام بأعمال وحشية ضد المقتول أو أي كائن آخر تعبر عن حالة الانتقام والتشفي. لسان العرب: ١١/٦١٥ مادة مثل.

٢ . الشريف الرضي نهج البلاغة: ٣/٧٨٠+ العاملي - محسن الأمين: أعيان الشيعة: ١/٥٣١+ ابن أبي الحديد: شرح النهج: ٦/١٧، رقم: ٤٧.

٣ . مسلم: صحيح مسلم: ١٤٥٦: ٥+ ابن ماجه- سنن ابن ماجه: ٢/٦٢٠١.

ولقد حذر الإمام (عليه السلام) من كل ذلك بقوله: «... والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفر. ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة»^١.

فالصفات لهذا المعتدي هي -الغدرة- الفجرة-الكفرة- ثم النار ثم أن الإمام أعطي صفة للغادر اللواء يعرف بها، وهي لواء يوم الحساب وهناك روايات أخرى. عن نافع قال لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشده وولده وقال: «إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: لينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»^٢.

فالحديث طبق الغدر على معاوية وولده يزيد وأمثالهم من الطغاة والعصاة والظالمين والمتسلطين على رقاب الناس بالظلم والسلاح.

٥- حرمة الكذب

الكذب معصية كبيرة عملت بها النفوس الضعيفة منذ فجر الإسلام ضد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى قال فيها الرسول حديثه المشهور الذي استشهد به الإمام ونقله قائلًا: «من كلام له (عليه السلام) وقد سأله سائل عن أحاديث البدع وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فقال (عليه السلام) إن في أيدي الناس حقا وباطلا. وصدقا وكذبا. وناسخا ومنسوخا وعاما وخاصا. ومحكما ومتشابها. وحفظا ووهما. ولقد كذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عهده حتى قام خطيبا فقال: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»^٣.

الكذب خلاف الواقع والصدق مطابقة الواقع والكذب من الكبائر التي أوعد عليها بالنار.

التبوأ: المنزل في النار، أي أسكنه إياه وأخذته منزلا^٤، وقد تحدث العلماء حول هذا الحديث كثيرا حتى مثلوا به للتواتر اللفظي، وهو حديث مشهور في مصادر علم الحديث^١ ونقل بطرق كثيرة، وأسناد متعددة.

١ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ١٨٠/٢.

٢ . البخاري - صحيح البخاري: ١٦٦/١+١٠٥٣/٢+ أحمد بن حنبل - المسند: ٧٠/٩٦/٢+الشاطبي-الاعتصام: ١٢٨/٢+ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة: ٦٩٠/٩+ الشاشي- المسند: ٦٦/٢+ الترمذي - السنن: ٤١٩/٤+٤٢٠/٤+ البيهقي-السنن: ١٥٩/٨+الهيثمي- مجمع الزوائد: ٢٢٠/٥.

٣ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ١٨٩/٢+الطوسي- الأمالي: ٢٢٧+الأربلي- كشف الغمّة: ٢٢/٢+الديلمي- فردوس الأخبار: ١٧+البحراني- البرهان: ٣٠٤/٤ ح ٢+المجلسي-بحار الأنوار: ١٢٢/٣٣.

٤ . ابن الأثير-النهاية: ١٥٩/١.

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^١.

٦- آثار الغضب

الغضب: وضع اليد ظلماً على مال غيره، والاستيلاء على حق غيره، وله آثار وخيمة في المجتمع من الخراب والدمار والفناء الذي يتبعه، فالدار والمعمل وكل شيء فيه عين مغضوبة يجب إرجاعها إلى مالكها الأصلي، وإن أدى إلى خرابها إذا أكد أهمية ترك الغضب وتركه الإمام علي (عليه السلام) بقوله: وقال (عليه السلام): «الحجر الغصيب في الدار رهن على خرابها»^٢.

«ويروى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عجب أن يشتبه الكلامان لأن مستقاهما من قلب ومفرغهما من ذنوب»^٣.

الغصيب أي المغضوب والمأخوذ ظلماً. القليب: البئر من الماء، الذنوب: أي الدلو الكبير^٤.

٧- جريمة النفاق

النفاق ظاهرة اجتماعية وخيمة ولها آثار على المجتمعات شديدة وقد عالجها القرآن الكريم وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وما زالت تثير الأم للشعوب في التجسس الدولي الذي ينقل لجهة الاستعمارية أسرار الدولة التي زرع فيها وتحرك القادة فيها، وعين عواقب النفاق في القرآن الكريم بقوله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون»^٥.

ومن هذا المنطلق أظهر الإمام (عليه السلام) الخوف من هذه الظاهرة؛ لأنها تقسم الظهر فقال (عليه السلام): «فإنه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى،

١ . حسن الصدر- الرسالة العزيزة في شرح الوجيزة: ١٣+ الشهيد الأول- علم مصطلح الدراية ١٥٠.

٢ . البخاري- صحيح البخاري: ٧٩/٢+٢٠٦/٤+ مسلم- صحيح مسلم: ٢٢٩/٨+ الترمذي- سنن الترمذي: ٢٩٨/٤٠/٥+ أحمد بن حنبل- المسند: ١٥٩/١٢+٢١٤/٢٢+ البغدادي- تاريخ بغداد: ٣١١/٩+١٥٧/١٣+ الشوكاني- فيض القدير: ٢٠٦/٣+ النسائي- السنن: ١٠٥٧+ الحاكم- المستدرک: ١٣٨/٢+ الفاضل الهندي- كنز العمال: ٢٩١٧٥/٦٢٢/٣.

٣ . ابن شعب الحارثي- تحف العقول: ٢٢٧+ الحر العاملي- وسائل الشيعة: ٣٠٩/١٧.

٤ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ٥٣/٤.

٥ . محمد عبده- نهج البلاغة: ٥٠/٤.

٦ . سورة المنافقون: ١-٣.

وولي النبي وعدو النبي. ولقد قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله): إني لا أخاف على أمتي مؤمنا ولا مشركا؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون»^١.

النتيجة هذه بعض الأحاديث التي ذكرت في نهج البلاغة وفيها النهي حكم الحرمة ظاهرا، والامتناع عنها وتركها وعدم إيجادها^٢.

ويمكن بعض الأحكام المكروهة وفيها مرجوحية الترك وعدم التقرب إليها. البحث الثاني: الأحاديث الشريفة التي يظهر منها الكراهة وينتظم البحث بعرض بعض النصوص التي تنهى عن موارد يستفيد الإمام منها الكراهة ومرجوحية الترك لهذه الأعمال وهي:

١- كراهة التصاوير والتماثيل

ورد النهي في الشريعة عن تصوير ذي روح والتجسيد في البيت وخصوصا باتجاه القبلة؛ لانشغال الفكر به دون التوجه إلى الله تعالى. والإمام (عليه السلام) أشار بقوله (عليه السلام): «...ولقد كان (صلى الله عليه وآله) يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه. ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة - لإحدى أزواجه - غيبه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها.

فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشا، ولا يعتقد أنها قرارا ولا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيبها عن البصر»^٣.

هذه بعض مكارم أخلاق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتخذها رياشا أي اللباس الفاخر، وأشخصها عن القلب أبعدها عنه. وهذا النهي ورد في روايات أخرى متعددة تحمل على الكراهة^٤.

٢- النهي عن العادات السيئة

النهي ويفهم منه الكراهة عن تغيير الشيب بالخضاب والحناء نحوه.

١ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ٢٩/٣+ العاملي-محسن الأمين- أعيان الشيعة ٤٥٥/٣١+الصنعاني-تفسير الصنعاني: ٢١٠/١.
٢ . وفقان خضير محسن الكعبي- أثر القرآن في علم الأصول: ٣٧.
٣ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ٥٩/٢+الريشيري- ميزان الحكمة: ٢٨٤٧/٤.
٤ . الحر العاملي-وسائل الشيعة: ٢١٩/١٢+٤٦١/٣.

أخبرني عثمان بن عبد الله، قال حدثنا أحمد بن جناب، قال حدثنا عيسى بن يونس عن هشام بن عروة، عن أبيه عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»^١.

أخبرنا حميد بن مخلد بن الحسين، قال حدثنا محمد بن كنانة، قال حدثنا هشام بن عروة، عن عثمان بن عروة، عن أبيه عن الزبير، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»^٢.

وقد روي محمد بن الحسين الرضي الموسوي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه سئل عن قول رسول الله (صلى الله عليه وآله): «غيروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود فقال: إنما قال ذلك والدين قل، وأما الآن وقد اتسع نطاقه، وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار»^٣.

ويفهم من هذا الحديث أن الأمر بتغيير الشيب ليس للوجوب، بل هو لإثبات الرخصة في مورد توهم الحظر والتحريم، كما يعتقد اليهود.

وعن أبي محمد عبد الله الشافعي عن محمد بن جعفر الأشعث عن محمد بن إدريس عن محمد بن عبد الله الأنصاري عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود والنصارى»^٤.

فتغيير الشيب بالخضاب أو الحلق أو أي وسيلة وطريق آخر مكروه؛ لأن فيه تشبيه بعادات اليهود والأمم التي تعادي الإسلام والدين، وفي الخضاب روايات أخرى كثيرة.

٣- النهي عن طاعة المخلوق بسخط الخالق

فإنسان لا يطيع المخلوق بسخط البارئ وعصيانه، مثل طاعة الأب في معاصي الله تعالى، ولذا نهى الإمام (عليه السلام) عن ذلك في نهج البلاغة قائل: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^٥.

روي الصدوق: ومن ألفاظ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^٦.

١ . النسائي- سنن النسائي: ١٨٧٣٢/٨.

٢ . المصدر نفسه.

٣ . الحر العاملي- وسائل الشيعة: ٤٠٣/١.

٤ . الحر العاملي- وسائل الشيعة: ٤٠٣/١.

٥ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ٦٩١/٤+القاضي-دعائم الإسلام: ٣٥٠/١+النوري-مستدرک الوسائل: ٢٠٩/١٢.

٦ . الصدوق- من لا يحضره الفقيه: ٣٤٣/٢+الحر العاملي- وسائل الشيعة: ٤٢٢/١١.

وفي (عيون الأخبار) بأسانيده السابقة في إسباغ الوضوء عن الرضا عن آبائه، عن علي عليهم السلام قال: «لا دين لمن دان بطاعة مخلوق في معصية الخالق»^١.

وبإسناده عن الفضل بن شاذان عن الرضا (عليه السلام) في كتابه إلى المأمون قال: «وبر الوالدين واجب وإن كانا مشركين، ولا طاعة لهما في معصية الخالق ولا لغيرهما فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^٢.

وروي الصدوق، عن علي بن أحمد الدقاق، عن محمد بن أبي عبد الله، عن محمد بن إسماعيل البرمكي، عن الحسين بن الحسن بن بردة، عن العباس بن عمرو الفقيمي، عن إبراهيم بن محمد العلوي، عن الفتح بن يزيد الجرجاني قال: سمعته يقول: «ما اتقى الله يتقى، ومن أطاع الله يطاع، وقال: من أرضى الخالق لم يبال بسخط المخلوقين ومن أسخط الخالق... أن يسلط الله عليه سخط المخلوق»^٣ الحديث.

علي بن إبراهيم، عن جعفر بن أحمد، عن عبيد الله بن موسى، عن الحسين بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله عز وجل: «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلاسيفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا»^٤ قال: ليس العبادة هي السجود والركوع إنما هي طاعة الرجال، من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده»^٥.

البحث الثالث: الأحاديث التي تحت على عمل الخير

لقد نذب الإمام علي (عليه السلام) المؤمنين كافة على الحث امتثال أعمال الخير والإحسان والطاعة بأنواعها المختلفة، ونذكر بعض منها ذكرت في خطب نهج البلاغة.

١- طلب الحكمة

وقال الإمام علي (عليه السلام): «الحكمة ضالة المؤمن»^٦.

- ١ . الصدوق- عيون أخبار الرضا (ع): ٢٠٨+ الحر العاملي- وسائل الشيعة: ٤٢٢/١١.
- ٢ . المصدر نفسه: ٢٦٧+الصدوق- الخصال: ١٥٤/٢.
- ٣ . الصدوق- التوحيد: ٤٤+الكليني- اصول الكافي: ٦٧.
- ٤ . سورة مريم: ٨١-٨٢.
- ٥ . القمي- تفسير القمي: ٤١٥.
- ٦ . البحراني- شرح نهج البلاغة: ٨٠-٨١+شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين: ٨٠.

والضالة ما ضاع من البهيمة للذكر والأنثى، والإيمان في اللغة التصديق، وفي عرف الشريعة عبارة عن التصديق بكل ما علم مجئ الرسول به ضرورة وهو مذهب المحققين من المتكلمين كأبي الحسن الأشعري وإتباعه، (والمؤمن من اتصف بصفة التصديق)، ويقابله الكافر لمن لم يتحقق فيه هذه الكل، وعليه رأى أبي حنيفة، وعند جمهور المعتزلة والسلف الصالحين رضي الله عنهم انه اسم للمطيع.

ولما كانت الطاعة عندهم لا يتحقق إلا بأجزاء ثلاثة، التصديق بالقلب لما جاء به الرسول، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، كان الإيمان أيضا كذلك فالمؤمن لا يستحق إطلاق هذا الاسم عندهم إلا إذا تحققت فيه هذه الأجزاء الثلاثة فهي أجزاء ماهية الإيمان، ويقابله الفاسق لمن أخل بشئ من هذه الأجزاء إذ يمتنعون من تسمية التارك لأحدها مؤمنا لعدم ماهية الإيمان منه، ويخصون اسم الكافر بتارك الكل أو الجاحد ظاهرا وإن عمل لأن العمل مترتب على التصديق، وعليه الإمام الشافعي رضي الله عنه من الفقهاء وإذا عرفت ذلك.

فاعلم أنه (عليه السلام) حكم بأنها ضالة المؤمن وشبهها بالضالة من وجهين: أحدهما - إن من شأن الضالة أن صاحبها ينشدها ويطلبها ويجتهد فيها بالجعل وغيره فكذاك طالب الحكمة يجتهد في طلبها بحسب البرهان ويبالغ في التفتيش عن كيفية المسالك في طلبها ويلتمس معرفتها من أفواه من العلماء وأهل المعارف كما يلتمس صاحب الضالة ضالته من أفواه المنشدين والعارفين بها وبمضانها فلا جرم كانت ضالة بالنسبة إليه.

الثاني - انه لما كان من شأن الضالة أن لا تنفك عن أحد وجهين، أما أن يجدها طالبها ويفوز بمقاصده وخاصة إن كان متقربا بطلبها إلى من هو أعلى منه متوقعا على وجدانها الحباء (العطاء) والمنحة، وإما أن لا يجدها فيبقى في الأسف والخوف والحرمان فكذاك الحكمة لما كان من شأنها انه إما انه يجدها طالبها أو ليس، فان وجدها فقد فاز بالمقاصد الكلية وحصل على الأغراض الباقية، وان لم يجدها وهو متقرب بها إلى نيل رضا الله تعالى ومستعد بها لقبول نعمه الباقية في جواره المقدس فقد حصل على الخيبة وضياح السعي وحرمان ما الحكمة إلى نيله وسيلة فكانت بالحقيقة ضالة وأي ضالة.

وأما تخصيص المؤمن بها فلان غير المؤمن أما غير المصدق وأما العاصي، أما غير المصدق فتكذيبه ينافي طلبه لان الجزء الأشرف من الحكمة هو معرفة

١ . الزبيدي-لسان العرب: ٢١/١٣.

٢ . المفيد - أوائل المقالات: ١٥.

٣ . الكليني- روضة الكافي: ١٤٤/٨ هامش.

الصانع والمكذب بوجوده كيف يطلب معرفته ؟ ! وكذلك عصيان العاصي حال عصيانه مناف لطلبه وهو ظاهر، فهذا هو المفهوم من هذه الكلمة، والله تعالى يجعل خاتمة سعينا في طلبها وجدانا لها، ويرشدنا على منشديها، ويدلنا على معرفتها والعارفين بها عن صدق، والمطلعين على أسرارها بيقين وهو (الله) الموفق.

وري ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها»^١.

وبوب البخاري باب في بناء أمرهم في التعليم على أن يتلقوا العلم ممن وجدوه عنده ولو كان صغير أو مشركا خرج أبو نعيم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «العلم ضالة المؤمن حيثما وجده أخذه»^٢.

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر، وروينا عن علي رضي الله عنه: انه قال في كلام له «العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من المشركين ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن سمعها منه».

قال وعنه أيضا «الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في ايدي المشركين» فقد روي أن «الحكمة ضالة المؤمن، فاطلبوها ولو عند مشرك تكونوا أحق بها وأهلها»^٣.

روي محمد بن محمد بن عيسى بن محمد: أبو الفضل الإسفرايني، قدم دمشق. حدث عن أحمد بن محمد بن الحسين الشيرازي بسنده إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «كلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها»^٤.

٢- إصلاح عيب نفسه قبل غيره

الإنسان يلتفت إلى إصلاح عيب نفسه قبل أن ينظر إلى عيوب الآخرين، وهذه الوصية خاطب الإمام علي (عليه السلام) البشرية بها من دون تمييز المؤمن والكافر بشكل عام، فالوصية عامة وشاملة من أجل الإصلاح والتقوى.

١ . المازندراني-شرح أصول الكافي: ١٤٧/٣ .
٢ . أبي نعيم الأصفهاني- حلية الأولياء: ٣٥٤/٣ .
٣ . السيد المرتضى- الصحيح من السيرة : ٩ / ٧٣ .
٤ . لابن منظور - مختصر تاريخ دمشق : ١٢ + ٢٣ / ١٩٥ .

فقال (عليه السلام): «يا أيها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعة ربه، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة»^١.

طوبى: أسم من أسماء الجنة أو شجرة في الجنة ومنزلة معدة لمن يعمل بعض أعمال الخير من ولاية الإمام علي (عليه السلام) وصبر الفقراء والمساكين في الدنيا.

روي بسند متصل عن ابن مالك قال خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ناقته الجدعاء فقال: «...وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»^٢.

وقال تعالى: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب»^٣.

فطوبى الجنة وما فيها من ثمرات الأعمال في الدنيا.

ومن الأعمال الصالحة التي تنتج الجنة وهي: «وقال (عليه السلام): طوبى لمن ذل في نفسه وطاب كسبه وصلحت سريرته وحسنت خليقته وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه، وعزل عن الناس شره، ووسعته السنة، ولم ينسب إلى البدعة»^٤، قال الرضي: «ومن الناس من ينسب هذا الكلام إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكذلك الذي قبله».

والبكاء من الخطيئة: الذنب الذي يرتكبه العبد والبكاء توبة وندم وتحسر على فوات الطاعة، وارتكاب المعاصي والذنوب.

من يطلب لذيق الجنة لا بد أن يصبر على مكاره الأمور وصعابها، وأتعبها ومن يريد النار فيتبع شهوات نفسه وملذات الدنيا وما زين له الشيطان من شهوات زائلة فقال تعالى: «زين للناس حب الشهوات من الفناطير المقنطرة»^٥.

فقد وعظ الإمام مواليه بقوله: «انتفعوا ببيان الله، واتعظوا بمواعظ الله، واقبلوا نصيحة الله. فإن الله قد أعذر إليكم بالجلية. واتخذ عليكم الحجة. وبين لكم محابه من الأعمال ومكارهه منها لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يقول إن الجنة حفت بالمكاره، وإن النار حفت بالشهوات وأعلموا أنه ما من طاعة الله شئ إلا يأتي في كرهه. وما من معصية الله شئ إلا

- ١ . الشريف الرضي- نهج البلاغة - خطب الإمام علي (عليه السلام) : ٢ / ٩٦+ الديلمي-أعلام الدين: ١٠٧+ العاملي-أعيان الشيعة: ١/٦٦٦+ الكليني- روضة الكافي: ٨/١٤٥.
- ٢ . ابن الجوزي- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: ٢/٨٢٨+ أبي نعيم الأصفهاني-حلية الأولياء: ٣/٣٥٤.
- ٣ . سورة الرعد: ٢٩.
- ٤ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ٤/٢٩.
- ٥ . سورة آل عمران : ١٤.

يأتي في شهوة. فرحم الله رجلا نزع عن شهوته. وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شئ منزعا. وإنها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى»^١.

الاعذار الجليلة: السبب العقاب على الذنب، والمخالفة الإلهية. نزع عنه، انتهى وأقلع عن الذنب الذي كان عليه. وروي عن حصين بن عقبة قال: قال: عبد الله يعني ابن مسعود «إن الجنة حفت بالمكاره، وإن النار حفت بالشهوات»^٢.

٣- الحث على العمل

الإمام علي (عليه السلام) في مقام الحث على العمل وما يجنى من ثمرات عليه وما يحصل عليه الإنسان ويترتب على عمله من الأجر وغفران الذنب ورفع الدرجات في الحياة الآخرة، فيقدم عمل الخير والباقيات الصالحات له. فقال الإمام: «العمل العمل، ثم النهاية النهاية. والاستقامة الاستقامة، ثم الصبر الصبر، والورع الورع. (إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم). وإن لكم علما فاهتدوا بعلمكم، وإن للإسلام غاية فانتهاوا إلى غايته»^٣.

العلم يريد به القرآن الكريم، فالنهاية هي الجنة أو النار للعاصي أو المطيع. فالنهاية التي يشير إليها الإمام لكل ميت يراها.

روي الكليني، محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن حمزة بن حمران، قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «إن مما حفظ من خطب النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: يا أيها الناس إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم ألا إن المؤمن بعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لأخرته وفي الشبية قبل الكبر وفي الحياة قبل الممات، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب، وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار»^٤ المستعتب موضع

الاستعتاب أي طلب الرضا.

ولذا أمام العبد طريقان: منهج عمل الخير ومنهج عمل الشر، فقال تعالى: «أنا هديناه السبيل أما شاكرا وأما كفورا»^٥.

١ . الشريف الرضي-نهج البلاغة : ٩٠-٩١.

٢ . الهيثمي- مجمع الزوائد: ٢٣٠/١٠.

٣ . الشريف الرضي-نهج البلاغة : ٩٢/٢.

٤ . الكليني -الكافي : ٧٠/٢.

٥ . سورة الإنسان: ٣.

وأراد الإمام علي (عليه السلام) أن بين أهمية العمل وينطبق ما في الجوارح مع القلب

فقال: «الناظر بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم عمله عليه أم له. فإن كان له مضي فيه، وإن كان عليه وقف عنه. فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق. فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعدا من حاجته. والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع. واعلم أن لكل ظاهر باطنا على مثاله، فما طاب ظاهره طاب باطنه. وما خبيث ظاهره خبيث باطنه.

وقد قال الرسول الصادق (صلى الله عليه وآله) إن الله يحب العبد، ويبغض عمله، ويحب العمل ويبغض بدنه واعلم أن لكل عمل نباتا. وكل نبات لا غنى به عن الماء، والمياه مختلفة. فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته، وما خبيث سقيه خبيث غرسه وأمرت ثمرته»^١.

العمل لا يختلف عن القلب وإلا فما ذكره الإمام من التفاوت والنفاق عند الإنسان.

ومن المواعظ للمؤمن أن يتذكر ما بعد الموت ولذا أكد الإمام ذلك بقوله: «واعلم أن أمامك عقبة كؤودا، المخف فيها أحسن حالا من المتقل، والمبطنى عليها أقبح حالا من المسرع، وأن مهبطك بها لا محالة على جنة أو على نار. فارتد لنفسك قبل نزولك، ووطئ المنزل قبل حلولك، فليس بعد الموت مستعجب»^٢.

المفردات: العقبة الكؤود: الصعبة المرتقى، المخف فيها أي المخفف حمله من الذنوب، والمتقل ظهره من المعاصي، ابعث رائدا من طيبات الأعمال لحياتك الآخرة الاستعجاب أي الاسترضاء والله لا يرضى بعد الغضب إلا باستئناف العمل.

وأشار الإمام لهذه الفكرة بقوله:

«وإن الله سبحانه لم يعظ أحدا بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره، مع أنه قد ذهب المتذكرون وبقي الناسون والمتناسون فإذا رأيت خيرا فأعينوا عليه، وإذا رأيت شرا فاذهبوا عنه، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يقول: يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشر فإذا أنت جواد قاصد...»^٣.

١ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ٤٤/٢-٤٥.

٢ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ٤٧/٣.

٣ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ٩٥/٢.

ولذا يوصي بالتمسك بحبل الله وهو القرآن الكريم قائلاً: «و عليكم بكتاب الله فإنه الحبل المتين والنور المبين. والشفاء النافع، والري النافع (أزال العطش) والعصمة للتمسك والنجاة للمتعلق. لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعذب (يطلب العتبي حتى يرضي) ولا تخلفه كثرة الرد وولوج السمع (كثرة التردد بالقراءة) من قال به صدق ومن عمل به سبق»^١.

وهنا بين أن العبد إذا اختار جانب الطاعة والاستقامة فحقق القرب المعنوي من الله والسعادة في حياته الآخرة.

والمؤمن لا يتباطأ في عمل الخير فلا ينفعه غير عمله الصالح لا حسب ولا نسب فقال تعالى: «فلا أنساب بينهم»^٢ وعتى الإمام بالعمل بقوله: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه (حسبه)»^٣.

وأطلق وصف حبل الله على عدة مصاديق أولهم وأبرزهم القرآن الكريم فهو حبل الله المتين^٤ الذي أمر بالتمسك به فقال تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...»^٥.

وروي عن علي (عليه السلام) قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «القرآن.. وهو حبل الله المتين»^٦.

وقال (عليه السلام): «وفي القرآن نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»^٧، فالقرآن الكريم يخبر عن قصص الأمم السابقة، وأخبار مصيرهم، وبيان الأحكام الشرعية.

والإتصال بحبل الولاية لإمام أمير المؤمنين وأولاده، فهو حبل الله المتين السلام عليك يا حبل الله.

ومن وصايا الإمام بالإتفاق مع الاقتصاد والوسط والعدل بلا إسراف ولا تبذير قائلاً: «ما عال من اقتصد»^٨.

٤ - استقامة اللسان

- ١ . الشريف الرضي نهج البلاغة: ٤٩/٢.
- ٢ . سورة المؤمنون: ١٠١.
- ٣ . صبحي صالح- نهج البلاغة: ٦٥٤.
- ٤ . المفيد- الاختصاص: ٣٤٨+القمي-الفضائل: ٤٨٣+الحويزي- نور الثقلين: ٤٩٤/٤.
- ٥ . سورة آل عمران: ١٠٣.
- ٦ . الفاضل الهندي- كنز العمال: ٢٨٨/٢+ابن أبي شيبة-المصنف: ٧/١٦٤+ أبي نعيم الأصفهاني- حلية الأولياء: ٥/٢٥٣+ الثعالبي- الجواهر الحسان: ٦/١.
- ٧ . صبحي صالح- نهج البلاغة: ٧٢١/٤.
- ٨ . صبحي صالح- نهج البلاغة: ٦٨٣/٤.

اللسان العضو المهم في الجسد الذي إذا استقامة على الوظيفة الإلهية يستقيم الجسد، ومع العكس بعدم الاستقامة فالأذي يصل إليه وقد تحدثت مجموعة من الآيات والروايات تعذر من زيغ وخطأ اللسان.

من هذه النصوص ما جاء على لسان أمير الفصحاء والبلغاء رابطا بين الإيمان والقلب واللسان في الاستقامة والعدل والتقوى.

«... واجعلوا اللسان واحدا. وليخزن الرجل لسانه. فإن هذا اللسان جموح بصاحبه. والله ما أرى عبدا يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه. وإن لسان المؤمن من وراء قلبه. وإن قلب المنافق من وراء لسانه؛ لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيرا أبداه، وإن كان شرا واره. وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وما ذا عليه. وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه. ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه فمن استطاع منكم أن يلقي الله تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم فليفعل»^١.

يخزن لسانه أي يحفظه من الاعتداء على غيره، فهو عدو جوارحه جموح بصاحبه من جمح الفرس أي تردى بصاحبه في مهلكة فيسقط بها لسانك حصانك أن سنته صانك وإن هنته هانك وصفة لسان المؤمن تابع اعتقاده فلا يقول إلا ما يعتقده حقا وناقعا.

من حديث أسود بن أصرم المحاربي قال قلت يا رسول الله أوصني قال: «هل تملك لسانك قلت ما أملك إذا لم أملك لساني قال فهل تملك يدك قلت: فما أملك إذا لم أملك يدي قال فلا تقل بلسانك إلا معروفا، ولا تبسط يدك إلا إلى خير، وقد ورد أن استقامة اللسان من خصال الإيمان»^٢.

عن أنس رضي الله عنه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»^٣.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه»^٤.

رواه أحمد وفي إسناده علي بن مسعدة وثقه جماعة وضعفه آخرون»^٤.

١ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ٩٣/٢- ٩٤ .
٢ . لأبي الفرج الحنبلي - جامع العلوم والحكم : ١ / ١٣٢ .
٣ . المصدر نفسه: ١/١٣٢ .
٤ . الهيثمي- مجمع الزوائد: ٥٠/١ .

فالإيمان مرتبط باللسان ويهتم به ويكون اللسان أداة خير وشر في آن واحد كباقي الآلات التي تستخدم في الصلاح والفساد.

٥- حقوق المسلم

لقد اهتم الإمام بإعطاء حق المسلم واحترامه وعدم الاعتداء عليه وعلى ماله وعياله لا باللفظ من الفحش والسب ولا باليد من الضرب والأذى.
فقال الإمام علي (عليه السلام):

«...الفرائض الفرائض، أدوها إلى الله تؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حراما غير مجهول، وأحل حلالا غير مدخول، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها. فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق. ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب».

مفردات لغوية حلالا غير مدخول أي غير معيب ولا ناقص.
ومعاهد الحقوق، مواضعها من الذمم.

والمسلم من يؤمن أخيه من اعتدائه وأذيته هذه هي أخلاق الإسلام وقد تغير الفكر فنعيش اليوم الاعتداء بتفجير المساجد ودور العبادة والأبرياء والمؤمنين بلا مبرر في ذلك أصلا وإلى الله المشتكى وعليه المعول في الشدة والرخاء.

٦- الصلاة تغسل الذنوب

الصلاة عبادة ربانية تعطي صلة بين العبد وربيه وهي عمود الدين ومعراج المؤمن، ومن الحسنات التي تذهب السيئات وتمحوها، وقد شبهها الإمام بالحض من الماء الذي يغتسل فيه المؤمن خمس مرات كل يوم فلا يبقى عليه شيء من الدرن.

وقد أوصى الإمام بها: «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها، واستكثرها منها، وتقربوا بها، فإنها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا. ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نك من المصلين وإنما لتحت الذنوب حت الورق، وتطلقها إطلاق الربق وشبهها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالحمة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم واللييلة خمس مرات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن.

وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع ولا قرة عين من ولد ولا مال.

يقول الله سبحانه «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»^٢ وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) نصبا بالصلاة بعد

١ . الشريف الرضي - نهج البلاغة: ٩٧/٢-٨٠.

٢ . سورة النور: ٣٧.

التبشير له بالجنة لقول الله سبحانه «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها» فكان يأمر أهله ويصبر عليها نفسه»^١.

الورق، قشره يذهب منه كذلك تذهب الذنوب
الريق، حبل فيه عرى كل واحدة ريقه
الحمئة: كل عين ينبع منها الماء الحار، ويستشفى به من العلل.
الدرن الوسخ والذنب نوع من العقوبة تتبع الفرد.
النصب التعب من الصلاة وكثرتها والدوام عليها.
الوصية لمن يصلي بالناس جماعة أن يخفف فيها، ويكون متوسطا غير مضيع
لبعض واجباتها ولا يطيل الصلاة حتى تكره الناس ذلك.
«وإذا أقمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا، فإن في الناس من
به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين وجهني
إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين
رحيما»^٢.

ومن الأعمال التي تكون أفضل من الصلاة والصيام صلاح ذات البين فقال
(عليه السلام) في وصيته «أوصيكما...بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات
بينكم، فإني سمعت جدكما ص-يقول: (صلاح ذات البين أفضل من الصلاة
والصيام»^٣.

وهناك فرائض وحدود بينها المشرع لا ينتهك المؤمن حرمانها ولا يترك
امتنالها.

قال (عليه السلام): «إن الله افترض عليكم الفرائض فلا تضيعوها، وحد لكم
حدودا فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها وسكت لكم عن أشياء ولم
يدعها نسيانا فلا تتكفوها»^٤ انتهاك النهي بارتكابه، ولا تكلفوا أنفسكم بمعرفة ما
سكت الله عنه.

٧- أعمال أخرى

قال الإمام علي (عليه السلام): «القناعة مال لا ينفد»^٥.

١ . سورة طه: ١٣٢.

٢ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ١٧٨/٢.

٣ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ١٠٣/٣.

٤ . صبحي صالح-نهج البلاغة: ٥٨٢.

٥ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ٢٤/٤.

٦ . الشريف الرضي- نهج البلاغة: ٦٦٣.

قال الرضي: وقد روي هذا الكلام عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)١، حب علي (عليه السلام) إيمان وكره علي (عليه السلام) نفاق، فالولاء لعلي (عليه السلام) ومودته علامة إيمان وبغض علي (عليه السلام) ومعاداته علامة النفاق.

قال (عليه السلام): «لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني وذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق»٢.

المفردات اللغوية: الخيشوم: أصل الأنف

الجمات المراد به لو صببت الدنيا جليلها وحقيرها على المؤمن لا يبغض وعلى المنافق لا يجب. وهذا الحديث نقل في مصادر متعددة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

قال: «يا علي: لا يبغضك مؤمن، ولا يحبك منافق»٣.

الفتن بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لقد أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بوقوع الفتن بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال (عليه السلام): «وقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عنها فقال (عليه السلام) «لما أنزل الله سبحانه قوله: «ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون»٤

علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله (صلى الله عليه وآله) بين أظهرنا. فقلت يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها فقال: يا علي إن أمتي سيفتنون من بعدي فقلت يا رسول الله: أوليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة فشق ذلك علي فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك فقال لي: إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذا فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشري والشكر.

١ . ابن الجوزي- صفة الصفوة: ٢٠٦/١+ المقريزي- إمتاع الأسماع: ٢٦٠/٢.

٢ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ١٣/٤.

٣ . فضائل الصحابة: ٦١٩/٢ ح ١٠٥٩+ البيضاوي- الصراط المستقيم: ١٩٢/١+ التستري- احقاق الحق ٥٦٣/٣+ البحراني- غاية المرام: ٤٠٢ ط/طهران.

٤ . سورة العنكبوت: ٢-١.

فقال: يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته. ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية. فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية. والربا بالبيع قلت يا رسول الله: بأي المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أم منزلة ردة أم بمنزلة فتنة؟ فقال: بمنزلة فتنة»^١.

المفردات: حازها الله عني فلم أنلها.

الموت عبرة

إنسان يعتبر بالموت ومن يمضي قبله كل يوم من المؤمنين فإنهم عبرة لنا ونحن عما قليل لاحقون بهم.

«وتبع جنازة فسمع رجلا يضحك فقال (عليه السلام) «كأن الموت فيها على غيرنا كتب».

وكان الحق فيها على غيرنا وجب، وكان الذي نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أحداثهم ونأكل تراثهم ثم قد نسينا كل واعظ وواعظة ورمينا بكل جائحة»^٢.

السفر سفر الموت، وننزلهم قبورهم، وأكل التراث أي الميراث، والجائحة الآفة التي تهلك الحرث والنسل.

ولذا الوصية بالحذر من الموت وما بعد الموت من مراحل تمر على ابن آدم فقال (عليه السلام): «أيها الناس، خذوها عن خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) «إنه يموت من مات منا وليس بميت، ويلى من بلى منا وليس ببال» فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تتكرون»^٣.

هذه تعاليم ووصايا علي (عليه السلام) وما ينقل من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكيف استفاد منها في كلماته الروحية العليا وما يريد من أوليائه في ذلك.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا.

الخاتمة

النتيجة التي انتهى عليها البحث هو أن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ليديه شدة الإحاطة بأقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقوة استثمارها في

١ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ٤٩/٢-٥٠.

٢ . الشريف الرضي- نهج البلاغة : ٢٨/٤-٢٩.

٣ . صبحي صالح- نهج البلاغة : ١٤٢.

كلامه عن طريق السماع أو الأخبار أو الاستشهاد بها بما يناسبها من الفكرة التي يريد طرحها.

وكلمات الإمام في نهج البلاغة وغيره تجليات من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مواضع متعددة وأفكار متنوعة.

واستقيد البحث على التناسب الموضوعي بين كلمات الإمام وأقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذه قرينة لإثبات صحة صدور النص عن قائله بشكل ومضمون مع المعاني والوظائف المتنوعة التي طرحت من خلاله.

والإفادة مما طبق من وظائف شرعية من بعض الأمور التي يجب تركها وعدم امتثالها، والإتيان بها من المكلف وذكر بعض النماذج كالحسد والكذب والنفاق والغضب، وبعض الأمور التي يرحح تركها ويكره الإتيان بها من المكلفين كالتصوير وطاعة المخلوق في معصية الخالق.

ثم الترابط في الهدف مع الأعمال الحسنة والتي فيها الطاعة كون العلم ضالة ومطلوب للعبد (الحكمة ضالة المؤمن) والحث على العمل الصالح بشكل عام وما يجنيه العبد لحياته الباقية.

واستقامة لسانه وإيمانه وهدايته لطريق الخير والتقوى وتجنب المعاصي من خلال التمسك بكلام الله وحبله الواصل بين السماء والأرض وهو القرآن الكريم. إعطاء حق المسلم لأخيه المسلم حقه إذ يسلم من آذاه ولا يصل إليه إلا الإحسان والتقوى.

وقف الفكر حول العبادة اليومية التي تمحو الذنوب وتغسلها ولا تبقى منها شيئاً أصلاً وهي الصلاة وتشبيها بعوض من الماء يغسل العبد فيه خمس مرات فلا يبقى عليه من الدرن بشيء. والروايات الشريفة التي توافق مع نصوص نهج البلاغة بطرق متعددة ومتفق عليها بين الفريقين.

ونعتذر من القارئ الكريم إن صدرت منا هفوة أو سوء فهم لكلام المعصوم والعذر عند كرام الناس مسموع، ونسأل من الله القبول.

قائمة المصادر والمراجع

خير ما نبتدأ به القرآن الكريم

- ابن الأثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد الجزري (ت: ٦٠٦هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر احمد الزاوي، (دار الكتب العلمية- بيروت)

- = = الكامل في التاريخ (بيروت- لبنان)

- ابن أبي الحديد المعتزلي، عز الدين أبي حامد المدائني (ت: ٦٥٦هـ) شرح نهج البلاغة (دار إحياء التراث العربي- بيروت/١٣٨٥هـ)

- احمد بن حنبل (٢٤١هـ) المسند أو مسند بن حنبل(دار الفكر -بيروت، ط٢/١٣٩٨هـ)
- ابن أبي شيبه الكوفي الأحاديث والآثار للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبه إبراهيم بن عثمان ابن أبي بسكر بن أبي شيبه الكوفي العباسي المتوفى سنة(٢٣٥ هـ)المصنف (مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر)
- الاميني: الشيخ عبد الحسين الأميني، الغدير في الكتاب والسنة (دار الكتاب العربي بيروت - لبنان / الطبعة الرابعة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م)»
- البحراني: يوسف البحراني (ت: ١١٨٦هـ) غاية المرام في إثبات حجية الخصام(ط/طهران)
- = ميثم البحراني(ت: ٦٧٩هـ)- شرح نهج البلاغة(مؤسسة النصر)
- = هاشم بن السيد سلمان الحسيني(ت: ١١٠٩هـ)- البرهان في تفسير القرآن (مؤسسة الأعلمي - بيروت - ط١/١٤١٩هـ)
- = شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين(بيروت - لبنان)
- البياضي- الصراط المستقيم (بيروت - لبنان)
- البخاري: محمد بن اسماعيل(٦٥٦هـ)- صحيح البخاري (دار الفكر - بيروت/١٤٠٢هـ)
- البغدادي: عبد القادر بن محمد(١٠٩٣هـ)- تاريخ بغداد (بيروت - لبنان)
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت: ٢٧٩هـ) الأنساب (بيروت - لبنان)
- البيهقي: أبو بكر، أحمد بن الحسين (ت: ٤٥٨هـ) السنن الكبرى (دار الفكر - بيروت/١٤١٦هـ)
- الثعالبي: أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن المالكي (٨٧٥هـ) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٩٩٧م)
- الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة(٢٩٧هـ)- سنن الترمذي أو الجامع الصغير أو السنن (دار الكتب العلمية -بيروت /١٤٢١هـ)
- التستري نور الله الحسيني(ت: ١٠١٩هـ)- إحقاق الحق وإزهاق الباطل (مكتبة المرعشي -قم -إيران)
- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي(ت: ٥٧٩هـ)- صفة الصفوة
- ابن الجوزي- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية
- الحر العاملي: محمد بن الحسن (ت: ١١٠٤هـ)- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ط٤، تح: محمد الرازي، (دار إحياء التراث العربي - بيروت/١٣٩١هـ)

- الحاكم: للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري - المستدرک المستدرک
- وبذيله التلخیص للحافظ الذهبي رحمهما الله بإشراف د. يوسف عبد الرحمن
المرعشي (دار المعرفة بيروت - لبنان)
- حسن الصدر- الرسالة العزيزة في شرح الوجيزة (المطبعة الحيدرية - النجف
الأشرف)
- الحويزي- عبد علي بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين، صححه وعلق
عليه وأشرف على طبعه الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي (مؤسسة
اسماعيليان - قم - إيران)
- الريشهري- محمد الريشهري، ميزان الحكمة (قم: دار الحديث، ١٣٧٥هـ).
- الشريف الرضي: محمد بن الحسين الموسوي (٤٣٦هـ) - نهج البلاغة المختار
من خطب الإمام علي (عليه السلام) مع شرح محمد عبده (بيروت- مؤسسة
الأعلمي)
- الشاشي: اسحاق بن إبراهيم (ت: ٣٢٥هـ) - المسند (بيروت - لبنان)
- الشهيد الثاني (زين الدين بن علي العاملي) (٩٦٥هـ) - الدراية في علم مصطلح
الحديث (مطبعة النعمان - النجف/ ١٣٧٩هـ)
- الشاطبي: أبو اسحاق بن إبراهيم (ت: ٣٢٥هـ) - الاعتصام (بيروت- لبنان)
- ابن شعبة الحراني (ت: ٣٨١هـ) - تحف العقول عن آل الرسول (المطبعة
الحيدرية - النجف الأشرف، ط ٤/ ١٣٨٥هـ)
- الشوكاني: محمد بن علي (١٢٥٠هـ) - فيض القدير (بيروت - لبنان)
- صبحي صالح الدكتور - نهج البلاغة (دار الأسوة، طهران، ط ٥/ ١٤٢٥هـ)
- الصدوق: أبو جعفر، محمد بن علي بن الحسين (ت: ٣٨١هـ) - من لا
يحضره الفقيه (مطبعة النجف - النجف الأشرف، ط ٤/ ١٣٧٨هـ)
- = = عيون أخبار الرضا (المطبعة الحيدرية - النجف / ١٣٩٠هـ)
- = = الخصال، (المطبعة الحيدرية - النجف / ١٣٩٠هـ)
- = = التوحيد، (المطبعة الحيدرية - النجف / ١٣٨٦هـ)
- الطريحي: فخر الدين بن محمد علي (ت: ١٠٨٥هـ) - مجمع البحرين، تح:
أحمد الحسيني «مطبعة الآداب - النجف الأشرف»
- الطوسي: محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ) - الأمالي «المطبعة الحيدرية -
النجف الأشرف»
- الطبري: أبو جعفر، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ) تاريخ الطبري- تاريخ
الأمم والملوك (بيروت - لبنان)
- العاملي: محسن الأمين (ت: ١٣٧١هـ) - أعيان الشيعة (مطابع الإتقان الأعلمي
- بيروت)

- الفاضل الهندي المتقى الهندي: علاء الدين، علي بن حسام الدين (ت: ٩٧٥هـ) - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (دار المعارف / ١٣٢٢هـ)
- القمي: علي بن إبراهيم القمي (ت: ٣٢٩هـ) تفسير القمي: (دار الكتاب - قم، ط٣/١٤٠٤هـ)
- القاضي النعمان المغربي (ت: ٣٦٣هـ) - دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله (ص) (دار الأضواء، ط١/١٤١٦هـ)
- المقرئ: أحمد بن علي بن عبد القادر (ت: ٨٤٥هـ) - إمتاع الأسماع بما للنبى (ص) من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع (دار الكتب العلمية - بيروت)
- المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (ت: ٤١٣هـ) - الاختصاص (المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف)
- المازندراني - للمولى محمد صالح المازندراني المتوفى (ت: ١٠٨١هـ) شرح الكافي الجامع (دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان / الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م)
- ابن منظور: محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ) - لسان العرب (بيروت-دار الصادر/١٣٧٥هـ)
- لابن منظور - مختصر تاريخ دمشق (بيروت-لبنان)
- المجلسي: محمد باقر (ت: ١١١١هـ) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (طهران- المكتبة الإسلامية / ١٣٩٥هـ)
- مسلم: مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ) - صحيح مسلم أو الجامع الصحيح (دار الفكر - بيروت / ١٤٠٧هـ)
- الكعبي: وفان خضير محسن - الاستدلال بحديث الرفع على البراءة، بحث منشور في مجلة بحوث ودراسات، (العدد السادس لسنة ١٤٣١هـ ص ٥)
- الكليني: أبو جعفر، محمد بن يعقوب (ت: ٣٢٨هـ) - أصول الكافي (دار التعارف-بيروت / ١٤١٩هـ)
- ابن الكثير: أبو الفداء، إسماعيل بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) - تاريخ ابن كثير (بيروت-لبنان)
- الهيثمي: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة (ت: ٨٠٧هـ) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد بتحريه الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م بيروت - لبنان)
- النوري: حسين النوري (ت: ١٣٢٠هـ) - مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل (مؤسسة آل البيت-بيروت / ١٤٢٩هـ)

- النسائي: أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب (ت: ٣٠٣هـ) - سنن النسائي
(بيروت-لبنان)
- الهيثمي- للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة (ت:
٨٠٧هـ) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن
جر (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - بيروت - لبنان).

أثر نهج البلاغة في شعر ناصر خسرو

(دراسة في مستويات التعبير الأدبي)

المدرس الدكتور: علي مجيد البديري (جامعة البصرة – كلية الآداب)

مقدمة:

تحاول هذه الدراسة التوقف عند تجليات التأثر بنصوص نهج البلاغة لدى الشاعر الإيراني ناصر خسرو (١٠٠٤ - ١٠٨٨)، في موضوع الحكمة والأخلاق الذي اشتهر به وعُرف لديه، بوصفه غرضاً أثيراً قلَّ أن تخلو قصائده منه.

وقد اقتضت معالجة هذا الموضوع التعريف بالشاعر، وبالسياق الثقافي الذي عاش فيه وتأثر بمكوناته بشكلٍ موجزٍ وسريع، فهو شخصيةٌ شديدة الصلة بمحيطها؛ وقد جعل منه هذا الالتصاق بالواقع شاعراً تتجاوز فاعليته حضوره مكانه وعصره.

لينتقل البحث بعد ذلك إلى معاناة التحولات الأسلوبية التي طرأت على (جملة) الحكمة، وهي ترتحل من سياق النثر الفني (في نصوص النهج الشريف) إلى سياق الشعر، حيث تكتسب سماتٍ نوعيةً جديدةً، ذات طبيعة خاصة. على أن هذا التحول الأسلوبي للجملة لم يتم بشكل انتقالٍ مقطوعة الصلة عن سياقها الأول في نصوص النهج، لما للغة هذه الأخيرة من مزايا شعرية عالية جعلتها أكثر قرباً من جماليات الشعر.

ولأجل تحقيق ذلك كان على الدراسة أن تتخذ منهجاً مقارناً يفيد - بطريقةٍ توليفيةٍ - من معطيات المدرستين الفرنسية والأمريكية في الأدب المقارن. فجاءت عناية الدراسة موزعة - بشكلٍ متوازن نوعاً ما - بين معاناة البعد الخارجي (التاريخي) لعلاقة التأثير والتأثر هذه، وبين تأمل تجليات العلاقة في داخل النصوص ضمن البعد الداخلي (الفني).

ناصر خسرو: شيء عن عصره وثقافته

هو شاعر وكاتب ورحالة، ولد في قباديان عام ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، ونشأ فيها، وسط أسرة متوسطة الحال، مثقفاً ثقافة واسعة، إذ تلقى في مطلع عمره العلوم

الشائعة في زمانه، وقد اتسمت الفترة التي عاش فيها بالاضطرابات السياسية العنيفة والنزاعات الاقتصادية والعرقية والجدل الديني^١.

إن شخصية خسرو وشاعريته واهتمامه بمحيطه، أكسبه أهمية عالمية تجاوزت حياته وعصره. على أن هناك من قلل من الأهمية الجمالية لشعره، و في الوقت ذاته عدّه البعض واحداً من أعظم شعراء الأدب الفارسي الكلاسيكي، أو شاعراً فيلسوفاً؛ نظيراً لأبي العلاء المعري. وقد مارس خسرو دوراً رائداً في تطوير النثر الفارسي و أساليبه مضافاً إلى إسهاماته في مجال الفلسفة واللاهوت الإسماعيلي.

إن إحدى الموضوعات المهيمنة في شعر ناصر خسرو هو وضع الإنسان ومكانته في الكون. كما أن شعره الذي يركز إلى رؤيته اللاهوتية والفلسفية كان مفعماً بتأمل الطبيعة الإنسانية وقدراتها الخلافة.

فهو يعد الإنسان ذروة الخلق والعتبة إلى العالم الآخر، على إن هذه الامتيازات - في رأيه - لم تعف الإنسان من الهدف الأخلاقي لوجوده والمسؤولية عن أفعاله أمام الله، و أمام جميع المخلوقات أيضاً.

ويرى ناصر خسرو أن الفضيلة والفكر اللذين جعلوا الإنسان سيداً على الحمير هي ذاتها الخصال التي جعلت منه عبداً لله القدير^٢.

وعندما بلغ الثالثة و الأربعين من عمره، سافر إلى مكة المكرمة. وخلال رحلته الطويلة إليها مرّ بعدة مدن، مكث في بعضها طويلاً، و أدى في مكة فريضة الحج. ومن هناك استمر في رحلته، مدوّناً مشاهداته عن تلك البلدان. وكانت أطول إقامة له في القاهرة، حيث أقام قرابة ثلاث سنوات، وفي عام ٤٤١ هـ غادر مصر ليزور مكة، وبعد أدائه الحج، غادرها عائداً إلى وطنه إيران سنة ٤٤٣ هـ بعد أن مرّ بعدة مدن منها البصرة إذ مكث فيها شهرين، ليغادرها منهياً رحلته أخيراً في بلخ وذلك سنة ٤٤٤ هـ^٣.

وفي خلال هذه الرحلة التي استغرقت زهاء سبع سنوات، واجه ناصر خسرو الكثير من الأحداث والصعاب. إلا أن ما كان له الأثر البالغ في حياته هو تأثره الكبير بشخصية الخليفة الفاطمي في مصر، حيث اعتنق المذهب الإسماعيلي.

١ . ينظر: بركزیده قصابید ناصر خسرو: د. غلام محمد طاهري مبارکه، سازمان مطالعه وتوین کتب علوم إنسانی دانشکاه (سمت) - تهران، ١٣٨٢ ش؛ ١٣.

٢ . ينظر: المصدر السابق: ١٥.

٣ . ينظر: سفر نامه: ناصر خسرو علوي، تر: د. يحيى الخشاب، تصدير د. عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٩٣ (المقدمة): ٣٨.

وعند عودته إلى بلخ بدأ يدعو إلى المذهب الإسماعيلي بشكل علني، ويناظر ويناظر فيه العلماء والفقهاء في عصره. وقد واجه ناصر خسرو تضييقاً واضطهاداً من قبل السلجوقيين اضطره إلى أن يتخفى في قلعة يميغان بالقرب من مدينة بدخشان، ويعتزل الناس، حتى وفاته سنة ٤٨١ هـ. وفي خلال فترة عزله هذه انهمك ناصر خسرو في نظم الشعر، والتأليف، والتصنيف^١.

أثر نهج البلاغة في شعر خسرو

لقد وقر إتقان اللغة العربية، والإحاطة بجماليات الكتابة بها، للشاعر ناصر خسرو، فرصة فائقة لتذوق نصوص نهج البلاغة، والإفادة من خصائصها ومزاياها الفنية الكبيرة فاللغة الفنية التي استخدمها الإمام علي (عليه السلام) كانت تمتاز بمستوى عالٍ من التكتيف، بشكل جعل منه اللغة جمالية محضة، تحتشد فيها الصور التشبيهية والتمثيلية والاستعارية والرمزية والاستدلالية، ولا تكاد تجد من بين آلاف المفردات والتراكيب فيها مفردة أو تركيباً خالياً من إيقاع ملحوظ، فضلاً عما هو مدهش ومثير في الجانب البنائي لنصوص النهج في مختلف مستوياته.

وتجلت آثار هذه القراءة المتدوقة لنصوص النهج في شعر ناصر خسرو، الذي عُرف بهيمنة الطابع الأخلاقي والوعظي عليه، الأمر الذي عدّه البعض - كما مرّ بنا - خللاً كبيراً في شعر خسرو وشاعريته. وإذا ما أردنا أن نلقي نظرة سريعة على واقع هذا اللون من الشعر في الأدب الفارسي، فإننا سنجد أنه قد شهد ازدهاراً كبيراً منذ فترة مبكرة. وقد يدخل هذا الموضوع الشعري - في رأي أحد الباحثين - مع مجمل المؤثرات العربية التي تجلّت ملامحها في الأدب الفارسي^٢.

وبعيداً عن الخوض في هذا الجدل الدائر حول مدى شعرية بعض المواضيع، ومقدار صلاحيتها للشعر، فإننا سننطلق من معاينة النصوص الشعرية لخسرو

١. ينظر: الأدب الفارسي في أهم أواره وأشهر أعلامه: محمد محمدي، منشورات طوس - طهران، ط٢، ١٩٩٥: ٣٤.
٢. ينظر: أدب الشريعة الإسلامية: د. محمود البستاني، مؤسسة السبطين (ع) العالمية - إيران، ط١، ١٤٢٤هـ: ١٣٧ - ١٣٨.
٣. ينظر: في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفاي، دار النهضة العربية - بيروت، ط١، ١٩٧١: ٥١٥.

التي نرى فيها تأثيراً واضحاً بنصوص نهج البلاغة، وفحص التحولات الطارئة على مستويات التعبير الأدبي في نصوص النهج وهي ترحل إلى فضاء جديد هو فضاء الشعر، ونحاول أن نكشف عن التماثل أو التغيرات الحاصل في هذه المستويات عبر مقارنة النصين (المؤثر والمتأثر) ببعضهما، حيث يحمل المستوى الشعري سمات منها الإضمار للتعبير وفيه «لا يؤدي التعبير الذي يضم معنى ما أو وظيفة الاختصار، أو الإشارة إلى الغائب عن الظهور في السياق بما يدل على حضوره، وإنما يقوم في المستوى الشعري بتمثيله وتجسيد حركته وفعله بأسلوب مغاير لما يناسبه في المستوى الإبلاغي على سبيل المثال»^١ ويتحقق عبر توافر عنصرين هما: الإخفاء حيث يستتر المعنى خلف ظاهر الكلمات في التعبير.

والإلماح: من خلال الإشارات التي تظهر على التعبير كاشفة عن جانب من المعنى المراد نقله وإيصاله إلى المتلقي.^٢

نقرأ للشاعر مقاطع من قصائد مختلفة يجمعها التأثير بنص مؤثر مشترك: «وإن رُحِب بك في هذا المنزل لا تبقى في هذا الزائل سيخرجك الرب منها وإن لم ترغب في الخروج منها بسهولة»^٣.

وقوله:

«هذا العالم مركز الألم والغم والظلمات النور والبهجة ليست في هذا العالم»^٤.

وكذلك قوله:

«أحوال هذا العالم المتغير، متغيرة برد بعد الحر، وسراء بعد الضراء»^٥.

وقوله:

«لما أصبحت سيدياً في الدين والعلم صارت الدنيا بالنسبة لك ممراً اضطرارياً»^٦.

هذه النصوص من قصائد مختلفة في الديوان، تجتمع حول وصف الدنيا وتقلب أحوالها، وتحذر بطريقة غير مباشرة من الركون إليها والاطمئنان لمظاهرها

١ . أنساق التداول التعبيري، دراسة في نظم الاتصال الأدبي: د. فائز الشرع، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط١، ٢٠٠٩: ٣٠٧.

٢ . ينظر: المصدر السابق: ٣٠٨.

٣ . ديوان أشعار حكيم ناصر خسرو قبادياني: تصحيح: مجتبی مینوی، مهدي محقق، دانشگاه تهران - تهران، مؤسسه انتشارات، ١٣٧٨: ٥٩.

٤ . الديوان: ٣٦.

٥ . الديوان: ٤.

٦ . الديوان: ١٩.

الخادعة، ويأتي التعبير عن ذلك في هذه النصوص وفق مستوى إبلاغي مباشر تارة، وغير مباشر تارة أخرى.

فعلى وفق الحالة الأولى تأتي النصوص الثلاثة الأولى لتخبر بطريقة مختزلة عن حتمية الارتحال عن هذه الدنيا، سواء أحب الإنسان ذلك أم كرهه. على أن الوعي بحقيقة الدنيا كفيل بأن يجعل الإنسان كارهاً للبقاء فيها، غير مكترث بها، فهي موئل الآلام والظلمات، تتقلب أحوالها و تتبدل وجوهها من حال إلى آخر يناقضه، أما السعادة و النور ففي الآخرة دار البقاء.

ويعمد الشاعر في النص الأخير إلى اعتماد مستوى إبلاغي غير مباشر، من خلال بيان حال المخاطب الذي يبدو متحولاً من وضع سابق، مسكوت عنه في النص، ولكنه يلح إليه، إلى حال جديدة من التدين و المعرفة وامتلاك البصيرة النافذة، حيث تصوير الدنيا ممرأ - لا مقرأ - إلى حياة الآخرة.

نجد هنا (في النص الأخير) أن الشاعر لجأ إلى إضمار معنى لم يُبح به في التعبير الأدبي، ولكنه لم يهمله تماماً، إذ حث المتلقي على استحضار الحال السابقة/ المضمرة للمخاطب عبر تقابل تمثيلي صنع شعرية النص، و أبعدته عن المباشرة في الإبلاغ.

ويبدو واضحاً حضور نصوص النهج الكثيرة - في ذم الدنيا و تصوير أحوالها - في أبيات خسرو هذه، من ذلك قول الإمام علي (عليه السلام): «عباد الله، أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم و إن لم تحبوا تركها،... فإنما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلاً فكأنهم قد قطعوه، و أموا علماء فكأنهم قد بلغوه. وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها».

على أن خصوصية الإبلاغ في هذا المقطع من الخطبة (مقارناً مع أبيات خسرو) يعتمد التقابل التمثيلي من غير إضمار، وهذا أمر عائد إلى شعور منشى النص بضرورة البيان والإيضاح و عدم الإخفاء في الكشف عن حقيقة الدنيا، فيؤكد الإمام على عنصر الزمن في الصورة التي يمثل بها لحال الدنيا، ويكون مثل الناس فيها كمسافرين بلغوا نهاية الطريق، ولم يبق لديهم وقت ينفق، أو غاية يقصدونها.

وقد جسد التساؤل (المجازي) في نهاية هذا الجزء معنى قصر الدنيا ونفادها بشعرية عالية، وتكثيف كبير.

ويمكن أن نقرأ في أبيات خسرو أيضاً أصداء هذه النصوص من النهج الشريف:

١ . نهج البلاغة: شرح الشيخ: محمد عبده، مطبعة كرم و مكتبتها - دمشق، دبت: ج ١ / ١٩١.

«فكونوا أبناء الآخرة، ولا تكونوا أبناء الدنيا، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة»، وقوله (عليه السلام) واصفاً الدنيا: «فهي تحفز بالفناء سكانها و تحدر بالموت جيرانها»^١، وقوله في خطبة أخرى: « انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادقين عنها. فإنها والله عما قليل تزيل الثاوي الساكن،...»^٢.

وهكذا نجد أن هناك تماثلاً نسبياً في بعض المواضع من مستوى التعبير الأدبي ما بين المؤثر (نصوص النهج) و ما بين المتأثر (أبيات خسرو) وبشكل لا يمكن معه إلغاء خصوصية التعبيرين، بل أن هناك بعداً آخر يتجلى في تأثير نصوص النهج في هذه الأبيات أزعم أنه يتمثل في استحضار منشئ النص المؤثر، كضرورة لا مفر منها، مهما حاول قارئ أبيات خسرو التغاضي عنها، أو حصر عنايته في مجال التركيب الداخلي للنص، وهو ما يرتبط بالمستوى الإنفعالي في التعبير، أي ما يتعلق بـ « موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه»^٣ لا يمكن تجاهل حضور صورة الإمام علي (عليه السلام) و هو يجعل من قرص الشعير اليابس والملح الجريش زاده اليومي، وثوبه التي استحيا من راقعها كفايته من الدنيا التي طلقها ثلاثاً.

ولا شك في أهمية ما يمنحه هذا الحضور للنص من قيمة تعبيرية إضافية توسع من مساحة فاعلية القيم الأخرى وتضاعف من تأثيرها الجمالي في المتلقي. وكذا الأمر مع أبيات خسرو التي تستدعي صورة حياته التي عاشها في زمن التحولات السياسية والتقلبات الكبيرة، وانفق سنوات منها في الترحال، ومعاينة أحول الناس وثقافتها في البلدان المختلفة، ويختمها بعزلة زاده فيها التأليف والكتابة.

وفي نص آخر، يتجلى فيه أثر حِكم نهج البلاغة في تأمل الدنيا، يستمر الشاعر ناصر خسرو في حشد صور الزوال كلازمة للحياة الدنيا، بطريقة تظهر فيها ذاته واضحة، يقول:

«لا تغتر بالسلطان و إقبال الدنيا لأنها مقرونة بالزوال الدنيا معي كامرأة غير وافية لست مسروراً بالبقاء معها و لا أحزن لفراقها»^٤.

١ . المصدر السابق: ج ١/ ٩٣.

٢ . المصدر السابق: ج ١/ ١٠١.

٣ . المصدر السابق: ج ١/ ١٩٧.

٤ . قضايا الشعرية: رومان جاكوبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، د.

ت: ٢٨ .

٥ . الديوان: ١٨٠.

يوظف الشاعر في هذا المقطع أساليب النهي والإخبار والتمثيل في تعبير تتماهى مستوياته البلاغية والانفعالية والشعرية، فهو يعلل نهيه عن الوقوع في حبائل الإغترار بالدنيا لزوال سلطتها ومباهجها، ويقوده هذا الإخبار عن الزوال إلى صناعة صورة له، يعتمد فيها التقابل التمثيلي، فيجعل حالة الزوال مجسدة في صورة (امرأة / زوجة) (غير وفية / خائنة)، تهب نفسها للجميع وهي في الوقت ذاته حرة لا يملكها أحد. وهكذا تكون حركة الدنيا/ المرأة حركة سلبية في مقابل حركة الشاعر الإيجابية في النص، فهو يرفضها ويزهد بها، وتغدو عديمة القيمة والتأثير لديه.

ويبدو واضحاً تأثر خسرو في معاني أبياته هنا بنص من نهج البلاغة، يعتمد في الإمام علي (عليه السلام) أسلوباً حجاجياً قائماً على التساؤل الإنكاري التعجبي، الموجه لمريدي الدنيا والواقعين في حبائلها، يقول الإمام: «ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، و أبقى آثاراً وأبعد آمالاً، وأعدّ عديداً، و أكثر جنوداً. تعبدوا للدنيا أي تعبد، وأثروها أي إثار. ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلّغ و لا ظهر قاطع. فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بقدية، أو أعانتهم بمعونة أو أحسنت لهم صحبة».

يضع الإمام المخاطب هنا، أمام جملة من الحقائق التي يتغافل عن الالتفات إليها، بطريقة يتقصى فيها صفة الزوال والفناء، ويكسر تجلية وجوها في واقع المخاطب وفي مفردات حياته اليومية، مستخدماً حجاجاً تقابلياً مقارناً، تكون فيه الحقائق شواهد ملموسة تعمل على تجسيد فكرة الزوال. ويمارس الشاهد على الزوال في النص حضوراً فاعلاً؛ حيث «لا تكمن الغاية منه فقط في تعويض المجرى باللموس..... وإنما تكمن أساساً في تقوية الفكرة وتأكيد حضورها في الذهن».

يجعل المقطع المجتزأ من الخطبة هنا من صورة تعاقب الأجيال الفانية، وبعض نماذج القوة والسطوة والسلطة وزوالها، مجسمة، ومتحركة أمام المتلقي، وفي ذلك ما يلبي حاجة المستوى البلاغي للتعبير في فن الخطبة، على أنه ليس بخافٍ تماهي المستوى الانفعالي معه.

لقد أخضعت أبيات خسرو عناصر التأثير في نص النهج هنا إلى عملية إعادة تشكيل تعبيرية، حيث اعتمدت الحجاج بالتقابل التمثيلي بدلاً عن الحجاج بالشاهد الحي الذي اعتمده نص النهج.

١. نهج البلاغة: ج ١/ ٢١٨ - ٢١٩.

٢. عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج: د. عبد السلام عشير، عشير، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٦: ٩٦.

وفي نمط آخر من توظيف نصوص نهج البلاغة يعمد الشاعر إلى استخدام أسلوبه يقترب من الأصل ويكاد يطابقه، فحين يتخذ نص النهج مستوى تعبيرياً إبلاغياً، مبرراً إياه بشكل أكبر من المستويات الأخرى، يحرص الشاعر على توظيف المستوى ذاته في التعبير الشعري.
من ذلك نقراً:

«الطريق إلى الخالق مَنْ يعرفه؟ النبي النبي أودع ذلك السر لدى حيدر»^١.

وقوله:

«موضع أسرار النبي كان علي فاقصد موضع الأسرار»^٢.

وكذلك قوله في قصيدة أخرى:

«غير علي من كان بعد الرسول ذلك الذي جاءت الخليفة صاغرة»^٣.

يتجلى في هذه النصوص تأثيرها الكبير بمقطع من خطبة للإمام (عليه السلام) يبين فيه منزلة أهل البيت (عليهم السلام) السلام، عامة، ومنزلته خاصة: «تالله لقد علمت تبليغ الرسالات، وإتمام العُدات، وتمام الكلمات. وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضيء الأمر»^٤.

وقوله (عليه السلام): «موضع سره و لجا أمره و عيبة علمه وموئل حكمه، و كهوف كتبه»^٥.

على أن المستوى الشعري الذي يتماثل فيه طرفا المقارنة (المؤثر والمتأثر) يقوم على فعلي الإضمار والتلميح، ففيهما بيان إبلاغي حول معرفة أهل البيت وعلمهم و خصوصية منزلتهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، يكمن خلفه معنى مضمر يحمل دلالة أقوى وأكبر تأثيراً في تحقيق الفكرة التي تريد هذه النصوص تحقيقها، وهو معنى أحقيتهم في خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد تكفلت المعاني الجزئية التي تضمنتها النصوص بالتلميح لهذا المعنى المضمر.

وفي موضع آخر نقراً لخسرو قوله:

«مثل هذا الياسمين و الورد في العالمين أين ينبت بغير أرض محمد؟»^٦.

١ . الديوان: ٣٠٨.

٢ . الديوان: ٢١٤.

٣ . الديوان: ٣٠٢.

٤ . نهج البلاغة: ج ١/ ٢٣٣.

٥ . المصدر السابق: ج ١/ ٢٩ - ٣٠.

٦ . الديوان: ١٢٩.

حيث نرى تأكيداً على المعنى ذاته، وتكريساً له، وهو ما يجسد تأثراً بمقطع من خطبة للإمام (عليه السلام) يقول فيه: «نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، و مختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم»^١.

وكذلك قوله (عليه السلام) في موضع آخر: «احتجوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة»^٢.

على أن المقطع هنا يجاهر بما جاء مضمراً في النصوص السابقة عبر لغة استعارية، أريد منها أن تحيل على دلالة عقائدية، تتعلق بما هو أكبر من موضوع خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). ونلاحظ توافر النصوص في طرفي المقارنة على لغة موجزة ومعان مكثفة، وليس هذا الملمح الأسلوبي بطارئ على نصوص نهج البلاغة، ف « الإيجاز واحد من المظاهر الشعرية التي تمثلت و تجسدت في نصوص النهج وعكست مظهراً شعرياً أسلوبياً من المظاهر الأسلوبية القارة في الكتاب»^٣.

لقد حافظت النصوص على توازن لغتها، على الرغم من أن طبيعة الموضوع والفكرة المراد تحقيقها وإيصالها إلى المتلقي تحمل قدرة كبيرة على استثارة ملامح المستوى الإنفعالي للتعبير، بشكل يكون فيه النص - فيما لو تحقق ذلك - متخماً بالتفاصيل، ومعتمداً لغة يغلب عليها طابع الحجاج وآياته. غير أن المستوى الإنفعالي في هذه النصوص ظل في حدود ما يحيل إليه في المدونة التاريخية، وما فيها من تفاصيل وملامح بيئية شكلت حاضنة للنصوص.

ومن نماذج التأثير الأخرى نقراً:

«لا يعينك على هذا الشيطان سوى الطاعة والحب لآل ياسين اعطف قلبك على محبتهم حاصر هذا الشيطان وقيده في شريعة النبي الناصعة لا ملوك غير آله»^٤.

يعمل هذا النص على سمتي الإضمار والإلماح في المستوى الشعري للتعبير؛ فما يضمرة النص هو النهي عن انتهاج الطرق المختلفة غير طريق آل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا النهي يقف ظلاً للأمر الصريح بالتمسك بهم.

١ . نهج البلاغة: ج ١/ ٢١٥.

٢ . المصدر السابق: ج ١/ ١١٦.

٣ . المستويات الجمالية في نهج البلاغة، دراسة في شعرية النثر: نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط ١، ٢٠٠٨: ١٥٨.

٤ . الديوان: ٥٠.

وفي النفي الأخير من النص (لا ملوك غير آله) تلميح يكاد يخرج عن حدوده. أما إذا توقفنا عند المستوى الانفعالي للتعبير في النص فإننا لا نستطيع فصله عن انتمائه لبيئة الجدل الكلامي حول المذاهب والعقائد التي عاش فيها خسرو وكتب نصوصه تحت تأثيرها.

وفي نص النهج الذي تأثرت به أبيات خسرو نقراً:

«فأين يتاه بكم، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة الحق و أعلامُ الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ورددتهم و ردوهم وورود الهيم العطاش»^١.

وهنا لا نجد للإضمار حضوراً، بل على العكس فإن لغة النص صريحة يبرز فيها المستوى الإنفعالي بكل وضوح عبر تساؤل إنكاري متعجب، من طرق التيه البعيدة عن طريق العترة.

وواضح كيف أن النص الشعري في تمثله لمعاني نص النهج عمد إلى تفعيل المستوى الشعري معتمداً سماته، لكي يرفع من شعرية التعبير ويعضد من قوة المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية:

- ١ - أدب الشريعة الإسلامية: د. محمود البستاني، مؤسسة السبطين (ع) العالمية - إيران، ط١، ١٤٢٤هـ
- ٢ - الأدب الفارسي في أهم أدواره و أشهر أعلامه: محمد محمدي، منشورات طوس - طهران، ط٢، ١٩٩٥
- ٣ - عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: د. عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٦
- ٤ - في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفاقي، دار النهضة العربية - بيروت، ط١، ١٩٧١
- ٥ - قضايا الشعرية: رومان جاكوبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، د. ت.
- ٦ - المستويات الجمالية في نهج البلاغة، دراسة في شعرية النثر: نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط١، ٢٠٠٨
- ٧ - نهج البلاغة: شرح الشيخ: محمد عبده، مطبعة كرم ومكتبتها - دمشق، د. ت.

١. نهج البلاغة: ١٥٤.

ثانياً: الكتب الأجنبية:

- ١- بر كزیده قصاد ناصر خسرو: د. غلام محمد طاهري مباركه، سازمان مطالعه و تدوين كتب علوم إنساني دانشكاه (سمت) - تهران، ١٣٨٢ ش، ١٣:
- ٢- ديوان أشعار حكيم ناصر خسرو قبادياني: تصحيح: مجتبی مینوي، مهدي محقق، دانشكاه تهران - تهران، مؤسسه انتشارات، ١٣٧٨
- ٣- سفر نامه: ناصر خسرو علوي، تر: د. يحيى الخشاب، تصدير د. عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٩٣.

خطبة الشقشقية (تحليل لغوي أسلوبى)

المدرس المساعد: حسين محسنى (جامعة تربيت مدرس – طهران)

المخلص:

اللفظ هو وسيلة لبيان الفكر وكل خصائصه صرفية ونحوية وبلاغية قد يؤثر في المعنى وظلاله ولها إرتباط وثيق بالتلقي ومن هنا كلما كُثر استيلاء المتلقي على خصائص الكلمة، توسّعت لديه دائرة الدلالة.

إذن الفهم الكامل للنص بحاجة ماسة إلى عناية دقيقة بخصائص النصّ الداخليّة، كما تحتاج إلى فهم العوامل الخارجية المؤثرة في السياق الدلاليّ. خطبة الشقشقية بما فيها من الخصائص اللغوية والأسلوبية النادرة، تمتلك ميداناً واسعاً من الدلالات في شتى المجالات.

«الشقشقية» بداية من تسميتها حتى جميع خصائصها اللغوية والبلاغية قد تُرشّد القارئ إلى هموم الإمام علي (عليه السلام) كما تكشف عن الوقائع السياسية والاجتماعية والدينية آنذاك.

والمقال هذا يعالج تحليل النص وبيان بعض خصائصه اللغوية والأسلوبية التي تساعد إلى التبيين الأكثر للمفاهيم عبر التأمل في ميزات الكلمات حسب حقولها الدلالية والجمل ومستوى الخطاب في الخطبة.

من نتائج هذا البحث هي أنّ «الشقشقية» تبتعد عن الاستنهاض خلافاً لسائر الخطب وليس لها غرض إلا بيان ما يجري في ضمير الإمام من الآلام والأسف كما سمّيت «شقشقة هدرت ثم قرّت».

المقدمة:

ترتبط اللغة إرتباطاً وثيقاً بتفكير الإنسان ومشاعره الداخلية، وليست اللغة إلا مجموعة متناسقة من العلامات المنظمة في نسق معين.

إذن لا يمكن فهم مكونات اللغة الأساسية إلا بعد تحليل الدلالات الموجودة في مفردات اللغة الداخلة في هذه التراكيب والسياقات المحددة.

مع أن الألفاظ مشتركة بين الأشخاص، لكن دلالة كل منها تختلف من متكلم أو كاتب لآخر حسب تجربته الشعورية الخاصة ومقدرته في بيان ما يجري في ضميره.

إذن لا يمكن للباحث أو القارئ أن يطلع على مكونات النص الأدبي إطلافاً كاملاً إلا بعد الإلمام إلى الوظائف الدلالية الكامنة في الدلالة الإيحائية للفظ وكيفية حضوره في التركيب.

على هذا الأساس تفهم النصوص الأدبية الراقية ومنها خطب أمير البلاغة علي (عليه السلام) بحاجة ماسة إلى دراسة النص دراسة تحليلية في اللغة والأسلوب.

مع أن كثيراً من الدارسين والشارحين قد بادروا إلى شرح نهج البلاغة شرحاً إعتقادياً و علمياً وسياسياً و أيضاً أدبياً، لكن لا نرى باحثاً قد إستفاد في شرحه من النظريات الدلالية، اللهم إلا بعض الجهود اليسيرة التي بذلها ابن ميثم البحراني في شرحه الأدبي تحت عنوان «شرح نهج البلاغة» والتي لا تتجاوز بعض التحليلات البلاغية والصرفية.

فيسعى هذا المقال إلى دراسة خطبة «شقشقية» دراسة لغوية أسلوبية. في الدراسة اللغوية تُعالج الوحدات المعجمية حسب حقولها الدلالية وفي الدراسة الأسلوبية، تدرس ميزات الجمل ومستوى الخطاب في الخطبة، إلّا أن اكتفاءنا بدراسة الحقول الدلالية والجمل والخطاب في الخطبة دون المستويات الأخرى من التحليل اللغوي والأسلوبي، لا تعود إلى إغفال وإهمال، وإنما إلى طبيعة النص التي تقتضي ذلك.

نظرية الحقول الدلالية:

الحقل الدلالي يطلق على مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشتمل على مفاهيم تدرج تحت مفهوم عام يحدد الحقل. والتحليل الدلالي لبنية اللغة من الأمور الضرورية لدراسة دلالة الكلمة، سواء أ كانت الدراسة تاريخية أو مقارنة أو تقابلية، والباحثون قد حاولوا كثيراً في البحث عن مناهج تفيد في التحليل الدلالي الوصفي ومن أهم هذه المناهج، نظرية الحقول الدلالية التي تصنف المدلولات في حقول مفهومية.

سويسر «F.DE SAUSSURE» هو أول من أقر بوجود علاقة دلالية بين عدد ما من مدلولات بعض الألفاظ المستعملة في النص الذي نسميها حقلاً دلالياً واحداً وكلٌّ من هذه الحقول يتكون من جانبيين هما: الجانب المعجمي والجانب المفهومي^٢.

١ . شلواي، ص ٣٩.

٢ . المرجع السابق، ص ٤٢.

الألفاظ الدالة على حقل دلالي واحد

الألفاظ الدالة على اللباس

(تَقَمَّصَهَا؛ سَدَلْتُ؛ ثَوْبًا؛ عِطْفَان)

الكلمات الواردة في حقل اللباس مستعملة في الإستعارة والكناية عن الخلافة كما نراه في «تَقَمَّصَهَا فلان» و «سَدَلْتُ دونها ثوباً» و«شُقَّ عِطْفَايَ»، مع بعض الإختلاف في تأويل الأخيرة التي تدلّ على شقّ القميص على سبيل المجاز. إذن مفهوم الخلافة عند علي (عليه السلام) ليس إلا قميصاً و لباساً والقميصُ عند الإنسان أكثرُ شَيْءٍ إحتياجاً إلى التبديل والتغيير ويندرسُ سريعاً مع مضي الزمان ولا بدّ للإنسان أن يغير قميصه بعد مدة من الزمان. فعندما إختار الإمام هذه الكلمة فربما أراد أن يشير إلى أنّ كل حقبة أو مرحلة سياسية تكون دولة بما في الكلمة من المعنى الإنتقالي كما صرّح به القرآن: «تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا!».

لكن النظرة الثانية على مواضع إستعمال هذه الألفاظ يُشيرُ إلى حقائق لم يُشير إليها الإمام إلا بالكناية وهي شدة إلتصاق أبي بكر بالخلافة ومبالغته في طلبها مهما يكن ثمنها وقد يقوي الإدعاء قوله: «... ما تشظرا ضرعيها»؛ وقد تعكس هذه النظرة إلى الحكومة والخلافة عند الإمام، لأنه يسدّل بينه وبينها سترًا ويقطع النظر والطمع منها.

وأما من حيث اللغوي كلمة «تَقَمَّصَ» لها أيضاً من الدلالات اللفظية الآتية: الإستعارة من تملك الخلافة بالتقمص ووجه الشبه شدة الأخذ والإلتصاق. إتيان الفعل على وزن «تَفَعَّلَ» الذي يدل على المطاوعة والتكلف؛ كما نستفيد في التّخضع مثلاً.

والإشارة إلى عدم تناسب المتقمّص مع ذلك القميص بدليل ما من جهة وتأثير الناس وعدم معرفتهم بالخلافة من جهة أخرى.

الألفاظ الدالة على الحيوانات

الطَّيْرُ؛ كُورَهَا؛ ضَرَّعَيْهَا؛ الصَّعْبَةُ؛ اللَّيْلُ؛ خَبَطَ، شِمَاسٌ، تَلُونُ، نَافِجُ الحِضْنَيْنِ، النِّثِيلُ، المَعْتَفُ، الضَّبْعُ؛ الغَنَمُ؛ عَنَزَ أكثر ما يثير الإنباه في هذا الحقل هو ما يرتبط بـ«الناقة».

إبتداءً يتمثل الإمام بقول الشاعر ويشبه نفسه بالمسافر على «كور الناقة» مع المتاعب والمحن، يعني نصيبه عن ناقة الخطبة هو التعب وعدم الراحة.

ولا بد أن لا نغفلَ عن الدلالة السائحة الموجودة في كلمة «كور»؛ الإستعارة في كونه على كور الناقة يعود إلى زمانه (عليه السلام) بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وخروج الخلافة والحكومة عن مدارها الأصلي أهم ميزات هذه الأيام.

إذن هناك صلة بين دلالات كلمة «كور» والظروف الإجتماعية والدينية آنذاك. القراءة في دلالات هذه الكلمة يرشدنا إلى مفاهيم عديدة ومنها:

«الكور» تدلّ على نزع الضوء و ذهاب النور كما ورد في الكريمة: «إذا الشمس كورت»^١. هناك أيام فقدت ضياءها بسبب إنحراف الخلافة عن مسيرها

الأصلي و أبتلي الناس في سيرهم بخبطٍ و إعتراض بسبب ذهاب نورهم. «الكور» بمعنى الرحل أو الرحلُ بأداته. فيه تصوير عن الإمام الذي يشبه حاله برائد يحدث بينه وبين القافلة فاصلة بسبب تغافلهم إياه وتخلفهم عن إرشاداته الحقّة وإضطره غربته بين قومه إلى الرحلة عنهم و يدعو الله بتبديله بهم خيراً مهنم: «اللهمّ إني ملئتهم و ملؤني و سئمئهم و سئموني فأبدلني بهم خيراً منهم و أبدلهم شراً مني»^٢.

«الكور» ممّا يُذللُ به البعير ويُوطأ^٣.

اذن هذه الخلافة أصبحت ذليلاً حينما تولاها جماعة لا يستحقون بها وفقدت جلاله شأنها بعدما جعلوها تحت أقدامهم وإقتسموا الإنتفاع بها كإقتسام ضرعى الناقة.

«كورة» يعني صرعه، ربما تدلّ على الحق المصروع والمطروح على الأرض.

«كورت» بمعنى إضمحلّت وذهبت وذهورت^٤.

إذا يقارن القارئ بين هذه الدلالات وبين الظروف آنذاك لا يشاهد إلا الإعوجاج والإضطراب والأفول و الحرمان الذي يعبر عنه الإمام بـ «طخية عمياء». ثمّ يواصل الحديث عن الناقة إلى ضرعى ناقة و الإنتفاع اللا مشروع منها بين أحدين؛ إذن نصيب الأول و الثاني من الناقة الإنتفاع الذي لا يستحقان بها.

١ . مجمع البحرين، ٣ / ٥٧٨.

٢ . تكوير، الآية ١.

٣ . نهج البلاغة، خطبة ٢٥.

٤ . ابن المنظور، ٥ / ١٥٥.

٥ . نفس المصدر.

والفقرة الأخيرة في الحديث عن الناقة ترتبط بطبيعة خليفة وأخلاقه؛ هناك ناقة صعبة بحاجة ماسة إلى مداراة أحوالها، والإمام هو الذي يتحمل مصاعب مُصاحبة هذا الراكب ليُبعده عن الخطرات في خلافته.

وأما كلمة «الطير»؛ بعد ما يكتفي الإمام بإنحدار السيل عن علوِّ مقامه وعظمة شأنه، يزيد هذا العلوَّ بكناية أخرى «إذ ليس كلَّ مكان علا بحيث ينحدر عنه السيل وجب أن لا يرقى إليه الطير!».

«كأنه يقول إني لعلوُّ منزلتي كمن في السماء التي يستحيل أن يرقى الطير إليها؛ قال أبو الطيب:

فوق السماء و فوق ما طلبوا فإذا أرادوا غاية نزلوا^١

وأما الدليل على استعمال هذه الكلمة قد تعود إلى ميزات الطير الطبيعية ومقدرتها على تشخيص أدق النوافذ والزوايا في عنان الجبل والأماكن المرتفعة.

إذن عدم رقي الطير إلى جبل ما، يشير إلى إرتفاع وعلوِّ أزيد. ثلاثة من الكلمات الداخلة في حقل الحيوانات ترتبط بثالث القوم: «نافج الحضنين»، «النثيل» و«المعتلف»، وردت هذه الكلمات في كناية وإستعارة عن همّ الخليفة في الأكل والشرب كالبعير وإستعداده للتوسّع بأموال المسلمين لأنه نافج الحضنين وهذا أقوى تصوير ترسمه الخطبة عن ثالث القوم للقارئ. هناك كلمتان في حقل الحيوانات تهدفان إلى بيان ميزات الناس النفسية حين مبايعتهم الإمام وهما «عُرف الضبع» و«ربيضة الغنم». لماذا يشبههم الإمام الناس بهذين؟

الدلالة الأولى في الضبع تعود إلى ماهية هذا الحيوان. الضبع من أجناس الحيوانات الممسوخة البرية حسب كلام أمير المؤمنين^٢. ومن الحيوانات التي لا تؤكل^٣.

علاوة على هذا، الصفات السلبية للضبع معروف ومنها مهانة طبعه، إذن تشبيهه «وَاللَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْتَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ» يوحي جواً منكراً ومتلائماً مع الإكراه أكثر أن يكون دليلاً على الأُنس و الطلب. وأما تشبيهه أجتاعهم بـ «ربيضة الغنم»، فيه دلالتان:

١ . البحراني، ١/ ٤٢٦.

٢ . ابن أبي الحديد، ١/ ١٥٢.

٣ . أنظر: مستدرك الوسائل: ١٦/ ١٧٠.

٤ . نفس المصدر: ١٦/ ١٩٤.

الأول هذا الإجتماع كان حوله (عليه السلام) ولا تجتمع الغنم إلا في مكان آمن و ظلال، وهذا التصوير يقرب الأذهان من مكانة الأمام من الناس كراع أو كهف لهم.

وأما الدلالة الثانية تعود إلى طبيعة هذا الحيوان وهي عدم البصيرة والخوف. هاتان الدالتان في كلمة الغنم يرشد القارئ إلى اضطراب الموجود آنذاك، كما ترشده إلى الجهالة المنتشرة بين الناس وفقدان البصيرة عند المبايعين. النكتة الهامة في هذا الحقل، الدلالة الموجودة في كلمة «التلّون». تُشيرُ هذه الكلمة ومفهومها في المخزون الثقافي العربي آنذاك إلى جنس من الشياطين وهو «الغول».

هكذا يصف كعب بن زهير حبيبته وإخلافها الوعد:
فما تدومُ على حال تكونُ بها كما تلّونُ في أثوابها الغولُ
وما تمسكُ بالوصل الذي زعمتُ إلا كما تُمسِكُ الماءَ الغرابيلُ

كان العربُ يزعمون أن الغول تغتالهم وأنها تتراءى لهم في الفلوات «على صور مختلفة» و«أشكال متباينة»، فتُضِلُّهم عن الطريق. جدير بالذكر في شدة الإرتباط بين دلالة «الغول» و«التلّون» بأن هذا الإرتباط المفهومي أدى إلى الترادف بين فعلي «تغول» و«تلّون» ويقالُ تغولتِ المرأةُ إذا تلّوت.

هكذا يستفيد أمير البيان في تبيين الجو النفسي والأجتماعي في ذلك اليوم من المخزونات الثقافية والأدبية و الشعبية ويرشده إلى مفاهيم عريقة مع كلمة واحدة.

٣-١ الألفاظ الدالة على الزمن

الكبير؛ الصَّغير؛ حَيَاتِهِ؛ وَقَاتِهِ؛ طُولُ المُدَّة؛ مَتَى؛ الأوَّل؛ الآخِرَةُ؛ العَاقِبَةُ؛ الكبرُ والشَّيبُ يتبعُهما الهَرَمُ والتخريفُ والحُمقُ وكلُّ هذه المفاهيم يرافقها عدمُ ضبطِ الأمور وفقدانِ الرؤية والبصيرة؛ ومن البديهي بأن غرض الإمام من المَهْرمةِ والمَشيبِ ليس مجرد دخول الكبير والصغير في كبر السن، فهذا أمر بديهي ولا يختص بطخية عمياء.

إذن يشير (عليه السلام) إلى أيام يفقد فيها القوم كلهم بصيرتهم وقوتهم في الإهتداء إلى الرشد والكمال.

الدليل الآخر على هذا القول كلامه هذا: «فَمَنِي النَّاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ وَ تَلُّونٍ وَاعْتِرَاضٍ» فكل الكلمات الأربعة «الخَبْط»، «الشَّماس»، «التلّون»

١. كعب بن زهير، ٢٨.

و«الإعتراض» تستفاد في حركات متعلقة بالأنعام أولاً و ملازماً بالإضطراب وعدم الإستقامة بسبب ضعف البصر ثانياً، مع أن أستعملت هذه الكلمات فيما بعد للإنسان، إثر التوسع الدلالي والمعنوي.

الألفاظ الدالة على الطبيعة

(السيّل، الربيع)

السيّل في المخزون الثقافي آنذاك يعادل الخير والبركة والرزق والمعروف، وتعريف الإمام نفسه بمنحدر السيّل، يقارنه أيضاً بمظهر آخر من الطبيعة وهو «الجبيل»: «إِنْ ذُكِرَ الْخَيْرُ كُنْتُمْ أَوْلَاهُ وَأَصْلُهُ وَقَرَعُهُ وَمَعِينُهُ وَمَأْوَاهُ وَمُنْتَهَاهُ»^١.

وكما لا يخفي دلالة الهداية الموجودة في منحدر السيّل أعني «الجبيل»: «بِمَوَالِيكُمْ عَلِمْنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا» (نفس المصدر).

وأما كلمة «الربيع» تحتوي أيضاً دلالة غنية جداً في النص. حينما يريد الإمام أن يصور كيفية نقب الخليفة وبنو أمية في أموال المسلمين والخلافة، يقول: «وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضْمَةَ الْإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبَّيعِ».

الأمويون والخلافة وأموال المسلمين في طرف من التشبيه والأبل الجائع ونبتة الربيع في طرف آخر.

وما هو وجه الشبه بينهما؟ وما هو دور دلالة «يخضمون» في هذا التشبيه؟ «الخضم أكل بكل الفم ..وقيل الخضم أكل الشيء الرطب»^٢.

النبات التي تنبت في الربيع هي في بداية حياتها ورشدها وإذا واصلت حياتها تثمر وتتضج. لكن إذا أكلها الإبل بنهم وكامل فمه لا يبقى لها أصلاً ولا فرعاً. وإذا دخلنا مفهوم الدين الجديد في هذا التصوير الأدبي، نرى ما نراه مما أصاب هذا الدين اليافع من الفشل و الإنحراف عن مسيره الأصلي وعن وصوله إلى ما أراد النبي (صلى الله عليه و آله) به.

٢- دراسة الجمل في النص

الدراسة في الجمل الواردة في الخطبة ترشد الباحث إلى مفاهيم جديدة. تسيطر الجمل الماضية على الخطبة سيطرة تامة إذ يبلغ عددها خمسين جملة، في حالة تعدد الخطبة الجمل المضارعة تقريباً، إلا بعض الجملات التي وقعت

١ . المجلسي، ٩٩/١٣٢.

٢ . ابن أبي الحديد، ١/١٩٧.

حالا كما نرى مثلاً في «وَأِنَّهُ لَيَعْلَمُ» و«قَامَ مَعَهُ بُنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ» أو صفة كما نشاهد في «طَخِيَّةٍ عَمِيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ» و «حَوْزَةَ حَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا وَيَحْتَسُنُ مَسْهَأُ» أو في معنى المضي كما ورد في «أَرَى ثُرَائِي تَهْبَأُ».

بحيث يمكن القول بأن الخطبة مجردة من الدلالة المضارعة تماماً إلا ما ورد في الآية المذكورة.

وسنشير في أساليب الخطاب إلى عدم إلتجاءه إلى أسلوب النداء والخطاب في كلامه. إذن الخطبة تتحدث عن الوقائع وقعت ومضت ولا يذكره الخطيب إلا في بيان عن آلامه المكنونة ولا يقصد منها موعظة أو إجتهداد دون الوصول إلى أي تغيير؛ وكيفية معاملة القوم بعد الإمام مع الحسين عليهما السلام تدل على عدم إبتعاضهم عن الحوادث التي جرت في عهد أمير المؤمنين، والدليل الآخر على هذا القول عدم أجابته (عليه السلام) دعوة إبن عباس إلى إطراد الخطبة.

دراسة الخطاب

تغيب الخلافة

مع أن الإمام يلقي هذه الخطبة على منبر الخلافة، وكان ينبغي له أن يستفيد مثلاً عن إسم الإشارة هذه في الحديث عن الخلافة التي أصبحت له، لكن يتحدث عنها بضمير الغائبة «ها».

الدلالات الموجودة فيها على هذين الوجهين:

أولاً يمكن أن يشير إلى بعده (عليه السلام) عن أمكانيات الخلافة الحقبة إثر الإنحرافات الحادثة في السنة و العقائد العامة بعد مضي ٢٥ سنة على وفاة الرسول (صلوات الله عليه و آله).

ثانياً يمكن أن يكون حسب إصراره (عليه السلام) على عدم رغبته في الخلافة إلا بعد قيام الحجّة بوجود الناصر وغيره، الذي نسميه «تغيب الخلافة».

قد ورد هذا الضمير ١٥ مرة في الخطبة، دون أن يذكر له مرجع. كأنه (عليه السلام) يتعمد في حذف كلمتي الخلافة والحكومة عن كلامه، لأنه لا يطلب الدنيا ولا يحرص على الحكومة إلا لنظم أمور المسلمين و إستقرار العدل بين الناس، كما يدل على هذا المعنى إستعمال كلمة «الأمر» حينما يقول: «فلما نهضتُ بالأمر...».

حذف المتلقي

ما هو سر سيطرة أسلوب الحديث عن الغائب التي تؤدي إلى «حذف المتلقي» عن الخطبة؟ ولماذا لم يستعمل في الخطبة أسلوب النداء في حالة أن من ميزات

الخطبة خطاب المخاطب كما يظهر من إسمها وكما نرى في سائر الخطب كالجهد؟

إن هذه الظاهرة ربّما تعني تعطل الحوار مع الحاضرين في المجلس لأنهم ليسوا أهلاً أن يخاطبهم الامام و لا يذكرهم إلا في الحديث عن الدنيا المنتسبة إليهم «دنياكم هذه»! وفي هذا الصدد لم يُسمَّ الأول والثاني و الثالث إلا بأسماء مبهمّة كـ «فلان» و «ثالث القوم».

والمعنى الآخر الذي يتبادر إلى ذهن القارئ في هذه الظاهرة أعني «حذف المتلقي» هو أنّ الإمام يتجاهل الناس كأنهم غير موجودين جسماً في مجلسه كما أنهم كانوا غائبين عن عملية الدفاع عن حقه المغضوب.

كما يمكن أن يكون لها دليل آخر وهو «التجافي» عن خطاياهم و«عدم المؤاخذه» الحاضرين بها وفي هذه تودد إليهم حتى يمكنهم المبادرة إلى الإنابة والرجوع إلى سبيل الحق.

وهذا الإلتفات من الخطاب إلى الغيبة قد ورد في القرآن: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ» إذ ينادي العباد المسرفين وينتسبهم إلى ذاته - جل وعلی- إعداداً للقبول و إطماعاً في النجاة، ثم يستفيد من الغائب في صلة الموصول، ليبعد هذه العباد من السلبية الموجودة في جملة «أسرفوا».

«دنياكم هذه» وهكذا لا يخاطبهم الإمام ولا يستعمل صيغة الخطاب إلا في حديث عن الدنيا وحبها الذي هو رأس كلّ خطيئة.

يمكن الإشارة إلى دليلين في هذا الإلتفات أعني إنتقال الامام من استعمال صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب و إظهار المخاطب المستتر، وهما أولاً إيجاد التقارب بين الدنيا و الناس، وبيان شدة إنتساب الدنيا إلى الناس إثر تعريف الدنيا بالإضافة إلى ضمير «كم»، كما يُبعدُ (عليه السلام) نفسه وأماله عن الدنيا بحصرها بضمير «كم».

٣-٣ مؤمن لا يعرفه قومه

السجع الموجود في الجمل الثلاثة «أصْبِرْ عَلَىٰ طَخِيَّةٍ عَمِيَاءَ يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشْيِبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ» يستوجب إتيان كلمة مؤمن معرفة بـ«ال»، لكن نراه نكرة خلافاً لما نرى في «الكبير» و«الصغير».

١ . الزمر، الآية ٥٣.

٢ . ابن عاشور، ٢٤/ ١١٢.

لماذا هذا العدول؟ هكذا يستنتج بأن مؤمن ليس إسم جنس للرجل المؤمن كمثّل «الكبير» و«الصغير»، بل هو مؤمن واحدٌ ولا يعرفه هذا الناس حق معرفته وما هو إلا هذا الخطيب فوق المنبر! إذن هذا التكرير يلقي بظلال من الإبهام والغربة حول هذا المؤمن.

الذي يُقوّي هذه النظرية هو تكملة الجملة بعبارة «حتى يلقي ربه» وإضافة كلمة «ربّ» إلى ضمير متكلم يعود إلى هذا المؤمن غير المعروف وهذا التقيد بالإضافة يُعمّق الفاصلة الموجودة بين الإمام المؤمن الكادح إلى ربّه وسائر الناس.

وربما سياق الخطبة في بدايتها وكثرة التأكيدات فيها كابتداءها بادات التنبيه أما والقسم بالله والإتيان باللام التأكيد، قد تتمحور حول هذا المعنى، كأنها توحى جواً مليءً من التردد والإنكار بين المتقمصين الخلافة من جهة وعموم الناس من جهة أخرى والصلة الوثيقة بين جهل الأفراد بالنسبة إلى شيءٍ ما وإنكار ذلك الشيء أمر بديهي وطبيعي.

النتيجة

من أهم النتائج الرئيسية التي حصل عليها المقال هي: الدلالات الموجودة في حقل اللباس تشيرُ إلى أنّ كان هناك بُعداً كبيراً بين نظرة الإمام إلى الخلافة و بين الخلفاء الثلاثة قبله. الإنتفاع اللا مشروع عن الحكومة كان الهدف الأصلي لهم، في حين لم يقبل الأمام ذلك إلا وفاءً لما عاهده الله به. سميناه في المقال «تغيبب الخلافة».

كما أخذنا من الدلالات الأسلوبية ومنها تغيبب الخلافة مثلاً، مع أنّ غصب الخلافة أدّى إلى متاعب كثيرة في حياة الإمام، لكن السبب الرئيس لتألمه يعود أولاً إلى إنحراف الدين عن مسيره الأصلي وخروجه عن وظيفته الأصلية في إصلاح الأمور، وإبتلاء الناس بالجهالة والضلال في حياتهم وسيرهم إلى الكمال ثانياً.

الدلالات الموجودة في حقل الحيوان والطبيعة تؤكد على حقيقة في كيفية مبايعة الناس، بحيث لم يكن هناك فرق يُذكر بين مبايعة الناس إبا بكر ثمّ الثاني والثالث ومبايعتهم علياً (عليه السلام) وإنثالهم عليه، وما بايعوه عن بصيرة ووعي، وليست هذه المبايعة دليلاً على معرفة الناس إليه.

النكتة المستخرجة من حقل الطبيعة ودلالة كلمة «الربيع» هي أنّ خروج الخلافة عن مسيره الأصلي قضى على الدين، بحيث لم يستطع أحدٌ أن يعيدَ حياته إليه حتى يومنا الحاضر.

ليست هذه الخطبة بصدد إرشاد الناس، كما لا توجد حتى كلمة واحدة تدل على رغبته (عليه السلام) في الخلافة. ومن أهم النتائج الحاصلة من دراسة الخطاب عدم رغبة الإمام في الحديث مع المخاطب أو ظاهرة «حذف المتلقي». فقدان أسلوب النداء والخطاب يؤكد بأن كل هذه الخطبة بيانٌ لآلامه وربما تظلم عما ورد به من نكران الشأن وجلالة القدر.

التفاعل الجمالي في الخطبة الشفشفقية

المدرس المساعد: سحر هادي سعيد شبر

المقدمة

الحمد لله الذي فطر جنان الخلائق على الجمال، وودد ميدان شعورها بالجلال، وأماه على ألبابها جوده السلسال، ثم ختم فيض نداءاته بالنبي محمد وأهل بيته خير آل.

وبعد...

إذا كان المؤرخون يدعون أن للتاريخ فاعليته وديمومته. فإنني أشاطرهم الدعوة بشكل خاص، لأن منطق الفاعلية والسيرورة التاريخي للأحداث يقتضي مدونة أو وثيقة. وهناك ثمة نصوص صنعت ديمومتها الزمنية بذاتها- أي دون أن نجد لها سفراً مدوناً لوقائع وقعت في يوم كذا أو سنة كذا- وذلك عبر سياقها المصمود بتصورات الحقيقة.

وهل تتوقف الحقيقة من دون مرور؟ كلا بإمكاننا أن نظفر بها من أي شيء في العالم والشيء الذي نروم ملامسته بالتقصي والبحث نص يشكل كتلة معرفية ثقيلة.

لأن مبدعه تلقف عصراً ماضياً فاخترل بنيته المعرفية الكبرى (التاريخ والسياسة والدين والاجتماع) مستقهما أحوال البشر، مورثاً قراءه حقائق لا تدفع وحجج لا تقهر.

لأنها إنسانية ثمينة تبتث الشكوى وتشكو من ظلم واقع في زمن.. ونتائج في زمن.. وبالتالي فإن الخطبة المعروفة بـ (الشفشفقية) إراحة وخلص من قيد صدأت مكوناته في قلب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فافترض الدواء له محملاً الأجيال عبء فرکه كي تفر نفسه الشريفة.

من ذلك نشأ اهتمامنا بها فضلاً عن كونها مقاربة لوعي اهتدى إلى تصوراته بجمالية مقتعة تجلت في صور ومشاهد نحاول من خلالها أن نلمس التفاعل الجمالي للمتلقي عند إدراكه لها.

١ . ينظر: هل على الفن أن يبلغ الحقيقة، دوغلس ن . مورغان، ترجمة يعقوب أفرام منصور، الثقافة الأجنبية، عدد ٢، السنة ٢٠١٢م، ١١.

الخطبة الشَّقْشَقِيَّة*

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْفُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّبِيلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ. فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا، وَطَفِئْتُ أَرْتَنِّي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَدَاءً، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَّةٍ عَمِيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ. وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ. فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى. فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى ثِرَائِي نَهْبًا، حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَذَلِّي بِهَا إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ بَعْدَهُ (ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعَشَى):

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمَ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَبًا بَيْنَا هُوَ يَسْتَقْفِلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَ بَعْدَ وَقَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرَّعِيهَا فَصَبْرَهَا فِي حَوْرَةِ خَشْنَاءَ يَعْظُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشَنُ مَسْهَاهَا، وَيَكْتُرُ الْعِثَارُ فِيهَا، وَالْإِعْتِدَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبِيهَا كِرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنَّ أَسْتَقَّ لَهَا خَرَمٌ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَمٌ، فَمُنِّي النَّاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطِ وَشِمَاسٍ وَتَلُونُ وَاعْتِرَاضُ. فَصَبْرْتُ عَلَى طَوْلِ الْمَدَّةِ وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ، جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَبُلِّغُهُمُ لِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِي مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِيرْتُ أَقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَقْتُ إِذْ أَسْفُوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا. فَصَعَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضَعْفِهِ وَمَالَ الْأَخْرَ لِصِبْرِهِ مَعَ هُنَّ وَهَنَ إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجًا حِضْنِيهِ بَيْنَ تَنْبِيْلِهِ وَمُعْتَلْفِهِ.

وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضُمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضْمَةَ الْإِبِلِ نَيْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنْ انْتَكَتْ عَلَيْهِ قَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بَطْنَتُهُ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبْعِ إِلَيَّ يَنْتَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقِدَ وَطِيءَ الْحَسَنَانَ، وَشَقَّ عَطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْعَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ، تَكَنَّتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِيرُجُهَا. أَمَّا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لَا يُقَارُوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَعَبِ مَظْلُومٍ، لِأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَاسِ أَوْلِيَاهَا، وَلَا لَقَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَقْطَةِ عَنَزٍ.

(قَالُوا): وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ، عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ حُطْبَتِهِ، فَنَاقِلُهُ كِتَابًا فَاقْبَلْ يَنْظُرُ فِيهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَطْرَدْتَ حُطْبَتَكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ. فَقَالَ: هِيَ هَاتَا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ تِلْكَ

شَيْشِئُهُ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَوَاللَّهِ مَا أُسِفْتُ عَلَى كَلَامٍ قَطُّ كَأَسْفِي عَلَى هَذَا الْكَلَامِ أَنْ لَا يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ.

المقاربة الجمالية للخطبة

ينفتح النص على مقدمة عاكسة لمسار الخطبة بأسرها، فورود أمّا التنبيهية المتبوعة بالقسم يُعرّف المتلقي بهوية النص. فتخامره جملة من الشكوك والتوقعات بأن ما سيرد في الخطبة مختلف عن الظاهر، إذ عُلّم من القارئ أنه لم يعتدّ على أسلوب الصدمة هذا في غالبية خطب النهج، حيث تطالعه تشكيلة الحمد والثناء المستبطنة للصفاتية الكمالية والجلالية الإلهية.

ولا شيء يتم مسار التوقع في ذات المتلقي سوى الإرداف بالصورة «لقد تقمّصها فلان» التي تعدّ أداة التوصل والتشديد في أن واحد.

وبعد أن استمرت ضجة التوقع لبرهة في الذات (ماذا وراء القسم؟) أمدتها الصورة بلذة الكشف عن استحواذ الخليفة الأول (أبو بكر) بالخلافة. فكأنها شيء من مؤثلاته ولا يحق لأحد أن يقاسمه إياها.

وبذلك ستتصاعد لذة المتلقي عبر صورة تقمص الخلافة المشيدة بعنصر الاختزال لمجريات وقائعية نحو: تكفل أبو بكر بالخلافة، والتخطيط للاستحواذ عليها، ومناصرة أطراف معينة من المسلمين له... وهنا يبدأ القارئ مرحلة جديدة معتمداً على طاقته التأويلية لتفكيك التلميحات إلى ماورائية تقمص الخلافة من خلال المشهد السوري اللاحق «وإنه ليعلم أنّ محليّ منها محلّ القطب من الرّحى، ينحدرُ عنّي السيلُ، ولا يرقى إليّ الطيرُ» المشيد بفعل التقابل بين مركز المتقمص (أبي بكر)، ومركز المستلب حقه في الخلافة (علي بن أبي طالب)، حينئذٍ يتحصل قصد الصورة الأولى «تقمّصها فلان» في ذات المتلقي.

لأنه «الشيء نفسه الذي أشعر به أنا، وأنت، وكلّ إنسان حين ينتهب ثوبه عن بدنه ناهب»^١. فينشق طريق التوحد الذاتي بالمثل الأجل الإمام علي (عليه السلام) على علمية الذوات جميعاً _ ومنهم أبو بكر _ بحق خلافته. وثمة أسباب سليمة يمنحها المشهد للمتلقي حتّى يعايش المبدع في تظلمه وشكواه. ولنلج فصول المشهد ونستكنه إبحاءاتها:

إنّه ليعلم — أعدى أبو بكر معرفته التامة بالإمام علي (عليه السلام)، فأضل حقه في سيادة الخلافة.

١ . مأخوذة من كتاب: شرح نهج البلاغة، كمال الدين بن علي بن ميثم البحراني، دار الرافدين ، بيروت، لبنان، ط/ ٢٠٠٩م، ١/ ١٧١-١٧٢.

محلي منها — مدى التصاق أمر الخلافة بالإمام بعد عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

محل القطب من الرّحى — القطب المستحکم في حركة الرّحى هو المنظم لأمر المسلمين بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على وفق منطق الحكمة الإلهية.

اختلاق حق السيادة للنموذج الآخر انفراط — منطق في السياسة الشرعية، واختلال حركة النظام مما يعني أن لا كفاء للسيادة إلا علي (عليه السلام) بعد العهد النبوي.

ينحدر عني السبيل ولا يرقى إليّ الطير — لا أحد يداني أمير المؤمنين في فيض منطق الشرعي والفكري في الحياة.

ولا يزال القارئ متأملاً خُطى المعنى، فإذا به يفاجأ بخُطى توقعه التي لاحقته منذ الصورة الأولى.

فأيقظت لديه شعوراً قلبياً وفكرياً باقتصار منصب الخلافة على أمير المؤمنين دون سواه لما توافر عليه شخصه وسيرته من سمات وخصائص في عهد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعده.

وتكون الأداة (الصورة) على قدر سامق من التوصيل الفكري والإدهاش الجمالي. إذ دنت بخلد القارئ من تجربة النص شيئاً فشيئاً، وأثارت لديه نظير ما أثارتها في خلد الإمام (أهليته المطلقة للخلافة).

أما القيمة الجمالية للمشهد فقد توارت خلف التمازج المقصود بين الجلال الكوني المتجسد بالسبيل العارم المتربص بالأرض، والذي يقف المرء حياله مفزوعاً. لأنه ينطوي على لذة الاكتشاف المصحوبة برهبة وخوف وعظمة في أثناء معانيته أو تمثله، وبين الجمال الوديع المتمثل بالطير المفترش بجناحيه السماء تحليفاً وسمواً.

ولو نقصد المخيال لأبصرنا تفجر الماء وسيلانه بحركات سائبة من الأسفل إلى الأعلى ومن الشمال حتى الجنوب وهكذا لأن سرعة الجريان تفوق قدرة إبصار العين لاتجاه التيارات المتحركة بالمياه.

ولا تكاد العين ترنو الطيور النائية عن موضعة السيل لسعيها الدائب في التحليق عالياً، بينما ترقب العين الأخرى سلطة الامتداد القابضة على زمام الأرض الغائرة بالماء والأفاق المفتوحة، والمشهد في قمة الإمتاع الجمالي لأنه يحتوي

١ . في ظلال نهج البلاغة، الشيخ محمد جواد مغنية، وثق أصوله وحققه وعلق عليه سامي الغريزي، دار الكتاب الإسلامي، ط١/٢٠٠٥م، ١٩٢/١.

على مركز جاذبية حركية^١ إذ تهرب العين بانتظام إلى الأعلى تارة حيث الطير المحلق، وإلى الأسفل تارة أخرى حيث السيل.

ومثل هذا المشهد المتخيل يقف الإمام علي (عليه السلام) حيث ينحدر ذلك السيل الهائج وتنحسر أعتا الطيور دون أن تبلغ سماءها عندئذٍ سيتبدى الجمال في النفس، وتبرز الحقيقة، لأن الجمال هو الحقيقة على رأي كيتس^٢.

وهنا تتجلى سمة جمالية أخرى، إذ الجمال في المشهد نابع عن امتزاج مضمون عقلي مؤلف من تصورات تجريدية غير مدركة حسيّاً (الكلمات الفائضة على أمير المؤمنين) مع مجال إدراكي (السيل والطير) بطريقة لا يمكن أن يتميز أحدهما عن الآخر^٣.

إذن عكست المدونة التصويرية توافق تأويل القارئ للرموز مع قصد الباث الملغز، وأنبأته بالسعادة المنسربة من تطابق توقعاته مع الإيماءات الألفبائية المصورة. وهذه السعادة تنذر بالإحساس الجمالي.

لأن الإحساس بالجمال كما يقول علماء الجمال: حركة عاطفية تستملك الروح فرحاً وسروراً، وهزة ولذة انفعاليّتين تشع في أرجاء الموضوع^٤.

ومن ثمّ يتمكن المتلقي من التساؤل عما كانت عليه النتيجة في المشهدين السابقين.

ماذا سيصنع الإمام بعد إزاحته عن موضع الخلافة وهو أقرب الوجود إليها؟ فيعلن الجواب بقوله: «فسدلتُ دُونَهَا ثُوباً وطويتُ عنها كُثْبَحاً» لكن سيرورة التوقع هذه المرة قد جانبت مسار تأويل القارئ.

إذ كان معتقداً بضرورة تشبث الإمام بالسيادة، فمن دونه لا تستقيم منرجات الحياة الإسلامية.

ويصطدم بالتناقض أمير المؤمنين (عليه السلام) عن قيادة الدولة آنذاك وتمنعه عنها «كما يفعل المعرض عمّن إلى جانبه قال: طوى كشحه عني وأعرض جانباً»^٥.

١ . ينظر : مبادئ علم الجمال، شارل لالو، ترجمة مصطفى ماهر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩م، ٦٦.

٢ . ينظر : مقدمة في الدراسات الجمالية، محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، بيروت، ١٩٧٩م، ٢٧.

٣ . ينظر : معنى الجمال- نظرية في الأستطيقا، ولترت. ستيس، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م، ٢٢٦.

٤ . ينظر: المصدر نفسه، ٧٣.

وقد أفلقت هذه الصورة الإشهارية عبر وحداتها القصيرة المكثفة المستمع لكونها صريحة ومفخمة ودلالاتها في الإشهار قصدية قطعاً.

إذ أكسبته نوعاً من الحتمية في الإعراض عن الخلافة، وما تزال نفسه تطارد أسباب غض نظر الإمام وإرخائه عنها. فلم يطرأ على ذهنه شيئاً خاطفاً باحتجاج المثل علي (عليه السلام) وطلبه السلطة ثانية.

ويصل القارئ فعلاً إلى علل الإعراض عن المنافسة بقوله: «وظفقتُ أرثي بين أن أصول بيدٍ جداء، أو أصبرَ على طخيةٍ عمياء يهرمُ فيها الكبيرُ. ويشيبُ فيها الصغيرُ، ويكدحُ فيها مؤمنٌ حتى يلقى ربَّهُ».

والواقع أن المشهد السردي نجح في تبرير فكرة الصفح عن الخلافة بإيجاد بنية صورية معقدة تحتل تماثلاً بين الإخبار القطعي «فسدلت دونها...» وبين علل الإخبار «أن أصول بيدٍ جداء...».

وبهذا المبدأ الجمالي «التماثل» يفسر المتلقي مأل المسلمين آنذاك، ويستنزل التاريخ من عليته عبر إدراكه للموقفين المحذورين: إما الصولة وإراقة الدماء بيد مبتوتة من دون مناصرة ناصر لا جدوى منها سوى تشويش نظام المسلمين. أو التصبر على حلوك الأمور وشدة اختلاطها في عهد أبي بكر. ويلاحظ المتأمل أيضاً في سياق هذين الموقفين، أنهما لم يظهرَا إلا من خلال تقنية ازدواجية القبح المهول في القتال بيد مقطوعة، وفي الظلمة التي لايهتدي فيها الأعمى إلى مطالبه.

وكلا الأمرين مما يروع الإنسان فيخشاها حتى الشيخ الكبير إذ لا يقوى على التحمل، ويشيب منهما الصغير فلا يجابه الحلوك المخيف.

وبالرغم من دفقة القبح المفزعة يباشر المتلقي في منعه الجمالية لأن المشهد أباح له عن المساس بين اللاواقعات الشاحبة للعقل (القتال بلا هدف، والمقاساة من اضطراب الأمور، والحيلولة دون تحقيق الغاية حتى الموت وملاقاة الله تعالى)، وبين المدركات المباشرة (اليد المقطوعة، والظلام الدامس، العجوز الهرم الخائر القوى، والطفل يشتعل الشيب في رأسه) على نحو جعلها تبدو واقعية وعينية وفردية أيضاً، فعندئذ يشعر المرء بمعنى المتعة ويحس بالرفعة في مواصلة التأمل^٢.

١ . ينظر: الإحساس بالجمال - تخطيط لنظرية في علم الجمال-، جورج سانتنيانا، ترجمة محمد مصطفى بدوي، الأنجلو المصرية، القاهرة، ٣٨٣.

٢ . شرح نهج البلاغة، بن ميثم البحراني، ١٧٥/١.

٣ . ينظر: كيف يأتي المعنى إلى الصورة؟، مارتين جولي، ترجمة محمد معتمد، مجلة علامات في النقد، عدد ١٣، سنة ٢٠٠٠م، ٢٦.

وإن ما يدعو إلى السرور الجمالي في الصورتين الضرورة المنطقية المنتظمة لوجداتهما.

فالنتيجة (فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كَشْحاً / الإعراض عن الخلافة) سبقت المقدمات (وطفقتُ أرتئي بينَ أن أصولَ بيدٍ جداءٍ أو أصبرَ على طُخِيَةِ عمياءَ / تذبذب ميزان الحق عند المسلمين).

وبالتالي تأدت إلى إدراك المخاطب للأثر الذهني كلياً من موقف وسبب.

لأن العلاقات الانزياحية التي استولدت المشهد صحيحة.

وبكلمة أخرى أنها تؤدي- أعني العلاقات- الوظيفة التي وجدت من أجلها.

وهذا جلّ سعي المتلقي في أن يلتقط شذرة تنير سُدْم تأويله للعوالم المغمورة مثل عالم اغتصاب السلطة وموقف النبيل من هذا الاغتصاب.

وفي خِصَم القبح المتلاطم في المجتمع الإسلامي آنذاك، وانفلاق وحدة المسلمين لم يبق سوى الصبر «فرأيتُ أن الصَّبْرَ على هَاتَا أَحَجِي» بوصفه بديلاً ناجعاً عن منازلة الفريق المتمرد وهدر حرمانه مع خذلان الناصر، ورأياً سديداً يليق بصفات وكمالات أبي تراب التي يندحر السيل دون بلوغها. وهكذا تتابع الصور مصعّدة من حدة التوحد بنفس الباث وما يعتمل في طواياها من مشاعر العذاب والتألم نتيجة لأمر الخلق المنصدعة.

مما يصل بالذات المتوحدة إلى أقصى بلغتها أماً وتوجعاً على ذات الإمام (عليه السلام) ومآل العباد.

فتسرد مشاعر التظلم من جانب المتكلم في صور إشهارية كقوله: «فَصَبْرْتُ وفي العَيْنِ قَذِي، وفي الحَلْقِ شَجاً أرى ثرائي نَهْباً» مكتفة للحال النفسية التي أفرزها الصبر على نزول الفتن وسلب ما يرى أنه أولى به من غيره، زد على ذلك نهب الولاة حق زوجه الزهراء (عليها السلام) في فدك التي أورثها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لها.

وتهمّ الصور المفردة بتجميع الذوات حول مركز إشعاعها العاطفي. لأنها ارتحلت هذه المرة من مكنونها العقلي التصوري إلى مغمور عاطفي استطاعت ثنائية القبح (العين المضمّخة بالغبار و الشجا المعترض في الحلق) المنعطفة بعضها على بعض أن توحى بسريان الصبر في ذات الباث على غير إرادة النفس، فتكمل عملية التقمص الوجداني من جهة المتلقين.

إنها صور جزئية رسمت مشهداً حقيقياً وفنياً. وتأدت إلى مقصدها المتمثل في مخيلة القارئ عندما انسلت من حرفيتها اللفظية كونها ألفاظاً إلى بنيتها الذهنية التخيلية كونها صوراً تتراءى من وراء حجب المعنى.

١ . ينظر : معنى الجمال، ستيس، ٨٥- ٨٨.

فيتوهم هذا المتخيّل أن رجلاً أصيبت عينه بالقذى فلا يكاد يرى، وتسنّمت العظام حلقة فلا يكاد يتكلم، وإلى جانبه شردمة من البشر تخلع أرضه لتهبها إلى غيره.

فسرعان ما يستيقظ المتخيّل من وهمه على نازلة الصبر الشديدة وغمط الحق العنيف.

تتسع أمداء الهيجان النفسي لتغمر ذات المتكلم والمستقبل على حدٍ سواء حتى يمضي عهد أبي بكر ويستشرف النص عهد الخطاب عمر. وكان عهداً ملقى إليه من الصديق.

وهذا أمر طبيعي لأن منطق التقمص في السلطة «لقد تقمّصها فلان» يقتضي أن يُعهد بها إلى أي رفيق شاسع عن الإمام علي (عليه السلام). ومن طيات البث التصويري الذي لقع حس المتلقي وعقله تبرز شبكة رمزية تجلي فكرة البث المختزلة لتعادل الأيام، وتؤثّل لأفكار ومشاعر حدثت في الثابت الغابر وأراد لها المتكلم أن تظهر عبر سياق البدائل السيمائي في قول الأعرشي:

شَتَّانَ ما يومي على كورها ويومُ حيّانَ أخي جابر

إذ طراً البديل السيمي لحتمية قصدية يروم الباث إلى تركيز الحالة الشعورية الخاصة به في نفس المتلقي من خلال إحالاتها إلى استحضار الدائر. فعهد عمر أشبه بعهد أبي بكر في مجاوزة الحق وإتباع الضلال، وإلزام الإمام نفسه بالصبر.

وهذا ما أقرّه البديل الشعري. لأن فرقا بعيداً بين يوم السفر على كور الناقة (وهو كناية عن حال الإمام وشدة شقائه في صحبته لظلم الصديق)، وبين يوم حيّان في نعيمه وراحته وهنا (كناية عن حال الخليفين الرغيدة). وبذلك تخطى المتكلم حدود المعاني الظاهرة في المشاهد السابقة إلى إحياءات البديل الكاشفة عن التصور الأنطولوجي والمعرفي والعاطفي للباث؛ والمذكية في ذات المتلقي جذوة التمييز بين المواقف (موقف الخليفين وموقف أمير المؤمنين منهما)، مخافة أن تنطمس معالم المقاساة والتظلم التي شيدها المشاهد الأنفة.

إنّ التجلي الجمالي لإدراك المتلقي نتج عن وعي الباث المسبق بما سيؤول إليه مصير المستقبل لحظة اتصاله بالإحالة المقابلة في النص الشعري. مما سيشكل الرؤية الجمالية لدى المستقبل. كما يظنون علماء الجمال في أن الجمال يؤسس

لوعي المرء إذ أن الوعي مثالية انعكاسية لشيء تطابق مع الوعي الآخر قوة أو ضعفاً^١.

أما القيمة الجمالية لانسحاب هذا الشاهد إلى الخطبة فتنتطوي على الملفوظات الساردة للأحداث عبر علاقة التماثل الحتمية المتضحة في: يوم على كور الناقاة تماثل سيمي مع أيام محنة الإمام علي. يوم حيان تماثل سيمي مع أيام رغد الخليفتين.

وقد أودت هذه العلاقة بالنص إلى أن يكون «مجموعة من النكوصات... المكتملة بذاتها التي تتمركز كل واحدة منها حول نقطة معينة»^٢ توحى بالفناء النفسي (التآذي والغبن) أو بالزمن (عهدو الخلافة الراشدة)، وأخيراً تلتقي بذات المتلقي في هيئة توحد نفسي حاد. مما تشير إلى قدرة الباث التوصيلية التي جعلت متلقي السياق قادراً على التمييز بين النص التاريخي الأصيل وبين البديل الشعري، وتلقف الإيحاء بحرية ووضوح.

ومن ثم تتسلسل الخطبة إلى مشهدها الافتتاحي عبر بنية لسانية مطابقة في لهجتها التنبهية «فَيَا عَجَبًا» للمشهد الأول «أَمَّا وَاللَّهِ»، ومشوبة بالتعجب من أمر سيقع. لكنها متناحرة الدلالة عند اكتمالها السياقي «بَيْنَمَا هُوَ يَسْتَوَلُّهَا فِي حَيَاتِهِ» مع دلالة الصورة «لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ».

فبعد أن نهب أبو بكر الخلافة حتى صارت لبوساً من ممتلكاته صار يطلب الإقالة منها لثقلها وخوفه من التعثر في إدارة أحوال الخلق. وهي إشارة إلى قول أبي بكر بعد بيعته «أفيلوني فلست بخيركم»^٣.

فيلم القارئ عند هذه الدالة ليحل إبهامها. الحل عينه موجه إلى البحث عن السياق المرتهن بتاريخ الخلافة ونشوب الخلاف فيها.

ثم يظفر بحدس يبدو صادقاً وقريباً من قصد المتكلم، لأن دوافع التعجب قد نشطت في نفسه مثلما نازعت ذهن المتكلم فأسقطها على خطبته. وهذا دليل آخر على طاقة المشهد التوصيلية لدى المتشاعرين وصدق الباث في تجربته المريرة.

١ . ينظر: مبادئ النقد الأدبي، إ. ا. ريتشاردز، ترجمة د. مصطفى بدوي، مراجعة د. لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، ٢٣١.

٢ . ينظر : أسس علم الجمال الماركسي اللينيني، مجموعة من الباحثين، ترجمة جلال الماشطة، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨١م، ٧.

٣ . علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ١/ ١٩٩١م، ٣٥.

لأنه أثار فيهم انفعالاً شبيهاً بانفعاله الذي كان موضوع تأمله^١.

كما هي عادة أمير المؤمنين (عليه السلام) القصدية في تكوين الصور وإمدادها بعناد فكري انفعالي يتفجر أن تأمل المتصلين بها.

إذ يتقدمون مع خطاطتها الزمنية باتجاه تراجمي ماضوي ينساب في ملفوظات نسقية قصيرة. إلا أنها تختزن قوة إشارية جبّارة لا يكاد المتأمل ينفلت منها إسارها الماهوي المقيّد لتحولات تاريخية متنوعة مثل: عقد الدولة لعمر بعد وفاة أبي بكر عن تدبر - وبذلك يبطل قصد الصديق في الإقالة من الحكم. ولو قصد ذلك لما عقد زمام السلطة في عنق الخطاب - والسيره الذاتية للمتكلم نفسه (الفضائل والكمالات التي وصف ذاته بها بحيث لا يرقى الطير علوه ولا يبلغ السيل شأوه)، وفي المقابل السيرة الذاتية لعمر بن الخطاب فيعرفنا به: «لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرَّعَيْهَا فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَعْطُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشُنُ مَسْئَهَا، وَيَكْتُرُ الْعِنَارُ فِيهَا، وَالْإِعْتَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كِرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَسْنَقَ لَهَا خَرَمًا، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا نَقَمًا».

إن الصور المشكلة للمشهد دينامية حسية محضة بحيث اشتغلت في حيز الوصف الشخصي النفساني للخليفة الثاني. ووعي الطباع النفسية للبشر مرتكز إلى ووعي السلوك البشري وملاحظته ثم تسجيل النتائج - يعني رصد الظواهر النفسية - عن تلك الأفعال الصادرة من البشر.

لذا غدت كل صورة هنا قاصدة لوضع نفسي ومدونة لظاهرة خلقية و فاتحة شهوة المتلقي الاستطلاعية في معرفة الخليفة الجديد.

وقد أمسكت القارئ أسباب ترشيح بن الخطاب لسيادة المسلمين. فإذا به يلمح اتفاقاً منعقداً بين الخليفة الأول والخليفة الثاني بشأن «اقتسام الحاليين أخلاف الناقة بالشدة على من يعتقد أنه أحق بها منهما أو على المسلمين الذين يشبهون الأولاد لها»^٢.

فكان الأول اقتسم شيئاً من السلطة وتركه للآخر وفي الحقيقة كلاهما نال ما نال من ضرعي الناقة. ومن ثم آلة الناقة بضرعيها إلى حوزة عمر. إذن كيف يحدس القارئ بمصير المسلمين في ظل العهد الجديد؟ فتنبزغ سلسلة من الصور المتشارحة بذاتها والفارضة بإحالاتها المماثلة على القارئ ليتعرف عن قرب إلى النموذج الثاني من خلال صفاته النفسية.

فما دام القائم بأمر الدولة غض الطباع خشن الكلام سريع إلى الغضب فإنه سيصير الدولة ومصير العباد في ناحية الباطل ويكثر الخطأ فيها ويجاوز

١ . شرح نهج البلاغة، البحراني، ١٧٦.

٢ . ينظر : مبادئ النقد الأدبي، ريتشاردز، ٢٤٨.

الحقائق إلى التضليل في الأحكام بسبب غلظ الطباع. فيعتذر عنها مسترشداً
بآراء أبي الحسن كما أشارت الروايات.

إنّ لسلسلة الصور هذه (الحوزة أي الطبيعة أو الناحية الخشنة عند مسها، و
الجرح الغليظ، والعتار في أثناء المشي، والناقة الصعبة القياد وتوالي الحركات
العنيفة لجذب زمامها) مردودات جمالية على ذات القارئ. فتغمره بالنفور
والرفض للشخص الثاني لما في طباعه من شر.

وقد راوغت صور القبح مشاعر المتلقي من أجل خلق تجربة جمالية موضوعها
التهمك والسخرية ممن يمارسها. وتفسح الصور ذاتها مجالاً جمالياً آخر
موضوعه التماهي مع الذات الإنسانية التي ارتقت فوق الواقع المفروض من
قبل الخليفتين، بحيث أذابت ذواتنا جميعاً في كمالاتها العلية. وإن إعلان
الضمائر توحيدها مع الإمام علي(عليه السلام) لهو أبين تجليات الإدراك
الجمالي. لأن الجمال هو تجلٍ للحقيقة التي يبلغها العقل دون مشقة أكبر قدراً
من المعقول بأقل قدر من الوسائل مما تحقق رضى عقلياً وانفعالاً وجدانياً.

إذن يتمرئ الجمال بمظاهره المتنوعة في المشهد. وترسم كل وحدة من أجزائه
صورة ثنائية أو متعددة الاتجاه، بسيطة في رمزياتها أو معقدة نحو: إيماءة
تشطر ضرعي الناقة إلى موافقة يقينية بين الصديق وابن الخطاب من جهة،
وتأمر الخليفتين والناس على ابن أبي طالب (عليه السلام) في سلب الناقة من
جهة أخرى.

واحتمال الوحدة المصورة لطباع عمر (الحوزة الخشنة...) تارة، وتأويل مأل
المسلمين ومسار الدولة العام بالقياس إلى هذه الطباع تارة أخرى.
والحق أن خطية اتجاه الصور منوطة بمشاركة القارئ. فكأنها خلقت من أجله
قبل توثب المبدع النفسي لملء فراغات الدوال وبياضاتها المقابلة فضلاً عن
كونها أثراً ينبغي معاشته بعد رصده بمنظار الوعي.

ويختتم المشهد بالصورة التشبيهية «فصاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنَّ أَسْنَقَ لَهَا
خَرْمٌ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا نَقَحَمٌ» معززاً من وتيرة المعاشة الجمالية في استجلاء
التفاصيل الدقيقة لحكم الخطاب.

فتخطر لمح التشبيه الثرة بالأوصاف للقارئ أن عُمر على خلالهِ الغضبية في
إدارة الدولة بحاجة إلى تعقل وتؤدة.

١ . شرح نهج البلاغة، البحراني، ١/ ١٧٧.

٢ . ينظر : معنى الجمال، ستيس، ٢٢٦.

٣ . ينظر : مبادئ علم الجمال، شارل لالو، ١٠٥.

لأن الخلافة ليست بذلول، إنما شاقة في مجارة أحوالها والراعي لها بين خطرين محذورين: إن والى جذب الزمام بشدة وهي – أي الناقاة/ الخلافة- تنازعه رأسها شقّ أنفها، وإن أرخى لها الزمام على صعوبتها ومنازعتها له تقحمت به إلى الأهوال فلم يملكها. ولاشك أن النسق الجمالي للناقاة قد أرشد القارئ إلى قصد الباث بحيث اقتنص مخيلته عبر طاقة التقابل الجمالية المهيمنة على الوحدات البنائية للمشهد مثل: إرخاء الزمام بخفة، وجذبه بقوة فتؤدي عملية الجذب والإرخاء إلى السيطرة على الناقاة عنوة تارة، وانفلاتها عنوة أيضاً تارة أخرى.

وبالنتيجة إما أن يشق الراكب أنف الناقاة وإما أن ترديه في الأهوال. ولم تكتف الأوصاف القصيرة عند هذا القدر الجمالي من التأثير فحسب، بل امتدت لأفق تأويلي متجدد خالقة لسياق اجتماعي وسياسي وتشريعي رزحت تحت وطأته طائفة من المسلمين. وبناء على طاقة المشهد الجمالية في إيصال القصد سيستهيم المتلقي شغفاً بالأنساق المصورة، لأن كل نسق منها إنهاء لحدث مبرمج وتصور لمشروع محتمل، يحيط به القارئ خُبراً فيحقيق بميناالدال/ ميताالصورة، وما يجري فيه من أشخاص وأفكار وأحداث نحو: أتباع عمر بن الخطاب والمسلمون المبتلون بأخلاقه المعقدة... وسيبلغ لحظته السعيدة التي تكتمل فيها خبرته الجمالية^١.

وتتعمق حالة الترميز الاستعاري في الفصل الذي يسبق نهاية الولاية الثانية«فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطِ وَشِمَاسٍ وَتَلَوْنٍ وَاعْتِرَاضٍ» لتوشح الخطبة ببراهين دامغة لإدراك المخاطب. فتدحر التصورات السطحية في ذهنه وتأخذه إلى قعرها الحاضن لأكثر القضايا حساسية في تاريخ الأمة الإسلامية. من هنا نقول: أن الشعور الجمالي الناتج من إدراك الصور ليس انفعالاً فحسب، إنما «هو فعل معرفي»^٢.

١ . ينظر : من قضايا التلقي والتأويل، مجموعة من الباحثين، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط١/ ١٩٩٥م، ٤١.
٢ . ينظر : النبوة الدلالية، أ . ج . كريمص، ترجمة أحمد الفوجي، مجلة علامات في النقد، عدد١٣، سنة ٢٠٠٠م، ٤٣.
٣ . ينظر : فلسفة الفن في الفكر المعاصر، د. زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م، ١٠٤.

وهذا الفعل يتعدى حدود البنية الدلالية المختنقة بأبعاد الشكل إلى عالم الدالة /الصورة الممكن الذي ينسج منه القارئ توليفات بين المقولات السيمية و محتواها الاستعاري.

فيدرك أن الناس قد أصيبوا باضطراب الرجل وتزلزل أخلاقه وسياسته الجافة وتلونه من حال إلى أخرى على غير هدى، مما أدى إلى تفرق صف المسلمين وتبدد كلمتهم. حقا إن الهيئات الحية: خبط وهو السير على غير جادة، والشماس إباء ظهر الفرس عن الركوب والنفار، والتلون والاعتراض المشي عرضاً على غير خط مستقيم.

قد أولجت المبصرين في مستتراتها التي تفتح على مدة تاريخية معينة كما انتخب الباث قدرتها على البوح المستمر.

لذا ستمكث في الذات بوصفها موضوعاً للتفاعل الأستطقي.

ولا نتغافل عن الطاقة الجمالية المنبعثة من الإيحاء السايكوفيزيقي الجامع بين الصور المفردة (الخبط والشماس والتلون والاعتراض).

التي تشعر القارئ بالحركة العشوائية (المشي المضطرب) الموحدة لأجزاء المشهد.

وإن انبثاق هذه السمة كسر جمود المشهد ووجه العين إلى اتجاهات ذات دلالة متبدية في التموجات الحركية. لأن الجمال سمته الحركة.

وبالطبع فإن نهاية كل مشهد تنبؤ بسؤال يدفع المتلقي إلى معرفة الإجابة بتوق وشغف.

لأن بنائية المشاهد درامية محبوكة.

توشك كل كتلة لفظية منها أن تبدأ بفصل تراجمي متمثل بالأفعال المأساوية (مآل الدولة، الأخلاق البليدة، الغضب)، وتنتهي بفصل تراجمي متجلي في (موقف الإمام علي بوصفه أحد شخوص قصة الخلافة الواقعية)، لذا تراود المتلقي دفقة جمالية موضوعها صراع الإنسان ضد القدر، وكفاحه ضد الضرورات الخارجية.

فيعتقه الإيمان بالكفاح الحر ويتبنى مقولة الجمال المتعالية المؤثر^٢.

وقد ألفت القارئ موقف النبل من الإنسان النبيل في معالجة الأوضاع الموبوءة. فالصبر أحجى في مواجهة الشر: «فَصَبْرْتُ عَلَى طَوْلِ الْمُدَّةِ وَشِدَّةِ الْمُحَنَّةِ». فتستدعي هذه الصورة موقفاً سابقاً تمثل في قوله: «فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدِي، وَفِي الْحَلْقِ شَجًا» يرتد هذا المشهد إلى حقبة تاريخية مضت في زمن أبي بكر.

١ . معنى الجمال، ستيس، ٥٢.

٢ . ينظر : مقدمة في الدراسات الجمالية، د. محمد علي أبو ريان ، ٢٧ .

وهنا يكمن معنى الدراما التراجيدية بشكلها الفني الجمالي إذ يصفح كل حدث عن حدث آخر، متجادلين في الزمن والشخوص لكنهما متشادان في وحدة القصد. فموقف أمير المؤمنين (عليه السلام) من الخليفتين واحد على الرغم من اختلاف العهدين وقد عبّر عنه الفعل الدرامي «فصبرت» لأن كلا الإثنين تشطرا ضرعي الخلافة واستحلباهما جوراً وفساداً وتفرقاً، فتستحيل استقامة الأمر بالقتال وإراقة الدم.

لذلك يقرر المشاهد في النهاية تقويل المشهد الدرامي شعورياً للاندماج بشعور الذات الراوية والرائية (الإمام علي) كما توحد بها في موقف ماضٍ (عهد أبي بكر).

وينفعل بأستطيقا المشهد الغني بالعلاقات المتفشية في توازن الأقطاب (الصدّيق والخطاب)، وتمائل التفاصيل (سلب الخلافة وخلخة الدولة)، وتكرار الحدث (الصبر على القائدين).

والتماثل والتكرار والتوازن آثار جمالية تحدث تنغيماً عقلياً وانفعالياً مدهشاً في المتلقي.

ومن ثمّ تهتدي مقاطع السرد إلى تحولات زمنية حاسمة دون التلطف بالزمن التاريخي وتمفصلاته وتتضخم سلطته عبر القول الموجز المحايث سيميائياً للأحداث نحو: مقتل عمر بن الخطاب كما مضى لسبيله أبو بكر، حينئذٍ سيولي المتلقي اهتمامه إل سلطة التاريخ على الخطبة – وهي سلطة خارجة عن النص تُعنى بمرجعية القارئ المعرفية- ويتجلى ذلك بقوله «حتّى إذا مضى لسبيله».

وما أن يموت عهد زمني حتى يُولد آخر لا يختلف جملة وتفصيلاً عن العهدين المنصرمين، فالخلافة قد انشطرت – بتدبير من عمر- لتشمل جماعة أشار بهم إلى أهل الشورى وهم من الصحابة (سعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة والزبير وعثمان وعلي بن أبي طالب).

وتوقف القارئ عند الفصل: «جعلها في جماعة زعم أنّي أحدهم» مستفهماً كيف يقرن الإنسان النبيل إلى هذه الجماعة؟ فيقضي الفصل التالي: «فَيَا اللهُ وَاللشُّورَى» بما توقع المستفهم جوابه وهو جواب استفهامي متشجح بالتعجب من عروض الشك لأذهان الخلق إلى غاية أن ناظروه - أي الإمام (عليه السلام) - بهؤلاء الستة: «مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِي مَعِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِيرْتُ أقرنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَقْتُ إِذْ أَسْفُوا وَطَرْتُ إِذْ طَارُوا».

فكان الدنو من اختيارهم – نقصد أهل الشورى- والتصرف على قدر مرادهم سيد الموقف النبيل. كما أنه مغاير لتقل الصبر في الخلافتين السابقتين.

١ . ينظر : مبادئ علم الجمال، لالو، ٦٨.

وقد تمكن المقطع الاستعاري الأخير «أسفقت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا» من بعث قصد الخطيب (توقى الإمام من أهل الشورى ومعايير انتخابهم) في المتلقي بفضل حساسيته الرمزية.

فأحوال الطائر إسفافاً وطيراناً لا يمكن أن تخالف الفطرة التي جُبل عليها وذي حال الأمير لا يرد القوم عن اختيارهم بالحرب ويفضل الصمت على سياستهم أولاً و آخراً لأنه روض نفسه الشريفة على المنطق السليم في عصائب الدهر. والمشهد على الرغم من بساطة أجزائه (الطائر في هبوطه وتحليقه) تحدى القارئ وأضفى على ذاته بعداً من الغوص الفكري والشعوري لكي يصل إلى مدارات الخلافة الثالثة بعد طعن عمر واجتماع أهل الشورى.

وقد تجلى القوام الابتكاري للمشهد في توخي المتكلم لموجودات الطبيعة الماثلة لعيانه و«أكثرها دلالة على حسه بالأشياء، وإزاء هذا الحدث لم يختر سوى ما وجده أشد معادلة لها في ذاته» (١) عاكساً ما اعتلى شعوره الذاتي من تظلم وشكوى وتصبر... على أحوال الطير هبوطاً وصعوداً، ثم صاغه بالمفوضات الموقعة بأعبائها السيمية التعبيرية في المخاطب، فكان له من تجربة المتكلم هذا الإدهاش الجمالي.

أما المشهد اللاحق «فصغى رجلٌ منهم لضعفه ومال الآخر لصهره مع هن وهن إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حُضْنِيهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلْفِهِ» فقد سرد تصاعد الأحداث التي يتوق المتلقي معرفتها.

وأول حدث يشغل لُبّه مَنْ اعتلى عرش الخلافة؟ وكيف؟ فيستجيب السارد/ المتكلم لرغبة المخاطب في رواية الحدث المهيمن على ذهنه مختزلاً تفاصيله في ثلاث صور مغرقة في نعت الوقائع فـ «سعد بن أبي وقاص منصرفاً عنه) عليه السلام) وهو أحد المتخلفين عن بيعته بعد قتل عثمان... وعبد الرحمن بن عوف فإنه مال إلى عثمان لمصاهرة كانت بينهما... وميله إليه لم يكن لمجرد المصاهرة، بل لأشياء أخرى يحتمل أن يكون نفاسة عليه وغبطة له بوصول هذا الأمر إليه... إلى أن قام ثالث القول {عثمان}».

مما يثور شهوته في تنميش المشهد من خلال اللقطة الرابعة المتجلية في تنويع عثمان وإدارته لدفة الدولة: «نافجاً حُضْنِيهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلْفِهِ». ثمة مأثرة فردية اختفت وراء الصورة السردية، بيد أن المتلقي مهما أطالت في خفائها عليه سيسبر شكلها اللامرئي ليمنحها وجوداً مرئياً في لُبّه. وذلك عبر تحويلها المرتبط بالسحيق النفسي.

١. ينظر: تمهيد في النقد الحديث، روز غريب، دار المكشوف، بيروت، ط١/ ١٩٧١م، ١٠٥.

فيكني نفح الحضين عن استعداد ثالث الخلفاء للتوسع في بيت المال تشبهاً بالبعير الذي ينتفج جانباه بكثرة الأكل، وربما أشارت الاستعارة إلى المنكبر المنتفج كبراً.

أما قوله بين نثيله ومعتلفه متعلق برغبة عثمان في أن يكون بين أكل وروث وما عرف عنه لم يكن أكبر همه إلا الترف والتوفر على الأكل والشرب.

يخزن المشهد طاقة جمالية ضامة لشعث وحداته الملتقطة عبر تقنية التماثل المقلص للمجردات العقلية والنفسانية مثل: طباع عثمان، وخلافته. والمدركات الطبيعية نحو: البعير النافج الحضين، والعلف والروث. فتحدث فينا بفضل الطبيعة المشتركة بين هذه الأشياء المتنوعة متعة وإثارة عاصفة نسميها عادة بالمتعة الجمالية.

وبما أن الخطبة تسير في خط مواز للبنية السردية الحاملة لصوت الحاضر العاكس/ المتكلم – بوصفه سارداً وموصلاً- فإن قصدها المتميز يظهر عند قصّها لأحداث الحقيقة، ونقلها لأخبار الماضي المنفلتة من وعي المبدع. فتغدو صيغتها الفريدة والممكنة. هي صيغة الحدث الأكيد^١.

وبناءً على هذا فإن كلّ صورة مفردة أو مشهد متكامل مؤلف من تنويعات استعارية بوساطتها يصل المبدع إلى ذروة التأكيد الحديثة – يعني تحقيق قصد المتكلم الحاضر- ثمّ تقترح الصور المنزاحة تمثيل الحدث في ذات المتلقي وهذا يعني تحقيق قصدية النص/الخطبة.

ومن تلك المشاهد قوله: «وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضِمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضْمَةَ الْإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنْ انْتَكَتْ عَلَيْهِ فَنَلَّهُ، وَأَجْهَرَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَّتْ بِهِ بَطْنُئُهُ». وما انفك المشهد يولج بالفارئ في تاريخ الدولة الإسلامية حتى يطلعه على قيادة عثمان ويستأنف سياسته في الحكم بشكل مفصل.

إذ عهد الخليفة عثمان إلى بني أبيه من بني أمية بن عبد شمس – لقرابة بينهم- بمزاولة شؤون الدولة وخاصة سياستها المالية- لمدة زمنية غير قليلة حسبما يوحى المشهد- فتوسعوا بمال المسلمين بأمر من عثمان - وقد نُقلت عن ذلك شواهد عديدة^٢- إلى أن انقلبت عليه تلك التدابير، فأجهز عليه استبداده بالرأي

١ . الفن والأدب، (بحث في الجماليات والأنواع الأدبية)، ميشال عاصي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط ١/١٩٦٣م، ٣٩.
٢ . شرح نهج البلاغة، البحراني، ١/١٧٩-١٨٠.
٣ . ينظر: المصدر نفسه، ١/١٨٠.
٤ . ينظر: معنى الجمال، ستيس، ٤٠.

دون مشورة الصحابة ثم طعن من جهة بني أبيه وبذلك انتهى عهد الخليفة الثالث.

والرائي للمشهد ينغمر بطاقة جمالية فائضة عن عامل الوحدة في التنوع الذي وحد بين متفرقات الصورة الكلية.

فهناك أناس يأكلون والإبل تأكل أيضاً من حشاش الربيع بشرائه، وبالقرب منها رجل يرمي القتل ويبدو أنه المالك لهذه الأرض، فإذا به يُطعن على حين غرة. وصور المشهد تجذب انتباه الآخر إلى تنوعها المعقد نوعاً ما والمختلف (القوم والرجل)، والمؤتلف (القوم يخضمون والإبل تخضم)، والمفضي إلى غاية واحدة (طعن الرجل من قبل القوم فلا أحد سواهم في الأرض).

وقد أصيب المسلمون بحيرة شديدة بعد مقتل عثمان. ولم يجدوا بداً غير اللجوء إلى مبايعة الإمام علي (عليه السلام) - كأنهم خبروا عهد الخلفاء الثلاثة ملياً فلجئوا إليه- صفوفاً صفوفاً ينتالون عليه من البصرة والكوفة... حتى لقد وُطئ الحسن والحسين (عليهما السلام)، وُخُدش جانباه من اصطكاك الناس حوله. كما يروي قوله: «فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْتَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وُطِيَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْعَنَمِ».

فترغم الصور القارئ على الاعتقاد بأن الراوي الحاضرة التي تتكلم باسمها وتروي تجربتها كما تكلمت في مسرودة سالفة عن تجربة الصديق والخطاب وابن عفان. وهذا ما يدعوه أفلاطون بالسرد المطلق (١).

إذ يبرز السارد للقارئ دخيلته مكثفاً من نبرة الأنا المباشرة والتفاصيل الدقيقة ليفرز الملامح المتميزة في عهد ولاية أمير المؤمنين المتعارضة مع العهد السابقة بدءاً من ساعة المبايعة.

يطبق عامل السيادة بطاقته الجمالية العالية على مقاطع المشهد فالصور: عُرف الضبع، ورببيضة الغنم، وتقاطر الناس من كل حذب وصوب، ووطئ الحسنين، وشق جانبي الإمام.

تسير في خطاطة أفقية ثنائية المدى: يسود مداها الأول إدراك المتلقي وهو اجتماع الغالبية العظمى على مبايعة الإمام علي وإلا ماذا تعني كثرتهم حوله؟ وتتموضع قصدية النص في المدى الثاني وهو استعادة حق أمير المؤمنين المنتهب في تولي السيادة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عقب شدة محنة وطول صبر على جور ثالوث الخلافة.

١ . ينظر: السرد والوصف، جبرار جُنَيْت، ترجمة د. مهدي يونس، الثقافة الأجنبية، عدد ٢، سنة ١٩٩٢م، ٥٤.

ويكتف النص من حيله غير المباشرة المتجلية في الملفوظات الانزياحية التي تبرز دائماً في عالم المتلقين الذاتي. فطالما توحدوا بها لأنها تطرح قضية مصيرية وتشكل تجربة أستطبيقية تتجه بنا إلى الاستمرار حيث الجمال ينساب في موقف التأمل النزيه المتعاطف دائماً.

وتستمر الخطبة في رواية الحدث الجديد - خلافة الإمام علي(عليه السلام) وطبيعة حكمه- محورة من ناحية التعبير يقينية الانزياحات الساردة للوقائع الهاجسة بالمفاجئة كقوله: «فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ، نَكَّتُ طَائِفَهُ وَمَرَّقْتُ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَّيْتُ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَأَوْهُمْ زَبْرَجُهَا».

وقد أفضت الصور القصيرة الأولى (نكثت، مرقت، قسط) إلى قراءة مزدوجة. تتضمن القراءة الأولى معجمية الدال. فالنكث يعني الانتقاض، والمروق: خروج السهم من الرمية، والقسط: العدول عن الحق. أما القراءة اللاحقة فتتم عن تأويل الصور الفنية على مستوى قصد المتكلم الذي نفخه في ذوات السامعين من خلال هواجس الصور المشحونة بالأحداث الغابرة. فالناكتون أصحاب الجمل هم عائشة وطلحة والزبير، والمارقون الخوارج عن الدين وهم أهل النهروان، أما القاسطون أصحاب صفين فهم أتباع معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص.

وقد استعان المتكلم بالقول القرآني لتنبية الفرق الباغية عسى أن تعود إلى رشدها، وخلق انطباع ذي تأثير أعظم في النفس فربما تثير نبرة المقدس حساً بتهذيب النفس، وحريراً بصورة الآخرة أن توقد حساً بالجمال المحض المجوز لأنواع المعروفة في الدنيا. لكن هيهات يا أبا الحسن فقد سمعوا نداء الله وما استجابوا لأن الفساد في الأرض تزين لهؤلاء البشر في أبهج صورة حتى أنساهم طريق الهدى.

وأظن الطاقة الجمالية للمشهد متأتية عن طريق الإيقاع المسلسل للصور. فكل صورة يرسمها المبدع تشكل حقبة زمنية مختزلة لأحوال الدولة الإسلامية بقيادة أمير المؤمنين بيد أنها أحوال مريرة (حروب وارتداد عن الدين وجاهلية

١ . ينظر: شرح نهج البلاغة، البحراني، ١/ ١٨٠.

بعد إسلام) مما تضع المتلقي في حزن رهيب واستغراق تام في مشاعر المتكلم، وهذه التجربة ظفر جمالي.

فقد قيل: أن الجمال مهما كان نوعه ضلال قاتم أو سطوع ناصع في أسمى درجات تطوره، لا بد أن يحرك الروح الحساسة للدموع ويأسرها بالاتصال في لحظاته الحادة.

وقد نهض الإمام بأمر الخلافة بعد شوط محفوف باللوعة والأسى و انداح إلى خطبته مثلماً الأعداء لقبوله هذا العبء بعد كل ما جرّه من ويلات ومحن.

فقال: «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقاروا على كِظّة ظالم ولا سَعْبِ مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألقيت دُنْيَاكُمْ هذه أُرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَقْطَةِ عَنزٍ».

في هذا المشهد الأخير ارتفعت لهجة الخطاب بدليل ورود القسم العظيم المشتمل على أدق خلق الله وأطفها لغزاً وأكتفها دلالة على حكمته تعالى في الصنع (خلق الحبة الصغيرة وبراء الروح الخفية).

كما افتتح الخطبة بالقسم الجليل المشتمل على الذات الأقدس (الله جلّ شأنه). إن تساوق مشاهد مفتتح الخطبة ومنتهاها على نيرة القسم ليست ملفوظاً مفاجئاً أو عابراً بل تدبيراً ناتجاً عن دوي المأساة المتفوقة على ذات المتكلم وحجمها الفضفاض، وقاصداً لازماً أن تعيش تلك المأساة في ذوات آخر.

فكان أول ما يطرق سمع القارئ وآخر ما يدخره ذهنه صدى القسم العظيم. لأن دققة التنظيم والشكايّة عظيمة أيضاً.

ثم انعطفت الصور لتعرض أسباب النهوض بالدولة ومنها: حضور المسلمين لمبايعة أمير المؤمنين وإلزامه الحجة في طلب الحق، وما أخذ الله على العلماء من ميثاق في إنكار المنكر ونصرة المظلومين.

ولولا تمسكه (عليه السلام) بهذه الموائيق لرمى بأمر الخلافة وأودعها غيره. ولوجد الناس أن دنيا عند أبي الحسن لا تعادل أهون الموجودات كمثل نثار أنف العنز.

مما تؤكد صورة الزهد هذه فيض كمالته الخلقية والنفسية التي ألقاها في مشهد سابق.

١. ينظر: الفن والأدب، ميشال عاصي، ٨٣.

وينطوي المقطع الختامي على طاقة جمالية استحكمت في نفس المخاطب وعائت في وجدانه لذة ومتعة جماليتين. فالجمال في أحد معانيه الشائعة يدل على الأشياء التي نستمتع بإدراكها ونشعر بديمومة جاذبيتها^١.

وفي ختام المقاربة التحليلية لأرجاء المشاهد نعثر على مكنن الطاقة الجمالية العاصفة بصور الخطبة جميعاً. فكان من نتائج توهجها الجمالي أن تعصف أيضاً بإحساس المتلقي وذهنه بحيث ترقد فيه وإلى الأبد.

إنها طاقة الأستطيقا الآتية من مبدأ التكامل أو ما يعرف بالشمول والانسجام النوعي^٢، الذي صهر شتات تجربة المبدع سواء أكانت ألفاظاً، أحداثاً، أفكاراً، شخصيات، أزمنة، أم أخيلة ومجازات لتتنبني من جديد خطاباً نصياً لا متناهيّاً تسود سرمديته الذوات لأنه رقابة محمولة بشكل مواز من واقعية معينة من طرف، وموقف جمالي من طرف آخر^٣.

فالصور التي أظهرت الأحداث قد فرضت حقائق روحية لولاها لما ربت أنفسنا بالانفعالات. وأظنها بغية النص والمتكلم على حدّ سواء. إنها شفشقة هدرت ثمّ سرت كحزمة ضوء في النفوس.

الخلاصة

اخترقت الخطبة الشفشقية خصوصية الواقع والتاريخ والسياسة. فاستحالت بذلك الاختراق الفريد إلى نص أدبيّ متعدد الأصوات، كلّ صوت منه يتعدى ذات الباث إلى المرسل إليه ليمنحه نفسه، حينئذٍ تهيمن الذات على الآخر. لذلك استحضرننا من خلال المقاربة الجمالية للخطبة جملة من أسباب الهيمنة، نوجزها في إلماحتين:

١- إن عقدة الخطبة تتألف من النصيات / الصور الحاملة لتجربة الذات والآخر الذي يصادر النص/ الذات المبدعة إحساسه لغرض الترويض الجمالي عبر الصور الاستيهامية للمشاهد مما يعني أن النص والذات محمول جمالي واحد.

١. ينظر: السرد والوصف، جيرار جُنيت، الثقافة الأجنبية، ٥٥.

٢. ينظر: النقد الفني (دراسة جمالية وفلسفية)، جيروم ستولنيتز، ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢/١٩٨١م، ٤١٦.

٣. ينظر: الجمالية، موسوعة المصطلح النقدي، ر. ف. جونسون، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م، ٧٠.

٢- الخطبة نصٌ متعالٍ أو جامع النص – على حد قول جنيت- تطرح مقولاتها التاريخية والنفسية عبر خواص السردية وخواص الشعرية اللتين امتلكتنا إحدائنا المقولات.
لذلك لحظ المتلقي طغيان الأحداث على مساحته الشعورية والذهنية بفعل الوصف السردى والوجدان الشعري.

قائمة المصادر والمراجع

الإحساس بالجمال- تخطيط لنظرية في علم الجمال-، جورج سانتنيانا، ترجمة محمد مصطفى بدوي، الأنجلو المصرية، القاهرة، دت، دط
أسس علم الجمال الماركسي اللينيني، مجموعة من الباحثين، ترجمة جلال المشاطة، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨١م
تمهيد في النقد الحديث، روز غريب، دار المكشوف، بيروت، ط١ / ١٩٧١م
شرح نهج البلاغة، كمال الدين بن علي بن ميثم البحراني، دار الرافدين، بيروت، ط١ / ٢٠٠٩م
علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط١ / ١٩٩١م
فلسفة الفن في الفكر المعاصر، د. زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م
الفن والأدب (بحث في الجماليات والأنواع الأدبية)، ميشال عاصي، دار الأندلس، بيروت، ط١ / ١٩٦٣م
في ظلال نهج البلاغة، الشيخ محمد جواد مغنية، وثق أصوله وحققه وعلق عليه سامي الغريبي، دار الكتاب الإسلامي، ط١ / ٢٠٠٥م
مبادئ علم الجمال، شارل لالو، ترجمة مصطفى ماهر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩م
مبادئ النقد الأدبي، إ.إ. ريتشاردز، ترجمة د. مصطفى بدوي، مراجعة د. لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، دط، دت
معنى الجمال (نظرية في الأستطيقا)، ولترت، ستيس، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م
مقدمة في الدراسات الجمالية، محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، بيروت، ١٩٧٩م
من قضايا التلقي والتأويل، مجموعة من الباحثين، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط١ / ١٩٩٥م

موسوعة المصطلح النقدي - الجمالية-، ر. ف. جونسون، ترجمة عبد الواحد
لؤلؤة، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨ م
النظريات الجمالية - كانت - هيغل - شوبنهاور، إنوكس، عربيه وقدم له د.
شفيق شيا، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، ط١ / ١٩٨٥ م
النقد الفني (دراسة جمالية وفلسفية)، جيروم ستولنيتز، ترجمة د. فؤاد زكريا،
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ / ١٩٨١ م
الدوريات:
الثقافة الأجنبية، العدد ٢، السنة ٢، ١٩٩٢ م
علامات في النقد، العدد ١٣، ٢٠٠٠ م.

الدلالات التفسيرية في شواهد نهج البلاغة القرآنية

المدرس الدكتور: عدي جواد الحجار (جامعة الكوفة - كلية التربية الأساسية)

المقدمة

إن لكتاب «نهج البلاغة» بما يحمل من خطب، وأقوال، وكلمات قصار، وأمثال، وشواهد بلاغية وقرآنية، أهمية كبرى في العلوم الشرعية وعلوم اللغة والعلوم التي تصب في خدمتها عموماً، إذ انتظم بين دفتيه معارف الهيئة عالية، ومنهجاً للاخلاق الفاضلة، وقوانين الاجتماع الدقيقة، إلى جانب السياسة الملتزمة، وضوابط الحرب العادلة، وما يتعلق بأصول الاقتصاد، وما يمت إلى العلوم النظرية والتطبيقية بكافة نواحيها، وقد كان لعلوم الشريعة والعلوم المساعدة حيزاً كبيراً فيه، ولذا فهو منهل للباحثين في الحكمة، والادب، والعرفان وتفسير القرآن الكريم، وقد امتاز كتاب «نهج البلاغة» بوحدة الروح والمثل والأسلوب على اختلاف موضوعاته ومقاصده وقنونه في صور فنية رائعة تسمو بأرفع أساليب البلاغة والفصاحة.

وذلك مما يضيف للباحثين من توثيق لنسبته إلى إمام البلغاء، زائداً إلى وثاقة ما اعتمده الشريف الرضي من مصادر جمع منها نهج البلاغة، كونه عالماً بصيراً، وثبتاً مؤتمناً، مما يجعل كتاب النهج جديراً بأن يكون من أوثق الكتب وأعلاها قيمة، إذ يرتقي لدرجة ما يرويه المحدثون الثقات، الذين يؤخذ بمروياتهم مسلمة من دون تشكيك، وبعد ثبوت نسبة ما في «نهج البلاغة» من الخطب والكلمات إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الذي ألقيت على عاتقه مسؤوليات تفسير القرآن بعد النبي، يتضح أن الأداء الفكري والتطبيقي والتنظيري لتفسير القرآن، هو من ذلك النمير الرائق المتصل بالعلم الإلهي الذي أوحاه الله لرسوله الكريم، فقد ورد في نهج البلاغة جملة من تفسير الآيات والألفاظ القرآنية، بل يمكن الإفادة من بعض الشواهد أسساً تمثل قواعد أولية للجانب النظري في تفسير القرآن الكريم، وانتظم جملة من الدلالات التفسيرية التي يتلمسها الباحث في شواهد «نهج البلاغة» القرآنية، واضحة وجليّة كما سيثبت البحث ذلك، باعتبار أن أمير المؤمنين هو الأعراف بكتاب الله تعالى بعد الرسول الأكرم، إذ أنه كان الأذن الواعية للقرآن الكريم وما فيه من أحكام ودلالات، من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط، ومن بيان مصاديق لكلي ورد في القرآن الكريم، وبيان مفردة أو تفصيل إجمال، أو بيان تخصيص عام، وغير ذلك من شواهد.

لذا اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم على النحو الآتي:

نهج البلاغة منهل العلوم

- نسبة نهج البلاغة.
- الشخصية التفسيرية لأمير المؤمنين.
- الأداء التأسيسي لتفسير القرآن الكريم في «نهج البلاغة».
- الشواهد التطبيقية في التفسير في «نهج البلاغة».

«نهج البلاغة» منهل العلوم.

من نافذة القول التعريف بكتاب «نهج البلاغة» من حيث شهرته ونسبته وسمو مكانته، واشتماله على المعارف الإلهية والعلوم الشرعية وعلوم اللغة وغيرها، لما ضم -من علم الإمام الذي هو من رشحات ينبوعه المعرفي ومكون علمه- من ومضات علمية ومعرفية، فهو يلقي الضوء على التوحيد ويشير إلى بداية الخليقة وانبثاق الوجود، وخلق الملائكة، وخلق السماوات والأرضين، والإنسان، والحيوان، وما اشتمل من رؤى مكثفة في علوم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ، والأدب، بل انتظم العلوم الطبيعية من فيزياء، وعلم الأرض «الجيولوجيا» مما لا يزال يتسم بالجدة والحدثة لدى العلماء المعاصرين على الرغم من التطور الذي وصل له الإنسان في هذا العصر.

ولا غرو وهو عمّن هتف بصلافة ورسوخ: «سلوني قبل أن تفقدوني»، ثم لم يعجز عن جواب سؤال قط، ولم يسجل التاريخ مثيلاً لهذه الظاهرة، وقد كان هذا القول منه في عدة مواقف، منها ما يتعلق بعلوم شتى، ومنها يختص بالقرآن الكريم، إذ قال: (سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتُموني عن أية آية، في ليل أنزلت، أو في نهار أنزلت، مكيتها ومدنيها، سفرها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، إلا أخبرتكم).

وقد ضم نهج البلاغة من روائع البيان وأسرار العلوم، وقد أشار الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣ هـ) إلى انطباق اسمه على محتواه، بقوله: (ولا أعلم اسماً أليق بالدلالة على معناه منه، وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد ممّا دلّ عليه اسمه، ولا أن أتى بشئ في بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الاختيار)، وذلك أنه كلام وصي خاتم الأنبياء، الذي انتهل من مدينة العلم ألف باب من العلم يفتح له من كل باب ألف باب، فهو قبس من نور الخطاب الإلهي وسراج يضيء بفصاحة المنطق النبوي، ومن هذا قيل: (ليس في أهل هذه اللغة إلا قائل بأن كلام الإمام علي بن أبي طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه، وأغزره مادّة، وأرفعه أسلوباً، وأجمعه لجلائل المعاني)، بما يمثله من أنموذج واضح وصورة من صور المنهج العام لأمير المؤمنين علي بن أبي

طالب، في الدين والسياسة والإدارة العامّة للدولة، وسائر شؤون النشاطين من أمر المعاش والمعاد.

ويلحظ أن الخطب والأقوال والحكم التي في نهج البلاغة تتسق ونظام القرآن الكريم تفسيراً واستشهاداً وحثاً على قراءته وحفظه والاعتبار به وتدبره، وتطبيقه، ولا غرو أن يكون الهدف الأساسي في «نهج البلاغة» هو القرآن الكريم بوصفه الدستور الإلهي، إذ هو جدير بأن يصب في خدمته كل كلام، استجلاءً للخطاب الإلهي في القرآن الكريم، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: (ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم)، وهو أعرف بتفسيره، بعد رسول الله لما حباه من علوم هي أسس في تفسير النص القرآني، إذ قال: (إن الله تبارك وتعالى قد خصني من بين أصحاب محمد بعلم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والخاص والعام، وذلك مما من الله به عليّ وعلى رسوله)، ومن الأداء التفسيري، لما اختص بذلك، إذ قال: (لو شئت لأوقرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيراً)، وذلك مما دعى البحث أن ينتبع مضان الشواهد التفسيرية في «نهج البلاغة».

نسبة نهج البلاغة

من المسلم به حتى عند من شكك في نسبة «نهج البلاغة» إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أن جامعه هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى ابن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، المتوفى في المحرم سنة ست وأربعمائة، كان فاضلاً عالماً شاعراً مبرزاً.

قال الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ): (ابتداءً يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل وهو اليوم أبرع أبناء الزمان وانجب سادات العراق يتحلى مع محتده الشريف ومفخره المنيف بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر)، والثعالبي قد عاصر الشريف الرضي وشهادته عن حس.

وكذلك شهادة أبي الحسن العمري العلوي إذ قال: (وكانت له هيبة وجلالة، وفيه ورع وعفة وتشف ومراعاة للاهل وغيره عليهم وعسف بالجاني منهم، وكان أحد علماء الزمان، قد قرء على أجلاء الرجال.

وشاهدت له جزءاً «مجلداً» من تفسير منسوب إليه في القرآن مليح حسن يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطبري أو أكثر)، وهذا ما يضيف للشريف الرضي فوق ما هو معروف عنه من العدالة لدى الإمامية، شهادة حسية بالتقوى والورع المانعة من الإقدام على الوضع، وشهادة له بالمعرفة بالرجال ووثاقة حديثه واضطلاعه من درايته، ومعرفته بالتفسير، وذلك تعضيد وتمجيد ينزه

ساحته عن أن ينسب إلى أمير المؤمنين، ما ليس له، لعدم حاجة الإمام إلى ذلك، مع ما فيه من كذب على المعصوم الذي يمثل معصية وذنباً، وهو في مندوحة عنه، (وكيف يقبل العقل أن يزور مثل الشريف على مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في كتاب اطلع عليه السني والشيوعي في عصره، سيما في مدينة بغداد الحافلة بجماهير من العلماء، من غير أن ينكر ذلك أحد عليه أو يرده، مع وجود الدواعي الشديدة لهم في تكذيبه، واطهار تزويره، فاحتمال ذلك حتى بالنسبة إلى كلمة من هذا الكتاب مقطوع العدم). يضاف إلى ذلك أمور، منها:

إن الكثير من نصوص النهج محكوم بتواترها عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وإذا ثبت صحة نسبة البعض، ثبت أن الجميع منه، لاتفاق جميع نصوصه في الأسلوب.

والطعن عليه بأنه يستقيم بأسلوب واحد لأنه من وضع واحد وهو الشريف الرضي، مدفوع بعد مقارنته مع مؤلفات الشريف الرضي مثل «حقائق التأويل»، و«المجازات النبوية» وديوانه الشعري، وغيرها، فإن بينهما اختلاف واضح في الأسلوب والمتانة.

إن كثيراً من خطب نهج البلاغة موجودة في مصادر شتى، قبل زمن الشريف الرضي، أما ما لم نقف اليوم على مصادره، فلا يعني أنه موضوع، فقد كان في متناول يده الكثير من المكتبات الكبيرة، مع ما يلحظ من وحدة النظم والأسلوب، ولعدالة الشريف وأمانته، وقد قبلت مراسيل من هو أقل منه شأنًا. الإخبار بالمغيبات وأسرار العلوم الواردة في النهج بتلك الجزالة والقوة في السبك والدلالة، مما يبعد الشبهة واحتمال الوضع، فإن من دواعي اعتبار خبر الواحد الاعتبار بمتنه ودلالته.

مطابقة الكلام المثبت في النهج والقرآن الكريم، فلو تأملنا كل كلمة لوجدنا فيها دلالة مبينة للقرآن الكريم بالتفصيل أو الإجمال أو بما انطوت عليه من مباحث قرآنية، هذا مع أن كلام الله تعالى تفرد بخصائص لا يشاركه فيها كلام البشر، ولا يمكن أن ينشئ النهج بهذه الكيفية غير وصي الرسول الأكرم الذي خصه بعلم القرآن.

وقد أشار إلى ذلك جملة من العلماء والباحثين، مما يدفع المطاعن ولا يدع مجالاً للتشكيك في نسبة المجموع في نهج البلاغة: إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

الشخصية التفسيرية لأمير المؤمنين.

وتتمثل بأهليته لبيان مراد الله تعالى في خطابه في القرآن الكريم، من إيضاح معنى لغوي عام، أو تفصيل إجمال، أو بيان مبهم، أو تخصيص عام، أو تجلية

مصدق، أو استنباط حكم شرعي فرعي، أو إرشادي أو تنزيهي، وغير ذلك مما ينتظمه تفسير النص القرآني.

كان النبي الأكرم المفسر الأول للقرآن الكريم، كما عهد إليه الله سبحانه وتعالى، بقوله: ونهض من بعده أئمة أهل البيت، فهم الراسخون في العلم، وهم عدل القرآن الذي أكد عليه النبي في مواقف عديدة.

وعلى رأسهم أول من تكلم في تفسير القرآن بعد رسول الله مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهو أعلم المسلمين بتفسير كتاب الله وتأويله بلا مدافع، بل هو باب مدينة العلم.

عن ابن مسعود أنه قال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علياً عنده من الظاهر والباطن. ثم لاشك ولاريب أن أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) داخلة في السنة الشريفة، وتفسير القرآن لا يمكن أن يخلو مما صدر عنهم صلوات الله عليهم، لما جعلهم الله وعاء للقرآن، فقد ورد أنه قرأ رسول الله: فما سمعت شيئاً نسيته.

قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): (إن قلت: لم قيل «أذن واعية» على التوحيد والتكبير؟ قلت: للإيدان بأن الوعاء فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم وإن ملأوا ما بين الخافقين)، وروى الكليني (ت ٣٢٩هـ) بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي (ت: نحو ٨٥هـ): قال سمعت أمير المؤمنين، يقول... وساق الحديث إلى أن قال: (ما نزلت آية على رسول الله إلا أقرأنيها وأملأها عليّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه علي فكتبته منذ دعا لي بما دعا وما ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى كان أو يكون ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفاً واحداً ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً).

فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي مذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه أو تتخوف علي النسيان فيما بعد؟ فقال: لست أتخوف عليك نسياناً ولا جهلاً).

فأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب تكونت شخصيته التفسيرية من خلال الجعل التكويني لوجود المؤهل ومن خلال التربية النبوية الكريمة، بما تحمل من إعداد له لتحمل أعباء الوصية الكبرى للولاية التشريعية العامة، ولما جعله الله تعالى الأذن الواعية للقرآن الكريم، صار سيد الراسخين في العلم، وخصه الرسول

الأكرم بعلوم القرآن بما فيها من أسس تفسيرية كعلم الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والخاص والعام، وغيرها، وبما ألهمه الله تعالى من علوم أخرى فوق كونه من أفصح أهل اللسان الذي أنزل به القرآن الكريم.

ونجد العلوم التفسيرية وشواهدا التطبيقية مبنوثة في أمهات كتب التفسير والمجاميع الحديثية وغيرها من الكتب التاريخية الإسلامية، فكان أولى بنا أن نتتبع تلك الشواهد التفسيرية في كتاب «نهج البلاغة» الذي اشتمل الجَمَّ من مختلف العلوم بعد أن ثبتت صحة نسبته إلى أمير المؤمنين.

الأداء التأسيسي لتفسير القرآن الكريم في نهج البلاغة

الأداء ما يوصل به أو يتوصل به، ويستعمل في المقدمات التي يُتَهيأ بها للوصول، كما يستعمل في الاستعداد الذاتي والقابلية للوصول إلى الشيء، ويكون الشخص الذي يتوصل بها مؤدياً.

فيعبّر عما يتوصل به المفسر لاستكشاف المراد والوقوف على معاني الآيات بالأداء التفسيري، وهو يستند إلى أسس وضوابط تمثل معايير تحدد نظام سير الأداء في العملية التفسيرية.

وقد خص الرسول الأكرم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بهذه الضوابط لما يتفق ومنصب الإمامة الكبرى، التي من أول خصوصياتها بيان المراد من كلام الله تعالى في القرآن الكريم، بلحاظ أن أمير المؤمنين، له مقام حفظ الشريعة المقدسة، وقد بكر في رسم الخطوط العريضة للتفسير التي تمثل الأطر الأولية التي يمكن أن تكون منطلقاً لتشييد دعائم يتماسك بها البناء المعرفي المحصن للعملية الفكرية التي على رأسها ما يتعلق بكتاب الله تعالى وتفسيره.

ويمكن تلمس جملة من تلك الأسس فيما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، في نهج البلاغة، فمنها ما ذكره من الأسس في أخذ الرواية، والتي يفاد منها أسساً في التفسير والحديث لاتحاد النص القرآني والحديث الشريف لإمكان النسخ والتخصيص والإجمال فيهما، كما عبّر عنه في كلامه، الذي انتظم الملامح الأولى للأداء التفسيري، والتي تظهر معالمها في جوابه لسليم بن قيس (ت-نحو ٨٥هـ)، إذ سأله قائلاً: (رأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن والأحاديث والروايات عن رسول الله، يخالفونها. فيكذب الناس متعمدين، ويفسرون القرآن بأرائهم!؟)

فكان جواب أمير المؤمنين: (قد سألت فافهم الجواب) وفي ذلك إلفات للسائل بما يتضمنه كلامه من قواعد كلية، إذ قال: (إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعماماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، إنما أتاك بالحديث أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق يظهر الإيمان متصنع بالإسلام لا يتأتم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله، متعمداً... ورجل

سمع من رسول الله، شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذباً... ورجل ثالث سمع من رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيئاً يأمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ... وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسوله، ولم يهم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه، فحفظ الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام فوضع كل شيء موضعه وعرف المتشابه ومحكمه، وقد يكون من رسول الله، الكلام له وجهان، فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عني الله به ولا ما عني رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله)، ثم أشار إلى أن معرفة ذلك لم تكن على حد سواء حتى بالنسبة إلى أصحاب رسول الله، إذ (ليس كل أصحاب رسول الله، كان يسأله عن الشيء ويستفهمه، كان منهم من يسأل ولا يستفهم، حتى لقد كانوا يحبون أن يجيء الأعرابي أو الطاري أو الذمي فيسأل حتى يسمعوا ويفهموا...).

فالذي أسسه الإمام في هذا النص حل لكثير من الإشكاليات في النصوص الشرعية الموروثة وما يتعلق بها من أمر ونهي ونسخ ومتشابه وكشف عن المراد وفهم ذلك، إذا ما قيست وفق الضوابط التي وضعها (عليه السلام) من حيث سلامة الأداء. لذا لا بد من اتباع هذا المنهج في التفسير أو الحديث ليفاد منه تفسيراً أو غيره.

وتعد هذه الحوارية قواعد كبرى في «نهج البلاغة» لرسم الخطوط العريضة التي ينبغي أن تبنى عليها جملة من الأسس في الأداء التفسيري. ولا عجب فإن المرجع الثاني بعد رسول الله، عند عموم المسلمين في تأسيس الأصول وترسيخ القواعد لشتى العلوم الإسلامية سيما ما يتعلق منها بالقرآن الكريم، هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

ومن أسس التفسير ما جاء في وصيته لابن عباس (ت ٦٩ هـ) والتي وردت في «نهج البلاغة»، لتأسس أن القرآن يحتمل وجوهاً، وأن (هناك من القرآن ما لا يعلم ولا يفهم إلا ببيان من أهل البيان، وهم المعصومون (عليهم السلام)، ومن القرآن ما يفهم معناه بدون حاجة إلى ذلك، حيث إنه ظاهر اللفظ، واضح المعنى لا سترة فيه)، إذ قال: (لا تخصصهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاجتهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً)، وهي من وصية له لعبد الله بن العباس، لما بعثه للاحتجاج على الخوارج.

وقد فصل الإمام الصادق، كلام جده أمير المؤمنين، ومناطق المنع من المحاجة بالقرآن، (وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم

يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالمتشابه، وهم يرون أنه المحكم، واحتجوا بالخاص، وهم يقدرّون أنه العام، واحتجوا بأول الآية، وتركوا السبب في تأويلها. ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن أهله، فضلّوا وأضلّوا).

وملخص مفاد هذا الأداء التأسيسي للتفسير، الوارد في «نهج البلاغة»: أن القرآن الكريم منه ما يمكن للمفسر أن يفهم منه بأدوات متاحة، والآخر ما اختص المعصوم ببيانه، ومنه ما لا بد من التوقف في تفسيره، وعلى ضوء تلك الوصية بيّن ابن عباس أقسام التفسير، فقال: (تفسير لا يعذر أحد بجهالته. وتفسير تعرفه العرب بكلامها. وتفسير يعلمه العلماء. وتفسير لا يعرفه إلا الله عز وجل. فأما الذي لا يعذر أحد بجهالته: فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن، وجمل دلائل التوحيد. وأما الذي تعرفه العرب بلسانها: فهو حقائق اللغة، وموضوع كلامهم. وأما الذي يعلمه العلماء: فهو تأويل المتشابه، وفروع الأحكام. وأما الذي لا يعلمه إلا الله: فهو ما يجري مجرى الغيوب، وقيام الساعة)، فكلام الإمام في «نهج البلاغة» وضع قاعدة كبرى للتعامل مع النص القرآني، ويمكن إفادة تفرّعات هذه القاعدة من كلام الإمام نفسه في موارد أخرى حيث جاء على ذكر هذه التقسيمات.

الشواهد التطبيقية في التفسير في «نهج البلاغة»

أمير المؤمنين هو أعلم الناس بعد الرسول بالقرآن الكريم بلا منازع، وأعرفهم بتفسيره وتأويله بلا مدافع، فكان بحرا زخارا لا يسبر غوره، ولا يدرك مداه، فهو أعلم بظاهر القرآن وباطنه، وحده ومطلعه، وتنزيله وتأويله، ومن ذلك قوله: (لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب)، وقد تناثر التفسير المأثور عن أمير المؤمنين، في بطون الكتب عن السنة الرواة، وهناك شواهد تطبيقية اشتملها كتاب «نهج البلاغة» توفرت على مناحي تفسيرية عدة، فمنها:

- كشف المراد من آية

وهو إيضاح المراد من قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته)، فالاستقامة معلومة، ولكن لم يتضح معيار الاستقامة المطلوب لإطلاق اللفظ، فذكر الإمام المعايير الثلاثة لذلك. وهذه المعاني التي وردت في «نهج البلاغة» عن أمير المؤمنين قد انفرد بجمعها، إذ تفرقت مفرداتها في كلام قدماء المفسرين، وأفاد منها البعض من متأخري مفسري الإمامية، مشيرين إلى أن هذا المورد التفسيري من كتاب «نهج البلاغة».

- تفصيل مجمل بالاستشهاد بآية

ورد ذكر الظلم في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ولم تتجلى تفاصيله، ومن ذلك: الظلم الذي لا يغفر، قال تعالى: «إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»، مفصلا لهذا الإجمال، إذ قال: (ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات. وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا)، وهذا الشاهد من محاسن بيان دقائق المراد.

- بيان انصراف الإطلاق في آيتين

إن انصراف الذهن من اللفظ إلى بعض مصاديق معناه، أو بعض أصنافه يمنع من التمسك بالإطلاق، لما له من ظهور يجعل اللفظ بمنزلة المقيد بالتقييد اللفظي، ففي قوله تعالى: «أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»، وقوله تعالى «مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»، بين أمير المؤمنين، أن النصرة هنا ليست على إطلاقها، إذ أن النصرة على إطلاقها تكون من ذل، والاستقراض على إطلاقه يكون عن حاجة فقال: (فلم يستنصركم من ذل، ولم يستقرضكم من قل) بل هو سبحانه (استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد) ثم كشف سر المراد من الاستنصار والاستقراض بعد أن أضيف لله سبحانه، ليتضح مؤداها: بأنه تعالى (أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملا). وقد أثبت صاحب تفسير نور الثقلين هذا المورد التفسيري عن «نهج البلاغة».

- كشف المراد من خطاب العموم في آية

قد يأتي الخطاب بلفظ يحتمل شمول أنواع أو أفراد، وإن كان لأمر، منها: التأكيد، التعظيم، التشريف، التقريع، التغليظ، التنزيه، التغليب، إلى غير ذلك من الموارد. قال: (إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه: «فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ»، فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة حوار السكة المحماة في الأرض الخوارة)، ففي تعميم اللفظ تغليظ لقبح الفعل وعظمه، ولما يترتب عليه من تعميم الجزاء. وقد نقل بعض المفسرين نص كلام الإمام التفسيري من «نهج البلاغة» في هذا المورد.

- بيان مفهوم في آية

قال تعالى: «أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا»، إذ قال: (إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به. ثم تلا «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ

بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...»، وقد استشهد بعض المفسرين بهذا النص التفسيري دون نسبته إلى «نهج البلاغة».

- بيان مصداق في آية

قد لا يكون من المجازفة القول بأن ذكر الأوصاف المختصة أبلغ في تشخيص المصداق من ذكر الاسم، فقد يشترك الاسم فيحصل الأجمال في تشخيص الأفراد و المصداق، أما في الأوصاف المختصة فلا محالة من انصرافها للانطباق على الفرد الأكمل الجامع لتلك الأوصاف، خصوصاً إذا كانت تلك الأوصاف لا تجتمع إلا بمثل أمير المؤمنين صلوات الله عليه وشواهد ذلك في القرآن كثيرة، وذلك ما جاء من الموارد التفسيرية في «نهج البلاغة»، لقوله تعالى: «الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»، وقوله تعالى: «أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا»، إذ شخص مصداق ما ذكر في الآيتين، إذ قال: (فحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة)، وذكر ذلك صاحب تفسير نور الثقلين في موردي التفسير للآيتين.

- تفسير آية بلفظ

قال في النهج: (وسئل (عليه السلام) عن قوله تعالى: «حَيَاةً طَيِّبَةً»، فقال: هي القناعة)، وقد اختلفت كلمات المفسرين في تفسير هذه الآية، وذكروا فيها أقوالاً، منها أن الحياة الطيبة تعني القناعة، ثم منهم من صرح بنسبة هذا القول مشيراً إلى وروده في «نهج البلاغة»، ومنهم من نسبه إلى الإمام دون ذكر المصدر، ومنهم من أشار إلى القول دون نسبته إلى الإمام.

- تفسير لفظ في آية

قال في النهج: «قال (عليه السلام): في قوله تعالى اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ»، العدل الانصاف، والإحسان التفضل، وقد ذكر المفسرون من الجمهور والإمامية هذا التفسير عن الإمام من مصادر شتى.

- جمع تفسيري بين مفهومي آيتين

في نهج البلاغة: «قال (عليه السلام): لا تأمنن على خير هذه الأمة عذاب الله لقوله تعالى «يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْخَاسِرُونَ»، ولا تياسن لشر هذه الأمة من روح الله، لقوله تعالى «إِنَّهُ لَا يَبْنِي مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ» (...)، وقد ذكر ذلك التفسير بعض المفسرين مصرحين بنسبته إلى كتاب نهج البلاغة.

- جري صدق مفهوم في آية

قال: (كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). وأما الأمان الباقي فالاستغفار قال الله تعالى: «كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» وعلق صاحب النهج على ذلك، بقوله: (وهذا

من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط)، وقد صرح بعض المفسرين بنسبة هذا التفسير إلى «نهج البلاغة»، قال في الأمثل: (فإن مفهوم الآية لا يختص بمعاصري النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل هو قانون عام كلي يشمل جميع الناس) مفيداً ذلك من قول أمير المؤمنين، كما أفاد من ذلك التفسير بعض المفسرين مصرحين بنسبته إلى نهج البلاغة حيناً، والاقتصار على نسبته إلى الإمام حيناً آخر.

- بيان الحد الدلالي للفظ في تفسير آية

قال في النهج: «قال (عليه السلام): الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه «لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه)، ففي ذلك تفسير للآية وتصريح بأنها تعني وضع حدٍّ دلاليٍّ للزهد، وقد نقل بعض المفسرين تلك الفائدة التفسيرية عن الإمام من كتاب «نهج البلاغة».

- بيان مصادر التشريع من تفسير آية

(فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم «أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»، فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة)، ويلحظ أنه، قد أشار إلى قيدين للأخذ بالكتاب والسنة، فالكتاب مقيد بالمحكم منه، والسنة الشريفة مقيدة بما كان مجمعاً على صحة نسبتها إلى الرسول، وفي ذلك إرشاد للفقهاء والمفسر والحاكم لما يشتبه عليهم من الأمور، وقد ذكر هذه الفائدة التفسيرية بعض المفسرين.

- تفسير لفظتين في آية

قال (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: «الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي»، فالعاكف المقيم به والبادي الذي يحج إليه من غير أهله)، وقد استقى جملة من المفسرين هذا التفسير من أمير المؤمنين، منهم من سبق عصره جمع «نهج البلاغ»، ومنهم من صرح بنسبته إلى النهج، ومن نسبه إلى أمير المؤمنين دون الإشارة إلى مصدره.

وفي قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»، قال (عليه السلام): (سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها)، وقد صرح جملة من المفسرين بنسبة هذا التفسير إلى أمير المؤمنين في كتاب «نهج البلاغ».

ومن خلال ما تقدم من تشخيص للدلالات التفسيرية للشواهد القرآنية التي جاء على ذكرها أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبه وكتبه ووصاياه وأقواله والتي قام بجمعها الشريف الرضي في كتاب «نهج البلاغ» يظهر للبحث بعداً تأصيلياً جديداً يضاف إلى ما ضمّ هذا السفر القيم من علوم بكر في طريقة

طرحها، نظرية وتطبيقية، دنيوية وأخروية، تتعلق بالعلة الأولى وبدء الخلق وكيفيته ونهاية ذلك وقيام الساعة وبعث الخلائق. وإن هذا التأصيل يتجلى واضحاً في التفسير والكشف والبيان لمراد الله تعالى في كتابه الكريم كون الإمام معنياً بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ببيان مبهمه وتفصيل مجمله وتخصيص عامه وتقييد مطلقه وناسخه ومنسوخه وسبب نزوله كما صرح بهذا المعنى في مواطن كثيرة حتى قال: (سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتُموني عن أية آية، في ليل أنزلت، أو في نهار أنزلت، مكيها ومدنيها، سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابها، وتأويلها وتنزيلها، إلا أخبرتكم).

وإن المنصف ليجد في هذا القول تصريحاً واضحاً بالمعرفة الجلية التي لا يشوبها تردد ولا يعترئها ضعف أو اشتباه في بيان المعنى والدلالة لجميع الحثيات التي جاء على ذكرها الإمام في هذا القول، كيف لا وهو صاحب الملكة في زمّ أعنة اللغة ومعانيها، لتكون طوع قلبه ولسانه ليطبق المفصل بين الألفاظ ومعانيها مضافاً لما حياه الله به من أذن واعيّة وكفى بها من حبوة . والشواهد التي جاء البحث على ذكرها والتي كانت شواهد تطبيقية للتفسير في خطب وكتب ومقالات «نهج البلاغة» والتي تنوعت بين كشف المراد من آية وتفصيل مجمل، وبيان انصراف الإطلاق، وكشف المراد من خطاب العموم، وبيان المفهوم، وبيان المصداق، وتفسير آية بلفظ، وتفسير لفظ في آية، والجمع التفسيري بين مفهومين، وجري صدق مفهوم في آية وبيان الحد الدلالي للفظ، وبيان مصادر التشريع من تفسير آية وتفسير لفظتين في آية، تكشف عن اشتمال كتاب «نهج البلاغة» أداءً تفسيريًا ثراً يندرج تحت واحد من عناوين الشواهد التفسيرية الأنفة، يمكن الأخذ به واعتماده مصدراً للتفسير لما تقدم من ثبوت صحة نسبة ما في النهج الى الإمام .

خلاصة البحث

إن لكتاب «نهج البلاغة» أهمية كبرى في العلوم الشرعية وعلوم اللغة والعلوم التي تصب في خدمتها عموماً، وقد كان لعلوم الشريعة والعلوم المساعدة حيزاً كبيراً فيه، ولذا فهو منهل للباحثين في الحكمة، والأدب، والعرفان، وتفسير القرآن الكريم.

وقد امتاز كتاب «نهج البلاغة»: بوحدة الروح والمثل والأسلوب على اختلاف موضوعاته ومقاصده وفنونه في صور فنية رائعة تسمو بأرفع أساليب البلاغة والفصاحة. وقد ثبتت صحة نسبة ما مجموع في «نهج البلاغة» إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، إذ إن الكثير من نصوصه محكوم بالتواتر عنه،

وإذا ثبت صحة نسبة البعض، ثبت أن الجميع منه، لاتفاق جميع نصوصه في الأسلوب.

ثم إن كثيراً من خطب «نهج البلاغة» موجودة في مصادر شتى، قبل زمن الشريف الرضي، أما ما لم نقف اليوم على مصادره، فلا يعني أنه موضوع، لكثرة ما كان في متناوله من المصادر.

ولما اشتمله «نهج البلاغة» من الإخبار بالمغيبات وأسرار العلوم الواردة، بتلك الجزالة والقوة في السبك والدلالة، مما يبعد الشبهة واحتمال الوضع، فإن من دواعي اعتبار خبر الواحد الاعتبار بمتنه ودلالته.

وبعد ثبوت نسبة ما في «نهج البلاغة» من الخطب والكلمات إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الذي ألقيت على عاتقه مسؤوليات تفسير القرآن بعد النبي، يتضح أن الأداء الفكري والتطبيقي والتنظيري لتفسير القرآن، هو من ذلك النمير الرائق المتصل بالعلم الإلهي الذي أوحاه الله لرسوله الكريم، فقد ورد في نهج البلاغة جملة من تفسير الآيات والألفاظ القرآنية، بل يمكن الإفادة من بعض الشواهد أسساً تمثل قواعد أولية للجانب النظري في تفسير القرآن الكريم، وانتظم جملة من الدلالات التفسيرية التي يتلمسها الباحث في شواهد «نهج البلاغة» القرآنية، واضحة وجلية وقد أثبت البحث أن المفسرين قد استقوا موارد تفسيرية عديدة في مصنفاتهم التفسيرية، فمنهم من صرح بنسبة ذلك التفسير إلى الإمام علي في «نهج البلاغة»، ومنهم من اكتفى بذكر التفسير منسوباً إليه، مع أخذه للنص التفسري المثبت في «نهج البلاغة» من دون إشارة إلى المصدر، فضلاً عن ورود بعض النصوص التفسيرية المطابقة لما في «نهج البلاغة» المنسوبة للإمام، عند متقدمي المفسرين الذي سبقوا عصر جمع الشريف الرضي لنهج البلاغة، مما يزيد في اعتبار صحة نسبة النهج إلى أن أمير المؤمنين.

الدلالة الصوتية في نهج البلاغة

المدرس المساعد: رمة خضير مظلوم

الدلالة الصوتية

وهي الدلالة التي تعتمد على الأصوات في نغمها وجرسها^(١) وسماها ابن جني (ت ٣٩٢هـ) الدلالة اللفظية^(٢).

ومن أوائل من أشار إلى المناسبة بين اللفظ ومدلوله أو الصوت وما يدل عليه من علماء اللغة العربية هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) الذي رأى أن هناك اتفاقاً بين الصوت وما يدل عليه: ((صر الجندب صريراً، وهو صوته، وصرصر الاخطب صرصرة، فكأنهم توهموا في صوت الجندب مداء، وتوهموا في صوت الاخطب ترجيعاً))^(٣).

وبعد الخليل نجد سيبويه (ت ١٨٠هـ) يشير إلى هذه المناسبة بقوله: (أو قد يختارون كلمتين للمعنى نفسه ويغيرون الحرف منها بآخر مقارب له في المخرج مثال (الغليان والغثيان) فقد ناسب العرب بالصيغة وحركاتها واقع الفعل الذي يعبرون عنه وما فيه من حركة واضطراب)^(٤).

وأول من بوب الدلالة اللفظية ومثل لها ابن جني (ت ٣٩٢هـ) قال: (فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها، فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الإحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها. وذلك أكثر مما ن قدره، وأضعاف ما نستشعره)^(٥).

وممن عبر عن دقة هذه الدلالة السيوطي (ت ٩١١هـ) إذ يقول: (فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها وكيف فاوتت العرب هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة المعاني فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى، والأسهل والأهمس، لما هو ادني وأقل وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشد

(١) أنيس (إبراهيم أنيس)، دلالة الألفاظ : ٤٦ .

(٢) ابن جني ، الخصائص ، ٣٢٨/٢ .

(٣) الفراهيدي ، العين : ٥٦/١ .

(٤) سيبويه ، الكتاب : ٢١٨/٢ .

(٥) ابن جني، الخصائص : ٥٠٩/١ .

والأظهر، والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسا، ومن ذلك المد والمط فان فعل المط أقوى؛ لأنه مد وزيادة جذب، فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال^(١).

وقد امتاز البيان والتعبير الأدبي عند العرب بخصيصة جمالية يتوخاها الخطيب والشاعر في صياغة ألفاظه وقوة جرسها، حتى أنهم ميزوا هذا الحسن والقبح في نفس الحروف^(٢).

قال ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) في ذلك: (واعلم انه يجب على الناظم والناثر أن يتجنبنا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف)^(٣).

(ولما كان لكل صوت من أصوات الحروف طبيعته النغمية الخاصة به، فمن الطبيعي والحالة هذه أن ينسجم مع بعض الأصوات دون بعض؛ ولذا ان ترتيب حروف اللفظة الواحدة يجب أن يراعى فيه انسجام أصوات حروفها، ويكون بناؤها على هذا الأساس)^(٤).

وذهب الى مذهب هؤلاء في دلالة اللفظ كثير من المحدثين منهم العلايلي الذي عمل جدولا بمعاني الحروف العربية وحل من خلال هذه الحروف المفردة ألفاظا كثيرة^(٥)؛ ومثله فعل أمين الله ناصر الدين إذ رسم لنا تصورا عن الصوت وما يدل عليه مع النظر إلى ترتيب ذلك الصوت في الكلمة في كتابه (دقائق العربية)^(٦).

وعلى النقيض من هؤلاء نادى فريق باعتبارية الحدث اللساني وذلك بالقول بالمواضعة^(٧)؛ مما جعل بعض المعاصرين يرى: (إنه لا علاقة طبيعية بين

(١) السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها : ٥٣/١.
(٢) مبارك (زكي مبارك)، النثر الفني في القرن الرابع الهجري: ٦٤/١.
(٣) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٥٣/١ - ٢٥٤.
(٤) ناجي (مجيد عبد الحميد ناجي)، الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٤٩.
(٥) ظ: العلايلي (عبد الله العلايلي)، مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣ - ١١٤.
(٦) وغيرهم كثير منهم: الإنطكي في (الوجيز في فقه اللغة) وأحمد بن عيسى في (التهذيب في في أصول التعريب)، ومحمد مبارك في (فقه اللغة وخصائص العربية).
(٧) منهم من القدماء: أمين سنان الخفاجي في (سر الفصاحة) والجرجاني في (دلائل الإعجاز) والفخر الرازي في (التفسير الكبير)، ومنهم محدثين أشهرهم (دي سوسير).

الصوت في كلمة وما يدل عليه، وإنما هو عرفي، لذا اختلفت الكلمات أصواتا وكتابة بين لغات العالم^(١).

ولكن نحن نقول نعم قد لا تطبق هذه الدلالة على جميع الكلم وقد لا يسلم للفظه مدلولها الصوتي دائما لأنها لا تحد بالتعاريف التجريدية التي تحددها بها المعجمات كما يقول مراد كامل^(٢)، إلا أن الجانب الدلالي للأصوات لا يمكن نكرانه، وانه لم ينكره القدماء أو المحدثون، فقد أكدوا جميعا مشاركة الأصوات في تحقيق بعض المعاني فالأصوات مادة اللغة^(٣)، ونستطيع أن نقول في غير تردد إن للحرف في اللغة العربية إحياء خاصا؛ فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى؛ فإنه يدل دلالة إتجاه وإحياء ويثير في النفس جوا يهيئ لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحى به^(٤).

وقد حدد (اليوت) وظيفة الموسيقى في النص بأنها هي التي تمكن الألفاظ من تعدي عالم الوعي إلى العالم الذي يتجاوز حدود الوعي^(٥)، والموسيقى تلازم التعبير العاطفي، فإن إبتعد النثر عن روح العاطفة ضعف حظه الموسيقي^(٦).

(وهذه العاطفة التي يستحضرها حديثنا إنما هي عاطفة قوية شاملة لونت رسائل الإمام ولحنت فقراته على إيقاعاتها المهتاجة وانفعالاتها الحماسية التي لم تتوقف عند لغتها في التأثير وإنما تعدت ذلك إلى موضوعاتها وأبنيتها)^(٧).

والإمام كان شاعرا في رسائله وناظما في كتبه وفرّ لألفاظه عناصر إيقاعات عروضية وهيا فقراته قوالب وزنية^(٨)، والدلالة في الرسائل ممتدة عن الإمام لأنه المنشئ إلى الآخر (المتلقي) بما يحمل من موروث، ليستفيد منه المنشئ ويكون الرمز أو اللفظة إشارة محضة أو لفظا خاصا لإثارة مدلول أو شيء عند المتلقي على وفق التصور الذي يظنه وعاش فيه ويحسه وصولا إلى

(١) الداية (فايز الداية)، علم الدلالة العربي - النظرية والتطبيق- دراسة تاريخية تأصيلية نقدية: ١٩.

(٢) ظ: كامل (مراد كامل)، دلالة الألفاظ العربية: ٢٢، نقلا عن هلال (ماهر مهدي هلال)، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ٢٩١.

(٣) عكاشة (محمود عكاشة)، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: ٢٤.

(٤) المبارك (محمد المبارك)، فقه اللغة وخصائص العربية (دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الاصيل في التجديد والتوليد): ٢٦١.

(٥) النويهي (محمد النويهي)، قضية الشعر الجديد: ١٥/١.

(٦) مهدي علام وآخرين، النقد والبلاغة: ١٦/٢.

(٧) البصير (كامل حسن البصير)، رسائل الامام علي (عليه السلام): ٣٦٠.

(٨) م. ن: ٣٦٣.

الفكرة التي يريد إيصالها، وهذه الفكرة نفسية أو عقائدية في الصفات والأحكام.

وهناك أدوات عمد إليها الإمام في دلالاته، أكثر وضوحاً وهي الرموز (الألفاظ) والرموز التركيبية (الجملة)، والرموز السياقية وتتمثل في الجو النفسي والعاطفي والصوتي للنصوص اللفظية (المحاكاة الثانوية)^(١).

وبهذا ستكون دراستنا لدلالة الصوت في رسائل النهج على قسمين (الرموز المفردة)، و(الرموز التركيبية) متناولين في أثنائها الرموز السياقية:

١- دلالة الصوت في اللفظ المفرد: وهي أن يكون بين أصوات الألفاظ والموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف أو وحي إلى خاطر يصعب تحديده ولكنه محسوس. وهذه الخاصية ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة وتأثير أصواتها فيها.

٢- دلالة الصوت في التركيب: وهي التي ينظر فيها إلى الكلمات متتالية متعاقبة وهذا ما يعبر عنه بالانسجام. وهنا لا ينظر إلى الأصوات المقطعية ونوعها بل إلى تموجات الأصوات وإلى مقدارها من عدة جمل.

أولاً - دلالة الصوت في اللفظ المفرد:

إن للحرف دلالة ووظيفة في تكوين المعنى وتحديده في العربية أظهر وأوضح منها في اللغات الأخرى، فالحرف في العربية ذو قيمة دلالية بارزة، وإن استخراج هذه المعاني الكلية التي تقيد الحروف نحتاج إلى إحصاء شامل واستقصاء طويل^(٢).

أي إن لكل صوت دلالة خاصة، تحمل في طياتها شيئاً من المعنى العام للفظ وبهذا نجد الكلمات تختلف بعضها عن بعض في المعنى تبعاً لاختلاف أصواتها^(٣).

وللكلمات دلالات ترتبط على نحو وثيق بالسياق وعلاقاته فهو الذي يعطي الإضاءة للغرض والقصد^(٤).

(١) فرحان (علي فرحان) لغة الإمام علي (عليه السلام) دراسة وصفية: ١٩-٢٠.

(٢) المبارك (محمد المبارك)، فقه اللغة وخصائص العربية: ١٧٦.

(٣) آل ياسين (محمد حسين آل ياسين)، الأضداد في اللغة: ٢٧.

(٤) الداية (فايز الداية)، علم الدلالة العربي: ١٩٥.

وجاء انتقاء أمير المؤمنين وإختياره للألفاظ ذات الإيحاء النفسي، والموقع الخاص التي تخشع لها النفوس، ذلك إن كل لفظة قد ارتبطت بدلالة إيحائية خاصة عند الفرد، ومعرفة الإمام لهذه الدلالات حين جاءت مجتمعة بجمالها القصار، وكثرة حروف العطف في الموقف الواحد والمواقف المختلفة، والألفاظ ذات الجرس الصوتي مما جعل لواجهة الحدث الذي ينقله الإمام موقعا خاصا في الاعتبار والتدبر والفكر.

وسوف نقف عند طائفة مختارة من الألفاظ ونبين أثر الأصوات في دلالتها وما توحى به من أثر في المتلقي:

أ- جاح:

وجاء منه مصدر إفتعل (إجتاح) على (إفتعال) في لفظة (إجتياح)؛ إذ وردت هذه اللفظة في كتاب له الى معاوية: ((فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا وَاجْتِيَاحَ أَصْلَانَا وَهُمْوَا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ))^(١).

وحين النظر إلى هذه المفردة نجد إن دلالتها في معجمات اللغة (الاستئصال)، فالجوح الاستئصال، من الاجتياح، جاحتهم السنة جوحا وجياحة وأجاحتهم واجتاحتهم: استأصلت أموالهم، وهي تجوحهم جوحا وجياحة، وهي سنة جائحة: جدبة^(٢).

وقد استعملها الإمام مفضلا إياها على غيرها من المفردات المرادفة لها أو القريبة منها لأنه أراد التعبير عن معنى محدد لا تؤديه المفردات الأخرى، ذلك أنه أراد بها الدلالة على القوة والقسوة التي يمارسها قومهم من قريش للنبي وآله وصحبه أول البعثة.

وهذا ما أدته هذه المفردة بما تملكه من إيحاء بالقوة والقسوة، فيمكننا أن نجد تضافر طائفة من الإيحاءات التي تمنح هذه الكلمة تلك الدلالة، فعلى الرغم من أنها تبدأ بالهمزة فقد جاءت هنا همزة وصل وهي ؛ صويت ضعيف أسقط في هذا التشكيل؛ لذلك لانستطيع الاعتماد عليها في أضفاء قوة.

أمّا الجيم فهي صوت شديد مجهور من أصوات القلقل^(٣).

(١) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبحي الصالح): ٣٦٨/٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: باب التاء (جوح): ٤٠٩/٢.

(٣) السعمران (محمود السعمران)، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٦١.

ويرى باحث آخر إنه حرف مرقق لا يكاد يكتنف بأصوات التفخيم في الكلمة الواحدة إلا في بضع كلمات^(١).

والتاء صوت صامت مهموس سني انفجاري^(٢)، وهذا الانفجار الحاصل في مخرجي الجيم والتاء منح اللفظة صفة الشدة.

وكذلك فإن للكسرة اثرها المهم في الإيحاء للحدث إذ تضي عليه جوا من الحزن والانكسار والحسرة ويمكننا القول إن الكسرة هي المقابل الصوتي للانكسار^(٣)، وهناك شواهد كثيرة تدعم ذلك في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّالَّةُ وَالمَسْكُونَةُ﴾ (البقرة: ٦١) وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّالَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفُوا﴾ (آل عمران: ١١٢).

وعقبها المد في الياء فان ذلك يؤدي إلى انفتاح الفم انفتاحا افقيا إلى الدرجة التي هي أشبه بهياة المشمئز من الشيء ويزداد الاقتراب في الشبه بهذه الهيئة حينما ينتقل الفم فجأة من نطق التاء ذات الكسرة إلى الياء ذات الفتحة الطويلة (المد بالألف) مما يؤدي إلى انتقال الفم من الانفتاح الأفقي العرضي إلى الانفتاح الرأسي الطولي ليوحي بهذه الطريقة الإشارية المتولدة من نطق هذه اللفظة بدلالة النفور^(٤).

فضلا عما يضاعفه المد بالألف مما له من صفات العمق والجوفية والامتداد في مضاعفة الشعور بعمق الدلالة وإمتداد هذا المعنى إلى أغوار بعيدة. وتتبعث جمالية اللفظة وقوتها من الصوت الأخير فيها وهو صوت (الحاء) وهذا الصوت الحلقى المهموس الذي يمثل الحدة فالحاء هو الصوت الذي نصدره من حلوقنا حين نذوق شيئا لاذع الطعم حادا فننتحج محاولين أن نخفف من حدته ونحرر حلوقنا من لذعه^(٥).

(١) أنيس (إبراهيم أنيس)، الأصوات اللغوية: ٧١.

(٢) السعران (محمود السعران)، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٩١.

(٣) مزعل (كريم مزعل)، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: ٥٨ - ٥٩. وأهل اللغة يفرقون بين الذل والذل في المعنى، فمنهم من يجعل الذل بمعنى: اللين في الدابة خاصة، والذل بمعنى: الخسة والمهانة في الإنسان، لأن ما يلحق الإنسان أكثر قدراً مما يلحق الدابة فاختاروا الضمة لقوتها في الإنسان، والكسرة لضعفها للدابة. ظ: أبو البقاء الكفوي، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): ٤٦٢.

(٤) ظ: ابن جنبي، الخصائص: ٤٤/١.

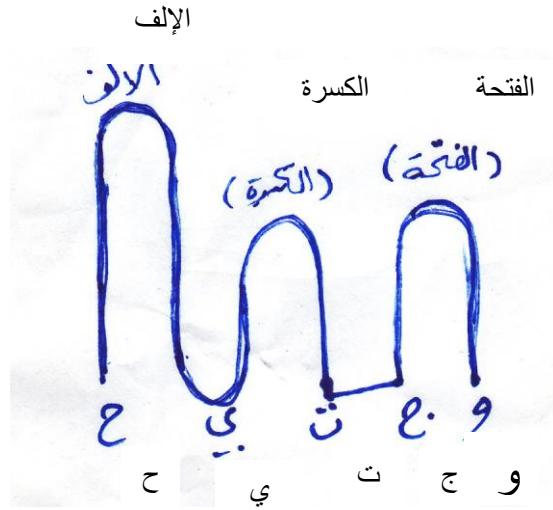
(٥) النويهي، (محمد النويهي)، الشعر الجاهلي: ٩٦.

أما إذا نظرنا إلى مقاطع الكلمة وجدناها ثلاثة:^(١)

و-ج / ات - ي ح

س ح س / س ح / س ح ح س

الأول متوسط مقفل (س ح س) والثاني قصير (س ح) والثالث طويل مغلق (س ح ح س).



وهكذا نجد إنها تتكون من ثلاثة مقاطع بثلاثة قمم من قمتين صائنتين قصيرتين وأخرى صائنة طويلة. ويقع النبر في هذه الكلمة على المقطع الأخير (س ح ح س) مما يزيد من بروز صوت الحاء ويعزز أثره وبذلك تصور هذه الكلمة مدى شجنه الذي يبلغ أقصى شكواه الحزينة .

ولكل هذا نجد أن الإمام قد برع في اختيار هذه اللفظة دون غيرها إذ وضعها في المحل الذي يتم ويكمل بها.

ب- كأد

وجاء من الفعل كأد صيغة المبالغة (كؤود) ووردت هذه اللفظة في وصية الإمام علي لابنه الحسن (عليهما السلام): ((واعلم أن أمامك عَقَبَةٌ كُؤوداً)) ويمكن أن

(١) ظ: حسان (تمام حسان) . على وفق ما جاء في (مناهج البحث اللغوي): ١٤١ .

نلاحظ في أصوات هذه المفردة ما يقارب دلالتها اللغوية فهي من كاد: تكأد الشيء: تكلفه وتكأدني الأمر شق علي؛ وفي حديث أبي الدرداء: إن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا يجوزها إلا الرجل المخف، والكؤود: المرتقى الصعب^(١).

وأصوات اللفظة تصور دلالتها فهي تبدأ بصوت الكاف الذي غالباً ما يرد في النص القرآني للتعبير عن الشدة والارتباط بكل ما هو حركي ذو جلبة وصخب^(٢) قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (الفجر/٢١) وقوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات: ٢٩).

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى﴾ (الملك: ٢٢).

انظر إلى الكاف كصوت متمكن في تصوير الحدث حيث الخطى المتعثرة فكما يقوم يقع وكما يمشي يتعثر.

يشارك في هذا ضيق مخرج الهواء عند التقاء أقصى اللسان بأقصى الحنك ثم انغلاق المخرج تماماً في نطق الصوت وما يصحب ذلك من انفجار^(٣) منح اللفظة صفة التعثر والصعوبة من الوهلة الأولى؛ يلي صوت الكاف (الهمزة) أشق الأصوات^(٤).

وكما أوضحنا من قبل إذ إن اغلب الأصوات تكون على مدرج اللسان والحلق؛ فالانتقال من صوت إلى آخر في مدارج اللسان أو الحلق أو اللهاة يكون أيسر بكثير مما يكون الانتقال من هذه المواقع إلى الحجر أو بالعكس^(٥).

ورافقت مشقة النطق بالهمزة، مشقة الحركة التي صاحبته (الضمة) والضمة هي أصعب الحركات وأقلها شيوعاً^(٦).

ثم تنقلنا اللفظة إلى صوت المد (الواو) وما تتركه صفة المد من إشباع الصوت وتطويله من دلالة تؤكد وتشد من الصعوبة. ولاسيما أن مخرج الواو

(١) ظ: ابن منظور، لسان العرب: باب الكاف، كاد: ٦/١٢.

(٢) مزعل (كريم مزعل)، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: ٥٤.

(٣) السعران (محمود السعران)، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٥٩.

(٤) أنيس (إبراهيم أنيس)، الأصوات اللغوية: ٧٨.

(٥) غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية: ١٩١ - ١٩٢.

(٦) ظ: هندواوي (عبد الحميد هندواوي)، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ٩٣.

ليس بأقل صعوبة في النطق من الكاف إذ يقترب أقصى اللسان من أقصى الحنك الأعلى فيضيق المخرج^(١).

ثم (الذال) التي تشترك مع صوت الكاف في الانفجار الحاصل في مخرجها إذ يلتقي في مخرجها طرف اللسان بإصول الثنايا العليا التقاء محكما^(٢) يتبعه انفصال فانفجار، ولصوت الذال دلالة على التصلب والتغيير المتوزع^(٣) وهو صوت المقاومة والشدة^(٤).

وصوتا الواو والذال من الأصوات المجهورة^(٥) وصفة الجهر هذه من الصفات القوية التي أضفت قوتها إلى قوة هذه اللفظة وبعد أصوات (الكاف والهمزة والواو والذال) أتت الحركة الاعرابية (تنوين النصب) فتطيل اللفظة وتثقلها.

واستعمل العرب هذه الدلالة في الجاهلية كثيراً منهم الأسود بن يعفر النهشلي^(٦).

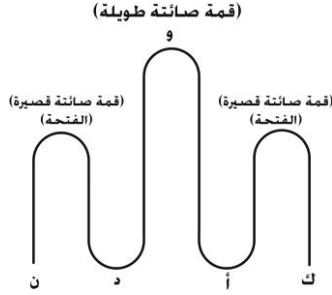
فلولا الشامتون أخذتُ حقي وإن كانت بمطلبه كؤودُ

و(كؤودا) تتألف من التحام المقاطع الآتية:

-
- (١) السعران (محمود السعران) علم اللغة: ١٨٠.
 - (٢) أنيس (إبراهيم أنيس) , الأصوات اللغوية: ٤٦.
 - (٣) ظ: العلايلي (عبد الله العلايلي) , مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.
 - (٤) عيسى (احمد بيك عيسى) , التهذيب في أصول التعريب: ٩.
 - (٥) أنيس (إبراهيم أنيس) , الأصوات اللغوية: ٧٨.
 - (٦) هو أبو نهشل الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي. شاعر جاهلي(٤-٢٣ ق.هـ) من سادات تميم من اهل العراق كان فصيحاً جواداً، نادم النعمان بن المنذر ولما اسن كف بصره ويقال له: أعشى بني نهشل.

ك / أ / د ن

س ح / س ح ح / س ح س



نلاحظ إن طول اللفظة منحها شيئا من التكلف. فهي تكونت من ثلاثة مقاطع الأول قصير (س ح) والثاني متوسط مفتوح (س ح ح) والثالث متوسط مغلق (س ح س) بثلاث قمم، وقع النبر فيها على المقطع الثاني (س ح ح) فاضاف لقوة الهمزة قوة وهذا المقطع (المتوسط المفتوح) بطبيعته يسمح بترجيع النغم^(١) وكأنه دلل على ترجيع عملية الصعود للمرتقى سدى.

وهذا الإيقاع الموسيقي للفظه بوصفها صورة ذهنية سمعية تعد من المنبهات في إثارة الانفعال المناسب في نفس المتلقي؛ فضلا عن دلالتها المعنوية هي ذات دلالة إيحائية تشع في النفس مناخا تخيليا خاصا يتماشى مع حركة النفس وذذببتها الشعورية وينسجم مع إيقاعات موسيقاها الداخلية وأنغامها^(٢).

وتأتي (كؤودا) متنسقة كمال الاتساق مع السياق الذي جاءت فيه، إذ جاءت في سياق التنبيه والتحذير لولده (عليه السلام) في أمور الدنيا والآخرة؛ فتلونت الالفاظ في هذه الوصية وأخذت أنماطا متنوعة في البناء، فكان الذي لا بد منه أن يأتي بلفظة شديدة قوية قادرة على حمل المعنى المتوقع منها، بحيث تبرز هذا البروز وتظهر هذا الظهور المتميز بين كل ألفاظ التوجيه والتنبيه الأخرى في الوصية.

وهذا الفرق من الأدوات الدلالية التي اعتمدها (عليه السلام) بشكل ملحوظ؛ أي استعمال الصيغة الرمزية لمعنى ما، فضلا عن المعنى المعجمي أو الهامشي

(١) النويهي (محمد النويهي)، الشعر الجاهلي (منهج في دراسته وتقويمه): ٥١/١ .

(٢) أنيس (إبراهيم أنيس)، دلالة الألفاظ: ٧٥.

(ظل المعنى) للفظه، فجاءت وقد شحنت بطاقة إيحائية تعبيرية، فأثارت فجوة ذهنية في الأنساق اللغوية^(١).

ج- (قرع، هلس):

ورد في كتاب له (عليه السلام) إلى معاوية ردا على كتابه، كثير من المفردات القوية ، فقد كان الكتاب كتاب تهديد ووعيد يظهر ذلك واضحا على استعماله الصوتية الرنانة المخيفة في أثناء الكتاب تصل إلى ذروة التعبير الصوتي ودقته. إلى أن توقفنا عبارة فيه تأسر الأسماع بقوتها وقدرتها الصوتية فما لنا إلا أن نبحت في سرها الصوتي النابع من ألفاظها: ((وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَوْ لَا بَعْضُ الْإِسْتِيقَاءِ؛ لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِثِّي قَوَارِعُ تَقْرَعِ الْعِظْمِ وَتَهْلِسُ اللَّحْمِ))^(٢).

فلننتبه إلى دقة التعبير في (تقرع العظم وتهلس اللحم) نجد أصوات كل من اللفظتين (تقرع) و(تهلس) توحى بإيحاءات تصور لنا صورة العقاب الذي يتوعد به (عليه السلام)، ولذلك سندرس كل لفظة منهما وإيحاءات أصواتها ودلالاتها:

ف(تقرع) في معجمات اللغة من (القاف والراء والعين) ومعظم الباب ضرب الشيء يقال: قرعت الشيء اقرعه: ضربته؛ ومقارعة الأبطال: ضرب بعضهم بعضا، والقارعة الشديدة من شدائد الدهر، سميت بذلك لأنها تقرع الناس: أي تضربهم بشدتها، والقارعة: القيامة: لأنها تضرب وتصيب الناس بإقراعها، قال تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١-٢).

وهذه الدلالة (ضرب الشيء) إنما جسدتها أصوات اللفظة فالقاف: ذلك الصوت الشديد المهموس^(٣)، الانفجاري الذي لا يشبه شدته في أصوات الحلق إلا الهمزة^(٤) دالا في أصوله على معنى الإصطدام والانفصال، يقتترن بحدوث صوت شديد تصوره القاف في انفجارها. ولصوت القاف صعوبة كما ذكرها لنا كمال بشر لتوقف الهواء تماما في مخرجه^(٥)، وجعل العلايلي القاف دالا على

(١) فرحان (علي فرحان)، لغة الإمام علي (عليه السلام) (دراسة وصفية): ٢٠.

(٢) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صباحي الصالح): ٤٦٣/٧٣.

(٣) أنيس (إبراهيم أنيس)، الأصوات اللغوية: ٧٥، السعران (محمود السعران)، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٥٦.

(٤) المبارك (محمد المبارك)، فقه اللغة وخصائص العربية: ١٠٤.

(٥) بشر (كمال بشر)، دراسات في علم اللغة: ١٧١.

المفاجأة التي تحدث صوتاً^(١)، وما هي إلا مفاجأة أول اصطدام العظم بالمقرعة.

ويليه الراء: الصوت المجهور اللثوي المكرر^(٢) لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر في النطق به كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقا لنا يسيرا مرتين أو ثلاثاً^(٣).

وفي هذا رمز واضح لتكرار عملية الضرب بالمقرعة.

أمّا العين: فصوت صامت مجهور حلقى احتكاكي^(٤)، فهو يصدر حفيفا أعلى الحنجرية.

وورد هذا الصوت في النص القرآني ليصور الحدث ويضفي عليه طابع العنف وشدة الفعل كما في (القارعة)^(٥)، وكأنه يريد أو يحاول ان يصور القرع والدق بالمقرعة لتسود الرهبة والهلع لمن يسمع هذا القرع.

كذلك أشار الخليل إلى جمالية جرس مثل هذه اللفظة بقوله: (العين والقاف فإنهما لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً ، فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حسن البناء لتصاعتهما)^(٦).

ودلالة صوت العين تتضح لنا أكثر عند مطالعة الشعر القديم وقراءته إذ نلاحظ كثرة ورود صوت العين رويًا لقصائد الرثاء.

وهو أمرٌ يلفتنا إلى ما في جرس العين من حرارة وتعبير عن الوجد والجزع والقرع والهلع فكلها تنتهي بالعين^(٧).

-
- (١) العلابي (عبد الله العلابي) ، مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.
 - (٢) ظ: ابن جني ، الخصائص: ٥١٣/١، والسعران (محمود السعران) ، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٧١.
 - (٣) أنيس (إبراهيم أنيس) ، الاصوات اللغوية: ٦٠، والسعران (محمود السعران) ، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٧١.
 - (٤) السعران (محمود السعران) ، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٧٨، ويراجع أنيس (إبراهيم أنيس) ، الاصوات اللغوية" ٧٧، فهو يراه (لا شديد ولا رخو).
 - (٥) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: ٤٠١.
 - (٦) الفراهيدي ، العين: ٧/١.
 - (٧) النويهي (محمد النويهي) ، الشعر الجاهلي: ٦٣.

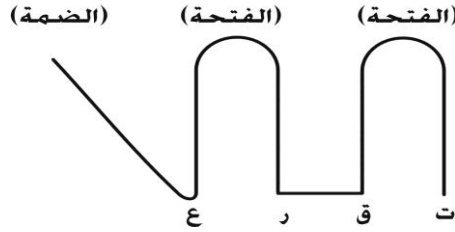
وتبدأ هذه اللفظة بمقطع متوسط مقل. هذا الذي يعمل على تأكيد الجرس الصوتي للحرف الساكن^(١) (القاف).

وتتكون المفردة من ثلاثة مقاطع:

ت ق ر / ع

س ح س / س ح / س ح

(قمة صائنة قصيرة)



مقاطعها قليلة وقمها ثلاث قصيرة (الحركات) وهذا أعطى اللفظة دلالة السرعة فلم يمد بصائت طويل ولم يكثر في مقاطع المفردة.

وهكذا فقد اتسمت أصوات هذه اللفظة في صفاتها ومخارجها وجرسها بما يتوافق مع هذه الشدة التي البسها إياها (عليه السلام) في وعيده، فضلا عن طبيعة مخارجها وتلائمها مع السعة في الشدة نتيجة شدة الأصوات وقوتها، وذكرها الشعر العربي في مواطن الشدة والسرعة فيقول عروة بن الورد:

فلولا الريح أسمع من بجرج صليل البيض تُقرع بالذُكور^(٢)

ويقول الطفيل الغنوي:

فَدَتْ حَوْلَ أَطْنَابِ الْبَيْوتِ وَسَوَّفَتْ مراداً وإن تُقرع عصا الحرب تُركب^(٣)

. (٣)

(١) م.ن: ٥١.

(٢) الورد (عروة بن الورد) ، الديوان: ١٥٩.

(٣) الغنوي (الطفيل الغنوي) ، الديوان: ٢٨.

أمّا لفظة (تهلس)، ففي أصواتها من الدلالات ما ينسجم ومعناها، فمادتها اللغوية: (الهاء واللام والسين) تدل على إخفاء شيء من كلام وغيره، ويقال: أهلس في الضحك: أخفاه^(١).

وأيضاً الهلس و الهلاس: شبه السلال، ورجل مهلوس وهلسه الداء يهلسه هلساً: خامره^(٢). أمّا المعنى الذي وضعت له في هذه الرسالة فهو الإذابة، إذابة اللحم وإنهاكة^(٣). وهذه العملية كما تبدو لا تحتاج لأصوات شديدة قوية كصنعة أصوات القرع، فاللحم غير العظم والكسر غير الإذابة.

فالهاء: صوت صامت مهموس حنجري، والهاء صوت النفس الخالص الذي لا يلقى مروره إعتراضاً في الفم^(٤).

وفي تباعد الوترين الصوتيين وما تؤديانه من انفراج واسع لمرور الهواء؛ دلالة الهدوء والتروي الذي تحتاجه في الوصول لأطول وقت ممكن تتم فيه عملية الهلس، لأجل الإيلاء والتعذيب أكثر، وإنما يدل صوت الهاء على تمكن المعنى تمكناً تظهر أعراضه^(٥).

و(اللام) صوت صامت مجهور سني منحرف جانبي، وفيه يعتمد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا، بحيث تنشأ عقبة في وسط الفم وبذلك تنفرج إحدى حافتي اللسان عن الأسنان العليا فيخرج الهواء من الانفراج ويسمى انفراجاً منحرفاً^(٦)، وهذا الانحراف في مخرج اللام كأنه يوحى بانحراف حركي يحدث في عملية الإذابة(الهلس)، وهذا الانحراف في مخرج اللام أبطأ من سرعة خروج الهواء بشكله الطبيعي في مخارج حروف أخرى.

أمّا السين: فصوت صامت مهموس لثوي احتكاكي^(٧)، وصفته الصفير نتيجة التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلى أو العليا بحيث يكون بين اللسان والثنايا

(١) ظ: ابن فارس معجم مقاييس اللغة، باب الهاء واللام وما يثلثهما: ٥٠/٦.

(٢) ظ: ابن منظور، لسان العرب: باب الهاء(هلس): ١١٤/١٥.

(٣) محمد عبده، في تحقيقه لنهج البلاغة: ٤٩٦. صبحي الصالح، في تحقيقه لنهج البلاغة:

٧٠٩.

(٤) ظ: السعمران (محمود السعمران)، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٧٨-١٧٩، النعيمي

(حسام النعيمي)، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: ٣٠٢.

(٥) ظ: العلايلي(عبد الله العلايلي)، مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.

(٦) السعمران (محمود السعمران)، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٦٣، إبراهيم أنيس: الأصوات

اللغوية: ٥٩.

(٧) م: ن: ١٧٥، والسين عند إبراهيم أنيس (رخو مهموس) في الأصوات اللغوية: ٦٧.

مجرى ضيق جدا يندفع خلاله الهواء فيحدث ذلك الصفير العالي^(١)، ويساعد في الصفير اقتراب الأسنان العليا من السفلى فلا يكون بينهما إلا منفذ ضيق جدا.

وهذا الجرس ذا الصفير العالي الذي نجده لحرف السين قد يصلح للتعبير عن أفكار وانفعالات مثل الحزن القوي والحسرة اللاذعة، ومن هنا وروده رويًا لكثير من القصائد القديمة في الحزن والتشاؤم^(٢).

ومن دلالات صوت السين السعة والبسطة من غير تخصيص^(٣) ويدخل فيه أيضا معنى الليونة والسهولة كما في الألفاظ (سهل، سلم، سلس...)^(٤).

إما مقاطع الكلمة فهي ذاتها مقاطع كلمة (تقرع):

ت ه / ل / س

س ح / س ح / س ح

ونلاحظ من هنا الانسجام الصوتي بين البنية الصوتية وطبيعة الحدث، فعملية الكسر لا تشبه الإذابة، فالكسر هو اصطدام وانفصال سريع يصيب العظم بسرعة وبشدة في الوقت نفسه، مما يتطلب اصواتا شديدة قارعة تقرع الأسماع فيذهل المتلقي وتنفّر نفسه، ولاسيما أن هذه الأصوات توظف في رسالة تهديد ووعيد أراد منها الإمام تأكيد هذه المعاني.

أما الهلس: (إذابة اللحم)، فلا يحتاج لهذه الصفة التي في أصوات القرع، بل تتطلب بعض الهدوء والاتساع والانحراف والأولى (القرع) تتطلب الشدة وقوة جرس الألفاظ لإثارة الألم وانفعال الرهبة والخوف، وهذا ما عبّرت عنه بدرجة من الانسجام تفوق التوقع.

فالكلام المصاغ فكريا يهدف لعلاج حالة معينة ومحددة للتأثير في الآخرين والولوج في نفسية الفرد والمجتمع بشكل يحقق غاية معينة، وهو ما رمى إليه الإمام (عليه السلام).

د- رقل ، وجف:

(١) م: ١٧٥.

(٢) النويهي (محمد النويهي) ، الشعر الجاهلي: ١٠١.

(٣) العلابي (عبد الله العلابي) ، مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.

(٤) المبارك (محمد المبارك) ، فقه اللغة وخصائص العربية: ١٠٤.

قد نجد للفظه في نص مزية قد لا نجدها لغيرها لو كانت في مكانها، فالفارق بين الكلام العلمي والإسلوب الأدبي ليس فرقا في الاستعمالات اللغوية فحسب بل في دقة تخير المعاني و ثم في دقة التعبير عنها وهذا ما أشار إليه الباحثون في النظم القرآني^(١).

مثال ذلك ما عبر الإمام به عن معنى الإسراع في لفظتين إحداهما جاءت في سياق التهديد والوعيد في رسالة إلى معاوية والأخرى في سياق الوعظ والإرشاد في وصيته للحسن (عليهما السلام).

ففي سياق التهديد: ((وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكُ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ))^(٢). والى ولده محذرا ((وإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ))^(٣).

والدلالة اللغوية لـ(مرقل) في معجمات اللغة نجدها عند رقل: (الراء والقاف واللام) أصلان أحدهما طول في الشيء والآخر ضرب من المشي ويهنا الأصل الثاني: ارقلت الناقة، وهو ضرب من المشي، وهي مرقل ولا يكون إلا بسرعة، وهاشم بن عتبة المرقال لإرقاله في الحروب^(٤).

وجاء بها (عليه السلام) هنا لتصور إسراع الجيش العظيم من المهاجرين والأنصار بقيادته (عليه السلام). وكان لأصوات هذه اللفظة الأثر الكبير في إيحائها. فصوت الميم بالرغم من كونه صوت غنة^(٥)، فإن من خصائصه أيضا الاستئصال والكسر والتوكيد والتشديد^(٦)، فهو من الأصوات الشديدة الجهر وغني بالقيم التعبيرية.

مثال ذلك (الحسم) أي: إزالة الشيء يقال: قطعه فحسمه، وبه سمي السيف حساما^(٧)، وهناك شواهد قرآنية كثيرة تؤكد ذلك قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ (الأنبياء: ١١) و: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ (النساء: ٤٧) و: ﴿فَدَمَّرْنَا مَا تَدْمِيرًا﴾ (الاسراء: ١٦) و: ﴿لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ (النحل: ١٨)

(١) ظ: الرافي (مصطفى صادق الرافعي) , إجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٢٤٩.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبيح الصالح): ٣٨٩/٢٨٨.

(٣) م: ٤٠١/٣١.

(٤) ظ: ابن فارس , معجم مقاييس اللغة: باب الراء والقاف وما يثلثهما: ٣١٦/٢.

(٥) سيبويه , الكتاب: ٤/٤٣٥.

(٦) ظ: عبد القادر (صالح سليم عبد القادر) , الدلالة الصوتية في اللغة العربية: ١١٦.

(٧) ظ: الأصفهاني , المفردات في غريب القرآن: ١١٨.

ثم انظر إلى البراعة في التوحيد بين خصائص اللفظ الصوتية وظلال معانيه ونبرات عاطفته فصوت الراء بتكريره يكاد يسمعنا صوت حوافر الخيل تضرب الأرض بقوة، ثم القاف بقوته وشدة موقعه الدال على الاصطدام فالقاف صوت انفجاري؛ اضعف له ما يتمتع به من قلقله؛ تلك الصفة التي تضيف إليه صوتا صائتا مركزيا ضعيفا^(١).

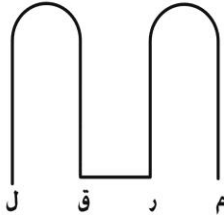
ويختم اللفظة صوت(اللام) الصوت المجهور الذي يتوسط بين الشدة والرخاوة يعمل اللسان في مخرجه على منع مرور الهواء من وسط الفم فيتسرب بكثرة وسرعة من جانبيه^(٢).

وهكذا نجد أن أصوات(الراء، والقاف، واللام) تتميز بصفات القوة فيلتحم القاف بقوته وشدة موقعه الدال على الاصطدام مع تكرير الراء وضربها وما توحيه من الكثرة والتزاحم نتيجة ذلك ، مع حفيف اللام في آخر اللفظة وتسرب الهواء من الجوانب بكثرة، ليكونوا لنا صورة جميلة معبرة عن إقدام الجيش في سرعة تقدمه وعظمة عدده.ولو نظرنا إلى مقاطع الكلمة وحدها بالوقف عليها:

م ر / ق ل

(قمة صائتة قصيرة) (قمة صائتة قصيرة)

(الكسرة) (الضمة)



س ح س / س ح س

فهي في الوقف متكونة من مقطعين متوسطين مقفلين (س ح س) وهذا المقطع وحده يسمح بتأكيد الجرس الصوتي للحرف الساكن^(٣)، وتكرر مرتين ليؤكد

(١) السعران (محمود السعران) علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٦٠-١٦١.

(٢) أنيس (ابراهيم أنيس) الأصوات اللغوية: ٥٩.

(٣) النويهي (محمد النويهي) الشعر الجاهلي: ٥١.

جرس الرءاء واللام. وتكررت هذه اللفظة في أشعار العرب لتدل على هذه السرة الموصوفة بقول طرفة بن العبد:

وإني لأمضي لهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي^(١)

فكل لفظه من ألفاظه (عليه السلام) لها روح وحياء وكيان خاص ورداء ترتديه لا يصلح لأخرى. ولفظة (مرقل) تلائم الغرض والسياق الذي حلت فيه مع الجيش العظيم بلفظة (جففل) الذي صور حاله مرقلا.

والآن لنقارن بين أصوات هذه اللفظة ولفظة أخرى ترادفها في المعنى لنعرف من إحياء أصواتها دلالة لا يمكن الوصول إليها في المعجم اللغوي فجاءت في وصيته لولده (عليهما السلام): ((وإيالك أن تُوجفَ بكَ مطاياَ الطمَعِ)) فالوجف: سرعة السير، وجف البعير والفرس يجف وجفا ووجيفا: أسرع^(٢) وقد تأتي بمعنى اضطرب^(٣) كما في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (النازعات/٤٦) أي مضطربة. وفي كلام الإمام جاءت بمعنى الإسراع، كلفظة (مرقل).

قال تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ (الحشر: ٢٤) (فأوجف) تتكون من صوت الواو بما فيه من الخفاء واللين والرقعة^(٤). وإنما هنا حرف مد يشعر بامتداد السير في تراخ، يلاحظ ذلك واضحا عند نطق الصوت، ويمكننا ملاحظة تكور الشفتين في أثناء النطق به. وهذه الحركة تشعرنا بإحياء هذا الصوت ودلالته على الخفاء والرقعة.

ولصوت الجيم هنا روحية مميزة لوصف الحدث (السرعة)، بالهدوء من خلال مخرجها؛ فعلى الرغم من كونها انفجارية وبذلك تدل على القوة وقولهم بأنها دالة على العظم مطلقا^(٥)، فإن ما لاحظناه في انفصال العضوين (وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى) الذي يكون أبطأ قليلا منه في حالة الأصوات الشديدة الأخرى ولهذا يمكن أن نسمي (الجيم) صوتا قليل الشدة^(٦) مما جعلنا نربط هذا

(١) طرفة بن العبد، الديوان: ٤٠

(٢) ظ: ابن منظور، لسان العرب: مادة: وجف: ٢٢٢/١٥.

(٣) ظ: الفيرو ابادي، القاموس المحيط: فصل الواو (وجف): ٢٤٥/٣.

(٤) ظ: ابن جني، الخصائص: ٣٦/١.

(٥) ظ: العلابي (عبد الله العلابي)، مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.

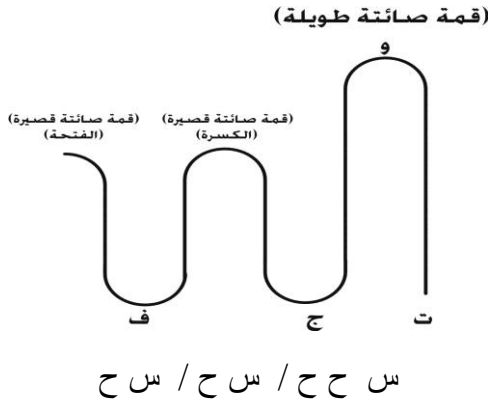
(٦) انيس (ابراهيم انيس)، الأصوات اللغوية: ٦٩.

الإبطاء في خروج الهواء بإبطاء السرعة، وهو إنما يناظر الوصف المقصود لدينا في السرعة التي من المؤكد هي ليست سرعة جيش مقبل.

أما صوت (الفاء) فصوت صامت مهموس يتكون بان تضغط الشفة السفلى على الأسنان العليا بحيث يسمح للهواء أن يشق طريقه بينهما وخلال الثنايا^(١)؛ تحقق لنا هذه الكيفية التي يخرج بها النفس من بين الثنايا وما تحتاج إليه من جهد في إخرجه من ناحية والضغط على المخرج من ناحية أخرى، إشارات بفعل الحدث أي السرعة.

وتتكون لفظة (توجف) من ثلاثة مقاطع الأول متوسط مفتوح والآخرين قصيرين .

ت / ج / ف



فالمقطع الأول (س ح ح) متوسط مفتوح، ينتهي بحركة ممدودة فيها إشباع موسيقي. يعزز رأينا في تقليل السرعة مقارنة بمركل. وأخيرا فان اجتماع دلالات الأصوات (الواو، الجيم، الفاء) بمعنى إن إسراع مطايا الطمع إنما جاء عن استدراج وسيطرة الطمع أولا على النفس البشرية التي لا تكون مباشرة بل فيها من اللين والخفاء الذي اشعرتنا به أصواتها.

فكذلك إن في سير (المطية) من المط ما لا يشبه ارقال الجيش العظيم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن لفظة (توجف) انسب وأدل في الموضع الذي وضعت له من صاحبها الأخرى التي هي أيضا وضعت في موضع لاتناسبه

(١) م.ن: ٤٤، ويرى السعمران انه صوت إحتكاكي , في علم اللغة: ١٧٣.

غيرها مثلها. ومستوى الكلام بهذه الطريقة يدل على عمق التحليل السابق والتفهم الأكيد لخلجات النفس وفي الأقل التعامل المتفهم والمتبادل بين ما يقال وما يؤثر وهو ما يدل على شرط التأثير النفسي بالإبداع البلاغي للكلمة المؤثرة^(١).

هـ شَقَقَ

وجاء مصدر شقق (شقاق) على فعال في كتاب أرسله إلى بعض أمراء جيشه؛ جاء فيه:

((وإن تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشَّقَاقِ وَالْعَصِيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ))^(٢).

وحين ننظر إلى هذه اللفظة في هذا النص الذي يصور توجيهها من توجيهات الإمام لأمراء جيشه حين تلتبس الأمور عليهم، إذ يصور فيه وقوع نوع من الفتنة من الشقاق والعصيان بين أفراد هذا الجيش؛ فبين من خلاله الطريقة التي يمكن أن يتعامل بها هذا القائد مع هذا الموقف، فكلمة (شقاق) تعني: غلبة العداوة والخلاف، شاقه مشاققة وشقاقا: خالفه وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (سورة الحج: ٥٣) والشقاق: العداوة بين فريقين والخلاف بين اثنين، سمي ذلك شقاقا لأن كل فريق من فرقتي العداوة قصد شقا أي ناحية غير شق صاحبه^(٣).

وإذا أردنا أن نحلل هذه المفردة ونبين طبيعة الأصوات التي تألفت منها نجد إنها تعبر تعبيرا دقيقا عن ذلك المعنى.

فالشين صوت رخو مهموس لثوي محنك^(٤) ذو صفير قليل له صفة التفشي إذ تتسع منطقة الهواء في الفم عند النطق به ولا يقتصر هواء النفس في تسربه إلى الخارج على مخرج الشين فحسب بل يتوزع في جنبات الفم، لذلك سمعنا الأعشى في شطره يقول^(٥):

شاوٍ مثلٌ شلولٍ شلشلٍ شول

(١) المحنك (هاشم حسين المحنك) ، علم النفس في نهج البلاغة: ١٥.

(٢) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صبحي الصالح): ٣٦٦/٤.

(٣) ظ: ابن منظور لسان العرب: باب الشين (شقق): ١٦٦/٧.

(٤) أنيس (ابراهيم أنيس) ، الأصوات اللغوية: ٦٨.

(٥) الأعشى ، الديوان: ١٤٤.

يستعمله للتعبير عن اختلاط مخارج الحروف في نطق السكران وعن سيحان حركات جسمه بعضها في بعض إذ يفقد السيطرة عليها^(١)، وعدم السيطرة تؤدي إلى البعثرة والتشتت كما حصل له.

ويبدل صوت الشين على التقشي بغير نظام^(٢)، وهو في أول الكلمة يدل على التفريق نحو (شنتت شملهم) أو شطر الشيء أي جعله قسمين أو شطي العود أي جعله شظايا^(٣).

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة لمعنى هذا الصوت: قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٧).

وفي حديث لرسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، يقول: ((افشوا السلام))^(٤)، أي انشروه وذيعوه. وصفة التقشي لصوت الشين وانتشار الهواء في مخرجه طغى على هذه اللفظة (الشقاق) ليرينا صور الخوف والتمزق والفرقة، وصفة الهمس لهذا الصوت أضفت إليه ضعفاً، فالمهموس: هو صوت أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه^(٥).

ويلى صوت الشين ، صوت (القاف) بقلقلته ووقعه بامتداد حرف المد الذي خلفه فعزز قرعه ثم تكرر قرعة القاف بعد المد مباشرة جعل اللفظة ذات قوة إسماعية عالية تؤثر في نفوس المتلقين. وكذلك الانتقال من صفة الهمس في الشين إلى الشدة في صوت القاف ثم إلى اللين في حرف المد ثم عودة الشدة مع عودة القاف.

هذا الانتقال في الصفات والمخارج جمع في اللفظة نصاعتها ودلالة التفرقة في أن واحد.

ومقاطع هذه المفردة ثلاثة:

- (١) النوبهي (محمد النوبهي) ، الشعر الجاهلي: ١٠٠.
- (٢) العلايلي (عبد الله العلايلي) ، مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.
- (٣) ظ: ابن جني ، الخصائص: ١/٥١٢-٥١٣، وأمين الله ناصر الدين ، دقائق العربية: ١٧.
- (٤) ظ: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٦٥.
- (٥) سيبويه ، الكتاب: ٤/٤٣٤.

ش / ق / اق

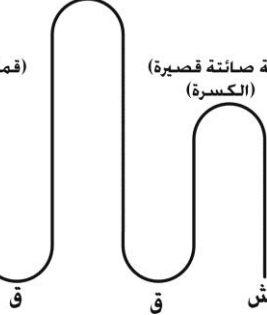
س ح / س ح ح / س ح

(قمة صائنة طويلة)

الألف

(قمة صائنة قصيرة)
(الكسرة)

(قمة صائنة قصيرة)
(الكسرة)



وظهر واضحا توظيف الإمام (عليه السلام) لصوت الشين في رسائله فانظر إلى دقة تصرفه في

اختيار الصوت واللفظة، فقد جاء في عهده لمالك الاشتر:

((فَأَيُّهُ أَيْسَرَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ وَتَشْتُّتِ آرَائِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ))^(١).

نلاحظ في هذا النص القدرة على استبدال المفردات في المعنى المطلوب إيصاله بحسب دلالة هذه المفردات فنجده (عليه السلام) عبّر مرة بـ(فرّق) وأخرى بـ(شتت) عن معنى الاختلاف وذلك إنما لدلالة واضحة اكسبها صوت الشين للفظـة(شتتت) من مضاعفة هذا الاختلاف والتفرق وشرطه.

فنحن نعرف إن أهواء الناس إذا تفرقت فسيكون لكل هواه لكن صاحب هذا الهوى الواحد هل سيكون له رأي واحد كهواه؟ هذا السؤال فلنسال أنفسنا به ؛ وسيكون الجواب بالطبع(كلا)؛ فصاحب الهوى الواحد له آراء متفرقة متنوعة تصدر عن الهوى نفسه ومن هنا نجد إن تعبير الإمام واختياره للفظتي (فرّق) و(شتتت) إنما جاء عن قصد وتمعن ومعرفة بمجرى الأمور.

وجاء في وصيته لجيش بعثه إلى العدو قال: ((وإياكم والتفرّق))^(١).

(١) نهج البلاغة، تحقيق الصالح(صبيح الصالح): ٤٤٢/٥٣.

إذ أنه لم ينههم عن (الشقاق أو التشتت) هنا أو أي لفظة أخرى تعني الاختلاف، بل اختار لفظة (التفرق) دون مرادفاتهما، فقال: إياكم والتفرق، ولم يقل: إياكم والشقاق، مثلاً، ذلك لأنه لا يريد لهم الوصول أبداً إلى مرحلة الشقاق المؤسفة من خلال نهيم وتحذيرهم من الوقوع في المرحلة الأدنى منها وهي (التفرق).. والله أعلم.

و- تتع:

جاء من الفعل تتع في الرسائل اسم الفاعل (متتع) التي وردت في عهده المشهور إلى أحد قواده؛ هو مالك الأشر: (حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ)^(١) يوصيه بذوي الحاجات من الأيتام والشيوخ وغيرهم ليمنحهم الأمان من جنده وأعدائه لدرجة يمكنهم التحدث فيها دون تعتة.

وإذا أردنا أن نستظهر دلالة هذه المفردة من المعجمات العربية نجد أن (تتع): الفأفة والتتعنة في الكلام: أن يعيا بكلامه ويتردد من حصر أو عي؛ وقد تتع في كلامه وتتعته العي^(٢).

ويبدو من بناء هذه المفردة أننا نستطيع أن نتلمس دلالتها التي تقدم ذكرها من تردد الأصوات التي تؤلف بنيتها وتكرار بعضها فالتاء تكررت ثلاث مرات والعين تكررت مرتين.

ونلاحظ إن الأصوات التي ألفت هذه المفردة ثلاث هي: (الميم والعين والتاء) لكنها إستطالت من خلال تكرار بعض الأصوات في بنائها.

وإذا أردنا أن نتلمس القيم التعبيرية لأصوات هذه المفردة نجد صوت الميم متصدر اللفظة قد اكسبها قدرة في تمثيل الحدث المقصود (التردد في الكلام) وذلك يحصل بملاحظة الشفتين في مخرج الصوت إذ تنطبق انطباقاً تاماً وهذه هي الحركة نفسها التي يظهرها الشخص المتردد في الكلام فهو يطبق شفثيه كثيراً مقرراً الصمت والتراجع عن كلامه ثم يعود للكلام فيحدث التلكؤ مرة أخرى وهكذا...

أما العين، فهي صوت حلقي مجهور^(١)، وهي من حروف الطلق عدها الخليل من أطلق الحروف واضخمها جرساً^(٢).

(١) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبي الصالح): ٣٧١/١١.

(٢) م.ن. ٤٣٩/٥٣.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: باب التاء (تتع): ٣٦/٢.

وجاءت في التعبير القرآني لوصف مواقف الفزع والهول وتصويرها والإشعار بذلك قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (الطور: ١٣).

وتختلف العين عن التاء في المخرج فالعين بُعد مخرجه (وسط الحلق) والتاء قُرب (طرف اللسان واصل الثنايا العليا).

والعين صوت مجهور أما التاء فمهموس، وهذا الاختلاف بين صوتي التاء والعين في هذا الذي ذكرناه وأيضاً تعاقب الصوتين في المفردة فهي تبدأ بالتاء فتتركه إلى العين فتعود إلى التاء فإلى العين - كل ذلك كأنه اكسب اللفظة معنى التغيير وعدم الاستقرار على حال. وهذا هو حال المتردد في الكلام. قال الشاعر:

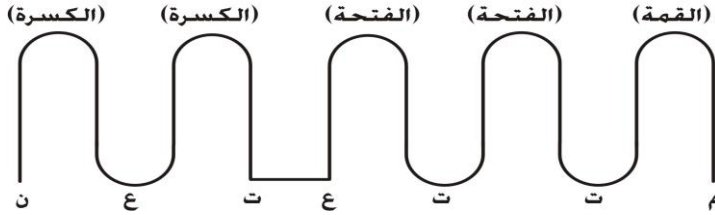
ومن الكبائر مَقُولٌ مُتَّعِعٌ جَمَّ التَّنْحِجُ مُتَّعِبٌ مَبْهُورٌ^(٣)

وهذه الألفاظ التي تكرر فيها الصوتان^(*) إنما هي الصوت الحاكي أو الصوت الموهوم الذي ذكره محمد الهادي ووصفه بالصوت المصور فالصوت الموهوم هو ما يكون رباعياً لا صلة له بثلاثي كالزعة والقلقة فهي جميعاً أصوات مصورة؛ إذ إنه يحاكي صوتاً موهوماً في اللغة^(٤)، إذن فإن هذه الأصوات الرباعية التي استعملت في النهج ودلت على صوت لم يرد بها الإمام إيجاد المناسبة التي تحاكي ذلك الصوت كما يفهم من القول السابق بل أريد بها تجسيد هذا الصوت وتجسيمه، لأنه (عليه السلام) أراد حركة هؤلاء المعنيين بالكلام واضطرابهم من خلال وصف حالهم للمتلقي لا تصوير صوتهم؛ هذا من جانب؛ ومن جانب آخر إن هذا الصوت لم يرد لذاته بل أريد الفعل منه واريده دلالة على الحدث وتحقق بزمن ما، وإن الفعل دال على الاضطراب؛ وعدم الاستقرار في حالة ما^(٥).

وتتكون هذه المفردة من خمسة مقاطع بخمس قمم وسبع قواعد.

-
- (١) أنيس (إبراهيم أنيس) ، الأصوات اللغوية: ٧٧.
(٢) ظ: مزعل (كريم مزعل) ، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: ٣٢.
(٣) بشر بن المعتمر، الديوان: ٢٥.
(*) وهناك الفاظ أخرى شبيهه بـ(متتعع) في رسائل الإمام منها (مضمضة) ٣٧١/١١ و(مهمم) ٤٣٣/٥٣ و(نهنه) ٤٥١/٦٢.
(٤) ظ: مبارك (محمد رضا مبارك)، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي: ١٩٩.
(٥) فرحان (علي فرحان) ، لغة الإمام علي (عليه السلام): ١٤٠.

م / ات / ت / ع / ا / ع / ن
 س ح / س ح / س ح / س ح / س ح / س ح / س ح
 (قمة صائتة قصيرة)



يتضح لنا من تقطيع هذه المفردة:

١- إن ترتيب المقاطع جاء بالتعاقب على الشكل الآتي: إذ تكرر المقطع الـ (قصير مفتوح س، ح) + (متوسط مقفل س ح س) + (قصير مفتوح س ح) + (متوسط مقفل س ح س) وهذا شبيه بتعاقب صوتي (التاء والعين) في اللفظة وكما ذكرنا قبل قليل في ذلك دلالة على التغيير وعدم الاستقرار نتيجة اضطراب أوحى به الصوت في المفردة ومقاطعها.

٢- تتكون المفردة من سبع قواعد وخمس قمم صائتة قصيرة (الحركات) وهذا يعني تكرار صعود الصوت وهبوطه بين القمة والقاعدة، مرارا وتكرارا، وإن يدلنا ذلك على شيء فهو زيادة تأكيد معنى التردد والاضطراب.

وهكذا اتضح لنا كيف نجح الإمام في تصوير الحدث باللفظة الأكثر دقة وانسجاما مع المعنى المراد.

وتجلى لنا البعد الصوتي الذي يشكل مناخا له القدرة على استفزاز الذائقة الجمالية وحثها على التوقف بإزاء هذه المظاهر الصوتية.

ز- (ضرس):

إذا كانت النصوص المبدعة والجيدة هي التي تكشف الستار عما كمن في الألفاظ من دلالات وإيحاءات وظلال معان بجرسها الموسيقي الناتج من انثلاف أصواتها؛ فإن نهج البلاغة هو من أبرز النصوص التي أتقن فيها استعمال اللفظة وما تحمله في طياتها من دلالات.

ولدينا هنا لفظة جديدة تكشف لنا عن دقة ذلك في كتاب أرسله إلى أهل
الأمصار قصّ لهم فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين: ((فَأَبَوا حَتَّى جَنَحَتِ
الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا وَحَمَشَتْ فَلَمَّا ضَرَسْنَا وَإِيَاهُمْ وَوَضَعَتْ
مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا
دَعَوْنَا))^(١).

في ضوء النص المتقدم تبرز من بين ألفاظه لفظة (ضرسنا) بجرسها المميز
من سائر الألفاظ في النص، وقد أكسبتها أصواتها ما يوحي بصلابتها وقوتها
والضرس: السن وهو مذكر مادام له هذا الاسم لأن الأسنان كلها إناث إلا
الأضراس والأنياب، والحروب تضرسه ضرسا، عضته وحرب ضروس:
أكل^(٢).

وهذا المعنى اللغوي تتضح معالمه من أصوات هذه المفردة فأول
أصواتها (الضاد) وهو صوت مجهور مطبق^(٣) ومن الأصوات المفخمة تفخيما
كليا وما يصاحب هذه العملية (تفخيم الصوت) من حدوث شيء من التوتر في
أعضاء النطق ولاسيما في أوردة الرقبة ويتصل بذلك أو ينتج عنه تعديل في
تجويف الفم والنطق بشدة أو قوة نسبية^(٤)، ومن هنا كان لتفخيم الضاد أثر في
التعبير عن ضراوة الحرب وفخامتها ويعزز هذا ما قاله صالح سليم في دلالة
هذا الصوت على الضجيج والضياح حين وقوعه أول الكلمة^(٥): (ضاج، ضجر،
ضجر، ضجّ، ضرب، ضلّ، الضوضاء، ضغط، وغير ذلك)، أما العلابلي
فيشعر بأنها دالة على الغلبة تحت الثقل^(٦).

ويليه صوت الراء الذي يتميز بصفة التكرير وكأنما يحكي طعنات الرماح
المتتابعة المتزايدة في الإيلام.

ووصف صوت الراء بأنه صوت الشيء المجرور المتحرك بشدة على
العموم^(٧) وهذا الوصف يلائم الغرض من اللفظة، وهذا التشديد على الراء زاد
زاد من جرجرتها. فقد استدل على أن الصوت المشدد في اللغة العربية

(١) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صبحي الصالح): ٤٤٨/٥٨.

(٢) ظ: ابن منظور، لسان العرب، باب الضاد (ضرس): ٥١، ٥٠/٨.

(٣) السعران (محمود السعران)، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي): ١٥٥.

(٤) بشر (كمال بشر)، دراسات في علم اللغة الغربية: ٢٠٧.

(٥) عبد القادر (صالح سليم عبد القادر)، الدلالة الصوتية في اللغة الغربية: ١١٥.

(٦) العلابلي (عبد الله العلابلي)، مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.

(٧) عيسى (أحمد بيك عيسى)، التهذيب في أصول التعريب: ٩.

صوتان لغويان متماثلان لا صوتا واحدا^(١) وقيل إن قوة اللفظ ينبغي أن يقابل بها قوة الفعل؛ وتكرير عين الفعل دليل على تكرير الفعل^(٢).

وإثر التشديد جاء على أساس أن الاختلاف في الكمية أي في مقدار قوة الحرف شدة وضعفا؛ يدل كذلك على اختلاف كمي في المعنى فوزن (ضرس) (فعل) يدل على الشدة والمبالغة^(٣) بمعنى أنهم زادوا قوة اللفظ بالتضعيف ليزداد المعنى قوة.

ونجح الإمام في استعمال هذه الخاصية والدلالة المعنوية لها في التصريح عما دمرته تلك الحرب.

أمّا السين: فهو صوت رخو مهموس^(٤) ذو الصفير العالي الذي يشعر بعملية السحق وما يصدر عنها من أصوات هي أشبه لصوت السين الذي تزامن مع صوت الراء قبله في اللفظة ذاتها.

ونلاحظ أهمية حركة الفكين في مخرج هذا الصوت في الإيحاء بالدلالة المرادة منها، إذ تقترب الأسنان العليا من الأسنان السفلى^(٥).

وحركة الأسنان هذه في نطق السين مشابهة لاصطكاك الأسنان؛ فرافق نطق اللفظة تمثيل كفيتهما عمليا، مما زاد في ولوج المعنى إلى القلب سريعا.

أمّا حرف التاء وما يملكه من خاصيتي الانفجار والهمس^(٦) دليل على الاضطراب في الطبيعة^(٧)، وجاء بعد ذلك الضمير (نا) المتكون من صوت النون الرنان صاحب النغمة الأكثر تصويرا للرنين ولهذا وضعت في الفعل (رنن)^(٨).

ليمتزج صوت الرنين الممتد مع حرف المد مع صوت الصفير السني مع تضخيم الضاد وجرجرة الراء مكونين ضجة عالية لهذه اللفظة أشبه بضجة هذه الحرب.

(١) ظ: محمد عبده , أبحاث في علم أصوات العربية: ٣٠.

(٢) ابن جني , الخصائص: ٥٠٧/١.

(٣) المبارك (محمد المبارك) فقه اللغة وخصائص العربية: ١٧٧-١٧٨.

(٤) السعران (محمود السعران) , علم اللغة (مقدمة للقرائ العربي): ٦٧.

(٥) من: ٦٦-٦٧.

(٦) أنيس, (إبراهيم أنيس), الأصوات اللغوية: ٥٦.

(٧) العلابي (عبد الله العلابي) , مقدمة لدرس لغة العرب: ١١٣-١١٤.

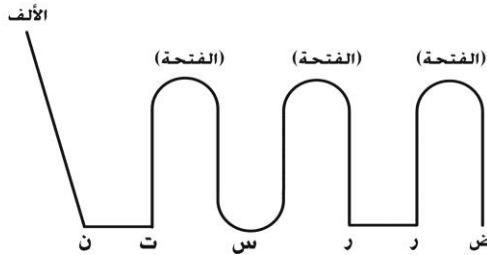
(٨) النويهي (محمد النويهي) , الشعر الجاهلي: ٩٢.

التي يصفها (عليه السلام) بمثل هذه الألفاظ قاذفا الرعب في أسماع متلقيها. ولا يفوتنا أن ننبه على طول لفظة ضرستنا، الذي منح اللفظة شيئا من الصعوبة، والإحساس بصعوبة في النطق يقابله إحساس بصعوبة الموقف الحربي الذي وصفه (عليه السلام).

ض ر ر / س ت / ان

س ح س / س ح / س ح / س ح ح

(قمة صائتة طويلة)



فهي متكونة من أربعة مقاطع بست قواعد وأربع قمم آخرها قمة صائتة طويلة. وهذه اللفظة استعملها الشعراء العرب في الدلالة على ضراوة الحرب قال زهير بن أبي سلمى^(١):

خُدُوا حَظَكُمْ مِنْ وُدِّنا إِنْ حَرَبْنَا إِذَا ضَرَّسْتِنا الحَرْبُ نارٌ تُسَعِّرُ

ولذلك الذي عرفناه عن دلالة أصوات هذه اللفظة بالذات عن غيرها (عضتنا - داستنا - سحقتنا وغيرها) جعلها تتخذ هذا الموضع في وصف الإمام لقسوة تلك الحرب (حرب صفين) ولم يضع موضعها أخرى لما عبرت عنه إحياءاتها بدقة فهو يجعل الحرب كالكاسر المفترس ولذلك عطف عليها فجاء بـ(المخالب)^(١).

ثانيا - دلالة الصوت في التركيب:

بقدر ما تفيد الدلالة الصوتية إحياء معنى اللفظة مفردة، نجد الألفاظ تكتسب دلالة يوحيها السياق المنظومة فيه، قال كثير:

(١) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ٣١.

(٢) السامرائي (إبراهيم السامرائي)، مع نهج البلاغة: ٢٤٠.

أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة إينا ولا مقلية إن ثقلت^(١)

وقال العلماء: لو قال هذا البيت في وصف الدنيا لكان أشعر الناس^(٢).

إن لكل من التركيب الخاص بكل لفظة وبنيتها وجرسها، وما تحمله من دلالة إيحائية، دخلا في جمالها وتقبل النفس لها، ومن ثم في إنجاز النص ومنحه فعالية أكبر وقدرة أقوى على التأثير والإثارة، وإن في حسن تأليفها وصياغتها مع أخواتها في الجملة من الكلام، ما يزيد النص حلاوة ويضاعف من قدرته على التأثير والإثارة ومن حيويته وفعاليته. وقد إنتفت البلاغيون إلى ذلك، وإن اختلفوا في مقدار العناية التي أولوها كلاً من الجانبين^(٣).

فالألفاظ المفردة تفرع الألفاظ المفردة المجاورة لها سابقا ولاحقا وينجم عن تناسق تقارعها سلام موسيقية جميلة^(٤)، وللجاحظ(ت٢٥٥هـ) إشارة إلى أهمية التوافق بين الألفاظ؛ يقول:(فإذا لم يكن موقع الكلمة إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان صعبا على اللسان إنشاده، ذلك الشعر، وأما إذا توافقت الألفاظ في نظمها واتسقت جرت على اللسان كما يجري الدهان)^(٥).

وإن ارتباط الألفاظ بعضها ببعض واتساقها يخلق إيقاعا عاما وجوا موسيقيا يعد من أهم المنبهات المثيرة للانفعالات الخاصة المناسبة، ويجعل لها إيحاءاً نفسيا خاصا لدى المتلقي^(٦)، وعدّ أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ) الألحان الشعرية أوعية للشحنات الشعرية الوجدانية^(٧).

فإنه من الأصول المعتمد عليها في تأليف الكلام من النظم والنثر؛ اختيار الألفاظ المفردة ومن ثم نظم كل كلمة مع ما يشاكلها، قال ابن الأثير(ت٦٣٧هـ) في ذلك:(لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها)^(٨).

(١) كثير عزة ، الديوان : ٨٠.

(٢) هلال (ماهر هلال) ، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ٢٩٧-

٢٩٨.

(٣) ناجي (مجيد عبد الحميد ناجي) ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٧٣.

(٤) عاصي (ميشال عاصي) ، الفن والأدب (بحث في الجماليات والأنواع الأدبية): ١٢٢.

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين: ٦٦.

(٦) ناجي (مجيد عبد الحميد ناجي) ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٤١.

(٧) ظ: العسكري ، الصناعتين : ٢٧٠.

(٨) ابن الأثير ، المثل السائر: ٢١٠/١.

ولما كان الأمر كذلك؛ أي لما كان الإيقاع المتوازن المنسجم يشد النفس إليه ويشوقها ويجعلها أكثر قبولا للفن القولي المتوفر عليه عن طريق خلق جو نفسي موسيقي تنساب معه النفس وتشعر بالراحة والطرب.

ولما كان قادرا على تنظيم حركتها الشعرية على وفق ذبذبات إيقاعه فمن الطبيعي إذن أن يكون الفن القولي الموقع أسهل حفظا وأثبت في الذهن من غيره^(١).

وتتسم رسائل الإمام (عليه السلام) بجو موسيقي رائع وانسجام جميل بين الكلمات والفقرات نابعا من ذوق الإمام ودقته في اختيار الألفاظ وترتيبها مستعملا في ذلك أجمل الفنون القولية من تكرر وجناس وسجع وطباق ومقابلات وغير ذلك مما سنوضح في هذا المقام. وكذلك فإن هذه الرسائل تزدهم فيها الأفكار المعبرة عن كثير من المعاني ولكنها غير طاغية على العاطفة.

ونحن حين نطالع رسائله (عليه السلام)، نجد تأثرا واضحا بالأسلوب القرآني حتى في جرسه وإيقاعه الموسيقي. وإن تأثير أسلوب القرآن وجرسه وإيقاعه الموسيقي يحتاج في الواقع إلى استعداد وجداني لاستقباله أو بعبارة أخرى إلى تحسس ذاتي ويقظة وجدانية لادراكه، ومن هنا فإن الذين تأثروا به لا بد أنهم كانوا يملكون قدرا وافيا من هذا التحسس^(٢).

ولإظهار البراعة الصوتية وإبراز فنون التركيب الصوتي ودلالاتها في رسائل الإمام اخترنا أن نقسم الرسائل بحسب الأغراض الأبرز فيها دارسين ومحللين ما جاء فيها من دلالات صوتية سخرها الإمام لخدمة أغراضه:

أ - الزهد:

اهتم الإمام (عليه السلام) ببناء الشخصية الإنسانية السليمة والتوجه بمحتواها الايجابي القويم؛ هو المؤشر الأسمى لاستقامة الإنسان السوي لبناء الشخصية المعتدلة البعيدة عن التعصب والانحراف، لذا تكون مخاطبة الألباب جزءا من متابعة الأفعال والانفعال وظروفه والسيطرة على السلوك وفقا للسبل الإنسانية الواعية^(٣)، وفي مخاطبته (عليه السلام) للألباب كان يؤكد دائما أهمية تدارك

(١) ناجي (مجيد عبد الحميد ناجي) ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٦٤.

(٢) الزيدي (كاسد الزيدي) ، الجرس والإيقاع في تعبير القرآن الكريم: ٣٣٠.

(٣) المحنك (هاشم حسين ناصر المحنك) ، علم النفس في نهج البلاغة: ٨٢.

الحال والزهد بالمال وكل ما يغري الإنسان من مفاتن الحياة. والزهد من الأغراض الواضحة في رسائله (عليه السلام)، قال عنه الرضي (ت ٤٠٦ هـ): (ومن عجائبه عليه السلام التي انفرد بها وأمن المشاركة فيها، أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواج إذا تأمله المتأمل وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله، ممن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه من كلام من لاحظ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة)^(١).

ونجد في دراستنا لهذا الغرض ظواهر صوتية وتنغيمية متنوعة منها في هذا النص: ((مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ الْمُقَرِّ لِلزَّمَانِ الْمُدْبِرِ لِلْعُمُرِ الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ؛ الذَّامِ لِلدُّنْيَا؛ السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتَى وَالطَّاعِنِ عَنْهَا عَدَا إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤْمَلِ مَا لَا يُدْرِكُ))^(٢).

وردت معاني الزهد هذه في وصيته لولده الحسن (عليهما السلام) يبين له فيها حقيقة الحياة الفانية. نلاحظ في هذا النص سيادة واضحة لحرف الميم الذي تكرر أربع عشرة مرة في (من، المقر، الزمان، المدبر، العمر، المستسلم، الذام، مساكن، الموتى، المولود، المؤمل، ما).

وأسبغ تكراره هذا بين الألفاظ الواردة في النص جوا هادئا حزينا مشعرا بالمرارة؛ ففي صوت الميم غنة ارتفعت على الدلالات الأخرى في صوت الميم معززة الصمت والهدوء الذي جاء ملازما لمعاني الألفاظ ودلالاتها الواردة في النص أمثلة: (الفاني، المستسلم، الموتى، المدبر، الذام، الطاعن) هذه كلها ألفاظ حزينة تدل على ما يشبه النهاية التي سبقت البداية فأراد منها الإمام أن يشعر ولده الذي لم يبدأ حياته بعد بأنها حياة رخيصة مؤلمة ما أسرع أن تنتهي ويصمت كل ما فيها ويستسلم لنهايته.

ونجد في العبارتين (من الوالد الفان)، (المقر للزمان)، توازنا إيقاعيا والتزام القافية حتى أن ضرورة عنصر القافية على هذا الشكل حملته الى مخالفة قواعد الصرف والقياس، فقد حذف الياء من (الفاني) الاسم المنقوص ليزواج بينه وبين (الزمان) قافيتين لعبارة^(٣).

(١) محمد عبده، في مقدمة تحقيقه لنهج البلاغة: ١٧-١٨.
(٢) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبيح الصالح): ٣٩١/٣١.
(٣) البصير (كامل حسن البصير)، رسائل الإمام علي (عليه السلام): ٣٧٣-٣٧٤.

ثم أننا إذا تابعنا نجد نظام التقفية يسير في ثنائية جميلة أي أن (الفان) و (الزمان) قافية النون ثم قافية الراء في: (المدير للعمر)، (المستسلم للدهر) في (العمر) و(الدهر) ثم قافية الألف في: (الذام للدنيا) (الساكن في مساكن الموتى) في (الدنيا والموتى) وهذا النظام في اختيار القافية منح النص إيقاعية هادئة تهيئ المتلقي لقبول ما ورد فيه من معان.

ومما حسن هذه الإيقاعية وجود نوع من التوازن التركيبي في الفقرات:

المقر للزمان .

المستسلم للدهر .

الذام للدنيا .

نجد إن كلا منها قد تكون من (اسم فاعل + اسم مجرور بحرف الجر(اللام)).

وجاء في كتاب له(عليه السلام) إلى معاوية: ((وَ كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجْتَ بِزِينَتِهَا وَخَدَعْتَ بِلَدَّتِهَا دَعَاكَ فَأَجَبْتَهَا وَ قَادَتِكَ فَأَتْبَعْتَهَا وَأَمْرَتِكَ فَأَطَعْتَهَا))⁽¹⁾.

تكرر في هذا النص المقطع الصوتي (ها)(س ح ح) بما فيه من مد لصوت الهاء المهموس (زينتها.. لذتها.. أجبته.. اتبعته.. أطعتها) فخرج النفس في مخرج الهاء يكون يسيرا ويسمح بمروره مكثفا، وكأنه يوهن المتلقي ويشعره بعمق الخسارة وغورها وكأنه يتنهد على ما فاته فيحزن ويتأكل قلبه على غلبة الحياة له وهكذا نجد إن صوت الهاء مكن النص من السيطرة على أفئدة المتلقين محاولا إنقاذهم من هذا الغرق المفاجئ بتذكيرهم ليأخذوا أهبة الاستعداد لهذه الدنيا والحذر منها.

ومنحت تاء التأنيث الساكنة المهموسة أيضا النص مزيدا من السكون والركون في: (تكشفت، تبهجت، خدعت، دعتك، قادتك، أمرتك) وكأنه يمنح المتلقي فرصة التفكير والتدبر فيما يطرق أسماعه وفي نص آخر: ((يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَزَوَالِهَا وَانْقِيَالِهَا وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعَدُّ لِأَهْلِهَا فِيهَا وَضُرْبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتُحَذِرَ عَلَيْهَا، إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيْبًا وَجَنَابًا مَرِيْعًا، فَاحْتَمَلُوا وَعَتَاءَ الطَّرِيقِ؛ وَفَرَّاقَ الصَّدِيقِ؛ وَخُسُوْنَةَ السَّفَرِ، وَجُسُوْبَةَ

(1) نهج البلاغة بتحقيق الصالح(صحي الصالح): ٣٦٩/١٠ .

المَطْعَم؛ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ؛ وَمَنْزَلَ قَرَارِهِمْ؛ فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْمًا؛
وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَعْرَمًا؛ وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ؛ وَأَدْنَاهُمْ
مِنْ مَحَلَّتِهِمْ))^(١).

كذلك نلاحظ إن النص مبني على الجمل القصار فضلا عما فيها من تجاورات
سجعية أضفت على النص ايقاعا جميلا فمن هذه السجعات:

← فاحتلموا وعثاء الطريق وفراق الصديق.

← ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم.

← فليس يجدون لشيء من ذلك ألما ولا يرون نفقة فيه مغرما.

← قريتهم من منزلهم وأدناهم من محلتهم.

فضلا عما يملكه النص من جناسات هي من الجنس الناقص:

← الطريق الصديق.

← خشونة جشوبة.

ففي هذا النص نجد ظاهرة ازدواج (السجع والجناس) وهذا ما لاحظناه
في معظم النصوص، فالجناس يعاضده السجع للوصول إلى إيقاعية تنغيمية
أشبه بإيقاعية الشعر، ولهذه المزوجة بين (السجع والجناس) مكانة مهمة في
اتساق الخطاب الذي ينطوي عليه نهج البلاغة وتعد إحدى المهيمنات الإسلوبية
على مستوى الصوت.

وأنظر إلى هذه الثنائيات الموسيقية:

منزلا خصيبا.... وجنابا مريعا.

وعثاء الطريق.... وفراق الصديق.

خشونة السفر.... وجشوبة المطعم.

سعة دراهم.... ومنزل قرارهم.

(١) نهج البلاغة , تحقيق الصالح (صبي الصالح): ٣١/٣٩٦-٣٩٧.

فليس يجدون لشيء من ذلك أما.... ولا يرون نفقة فيه مغرما.
قربهم من منزلهم.... وأدناهم من محلتهم.

فهي تعتمد على أجزاء متقاربة البنية التركيبية وبنظام صوتي ذي نهاية واحدة مع اختلاف في المعنى ومقاربة في الصيغ البنيوية مثل (خصيبا ومريعا) (الطريق والصديق) (دارهم وقرارهم) (قربهم وأدناهم) (منزلهم ومحلتهم)، وهذا المناخ التنغمي المرصع بتكرار السجع يضمن انسيابية الصوت وملائمتها للغرض الذي وضعت لأجله، فهذا البناء النصي يبعث في النفس الثقة والاستقرار النفسي ويهيئ الأذهان لاستقبال الكلام.

فمن شأن هذا التوازن الإيقاعي ان تنظيم حركة النفس الشعورية على وفق ذبذبات إيقاعه فمن الطبيعي أن يكون ذلك الفن القولي الموقع أسهل حفظا واثبت في الذهن من غيره وهذا النوع من الموازنة سمي بـ(فن الترصيع) عرفه المدني (ت ١٢٠هـ): (هو أن يقابل النائر والناظم كل لفظة من الفقرة الأولى أو صدر البيت، بلفظة مثلها وزنا وتقفية في الفقرة الأخرى وعجز البيت، وهو مأخوذ من ترصيع العقد، وذلك بأن يكون في احد جانبيه من الجواهر مثل ما في الجانب الأخر)^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الصافات: ١١٧-١١٨)؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣-١٤).

وورد في النص منه كثير:

ما كنزت من دنياكم تبرا.

ولا ادخرت من غنائمها وفرا.

ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا.

ولا حزت من أرضها شيرا.

(١) المدني : أنوار الربيع: ١٦٢/٦.

فما أجمل هذه الموازنة وأرقها، فهي متقابلة في كل شيء من التركيب (أداة نفي + فعل ماض + تاء الفاعل + حرف جر + الاسم المجرور بحرف الجر وهو مضاف + المضاف إليه + المفعول به).

ومتقابلة في موسيقاها، فكل لفظة من ألفاظ الفقرة الأولى توازن ما يقابلها في الفقرات الأخرى، وكذلك اتفقت هذه الجمل في الحرف الأخير منها، فهي متوازنة تركيباً ومسجعة ومرسعة، ويخدم هذا الإيقاع وتوافق الأصوات والقافية غاية واحدة هي فتح أبواب الكلمة ونوافذها على مصراعيتها وإدخال القارئ في أعماقها^(١).

وتميل هذه الجمل في إيقاعها لبحر الطويل:

ولا أدخرت من غنائمها وفرا = فعو مفاعلن فعول مفاعيلن

وتشبه الجمل الأخرى هذا الوزن ببعض زيادة أو نقصان، ونحن نعلم أن في بحر الطويل بهاء وقوة فهو بإيقاعه البطيء الهادئ نسبياً يلائم العاطفة المعتدلة الممتزجة بقدر من التفكير والتملي، سواء أكانت حزناً هادئاً لا صراخ فيه أم كانت سروراً هادئاً لا صخب فيه^(٢).

ومن المحسنات اللفظية التي استخدمها علماء البلاغة قديماً وحديثاً وتحت مسميات مختلفة، كالالتزام، والإعانة، والتضييق، والتشديد، ولزوم ما يلزم، وهذا الأخير هو المشهور والأكثر استعمالاً عند علماء البلاغة^(٣).

وهو: (أن تجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع)^(٤). ويرد منه في الرسالة:

وهذا الشخص المعكوس والجسم المركوس.

ألا وإن الشجرة البرية أصلب عودا.

والروائع الخضرة أرق جلودا.

والنباتات البدوية أقوى وقودا.

(١) شرارة (حياة شرارة)، الأفكار والأسلوب (دراسة الفن الروائي ولغته): ٥٣.

(٢) النويهي (محمد النويهي)، الشعر الجاهلي: ٦١.

(٣) مطلوب (احمد مطلوب)، معجم المصطلحات البلاغية: ٢٩٤/١.

(٤) القرويني، الإيضاح: ٣٩٩/٢.

وأبطأ خمودا.

ففي (المعكوس، والمركوس) لزوم ما لا يلزم في التزام الكاف والواو قبل السين. والتزام الواو قبل الدال في (عودا- جلودا - وقودا - خمودا).

وجاء في القرآن الكريم منه كثير قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى: ٩-١٠)؛ في التزام الهاء قبل الراء في (تقهر، وتنهـر).

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرَ إِذَا آتَسَقَ ﴾ (الانشقاق: ١٧-١٨) ، في التزام السين قبل القاف، في (وسق، واتسق).

ب - الوعيد والتهديد:

لقد بعث الله الأنبياء (عليهم السلام) ليبشروا المطيعين ولينذروا المفسدين، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢١٣).

وقد جاءت بعثة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله سلم) في هذا السياق أيضا، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥).

وهناك آيات كثيرة تدل على حصر الرسالة في الانذار والتخويف: قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (هود: ١٢).

و: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الشعراء: ١١٥).

و: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦).

وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) إنما هو وارث رسول الله وخليفته وحامل رسالته بعده، فليس غريبا أن نجده يستعمل في رسائله أسلوب الوعيد والتهديد منذرا ومحذرا من أجل خدمة الدين والأمة.

وكثيرا ما نلاحظ حدة وحرقة في كلامه وكانت هذه الحدة طبيعية في كلماته؛ فإن ما تخلل حياته من الأحداث المرّة؛ ألهب مشاعره وأثار عواطفه^(١). وهنا يأتي دورنا في تتبع أثر الصوت في إضفاء روح الشدة والقوة على الألفاظ، فنطلع على كتاب له أرسله إلى معاوية. ((فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضُجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا

(١) ظ: الصالح (صبحي الصالح). في تحقيقه لكتاب نهج البلاغة: ١٠.

عَضَّتْكَ ضَجِيحَ الْجَمَالِ بِالْأَثْقَالِ وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعًا مِنَ الضَّرْبِ
الْمُتَّبَعِ وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَهِيَ كَافِرَةٌ
جَاحِدَةٌ أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ))^(١).

فقد تكررت في هذا النص الأصوات القوية التي تدل على الشدة والعقاب
نتيجة موقعها المتكرر وجرسها الضارب على أبعاد الألفاظ، فصوت العين
تكرر هنا عشر مرات، أما صوت الجيم فتكرر سبع مرات، وكذلك الضاد
تكررت خمس مرات أما صوت القاف فتلاث مرات.

ثم أن الألفاظ التي تعاونت في بناء هذا النص إنما هي ألفاظ قوية جزلة
أمثلتها: (تضج، عضتْكَ، ضجيج، جزعا، الواقع، مصارع).

فنتج عن علاقة كل لفظة بما يجاورها نسجا مخبرا عن أمر مفزع وقضاء واقع
وكانها أصوات جعجة السلاح وجدح السيوف.

وإن ترديد الحرف الواحد له قيمة تنغيمية ذات وظيفة عضوية في أداء الفكرة
والعاطفة، وهي وسيلة شعرية، وجدنا عبد الله الطيب المجذوب في
كتابه (المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها) يعطي عددا من الأمثلة الجيدة
على هذه الوسيلة الشعرية التصويرية^(٢).

وأجمع علماء البيان العربي أن الجزل القوي من الكلمات يستعمل في وصف
الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وفي التنفيس عن الغضب والضيق وما
شابه هذا ونجد كثيرا من خطب الأمام ورسائله هي تعبير عن عواطفه وأفكاره
التي تقتضي التعبير القوي الفخم الملائم لشدتها وقوتها وحرارتها^(٣).

وفي كتاب إلى معاوية جاء: ((فَسَيَطُّبُكَ مَنْ تَطَّلَبُ ؛ وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبَعِدُ ؛
وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ
؛ شَدِيدٍ زَحَامُهُمْ ؛ سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ ؛ مُتَسَرِّبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ ؛ أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ
رَبِّهِمْ ؛ وَقَدْ صَحِبْتَهُمْ ذُرِّيَّةً بَدْرِيَّةً وَسَيُوفٌ هَاشِمِيَّةً ؛ قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا ؛ فِي
أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ))^(٤).

وكتاب آخر إلى أهل البصرة: ((وَلَيْنَ الْجَائِمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لِأَوْقَعَنَّ بِكُمْ

(١) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صبحي الصالح) : ٣٧١/١٠ .

(٢) ظ: النوبي (محمد النوبي) ، الشعر الجاهلي: ٦٨-٦٩ .

(٣) الحوفي (أحمد الحوفي) ، بلاغة الإمام علي (عليه السلام) : ٢٤٨-٢٤٩ .

(٤) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبحي الصالح) : ٣٨٩/٢٨ .

وَقَعَةٌ لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلْعَقَةِ لَاعِقٍ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلُهُ؛ وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقُّهُ؛ غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَهَمًا إِلَى بَرِيٍّ؛ وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَفِيٍّ^(١).

نجد أن النصين لا يخلوان من الموازنات و التناظرات التركيبية المتوازية فمثلا في كتابه إلى معاوية.

← شديد زحامهم ساطع قتامهم.
← ذرية بدرية وسيوف هاشمية.

وفي كتابه لأهل البصرة:

← لذي الطاعة فيكم فضله
← اني عارف ولذي النصيحة حقه
← متهما إلى بري
← غير متجاوز و لاناكثا الى وفي

هذه التوازيات لم تسد في كل النص بل ظهرت بين الحين والآخر مما جعل من الإيقاع النصي متنوعا بين الهبوط والصعود وهذا من الوسائل التي يستعملها (عليه السلام) كثيرا ليشد أسماع متلقيه إليه ويبعدها عن الملل. ونلاحظ أيضا فيها توظيف الإمام لجناس الاشتقاق في:-

متسربلين سراييل الموت.

لا وقعن بكم وقعة.

كلعقة لاعق.

فهي ألفاظ قوية شديدة كررها بالاشتقاق لتوكيد جرسها وحدته مضيئا إليها من الأدوات المؤكدة منها (نون التوكيد الثقيلة) في (لأوقعن) ولام التوكيد فيها أيضا، وكذلك استعمال المفعول المطلق (وقعة) بما فيه من دلالة الإطلاق وتنوين ذلك الاسم.

(١) م.ن: ٢٩/٣٩٠.

وكذلك لنستمع إلى أصوات (القاف) و (العين) في (لأوقعن بكم وقعة) و (كلعقة لاقع)، وإدارة هذين الصوتين إنما يشعرنا بما شعر به محمد عبده فقال: (وطورا تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمر، ومخالب النسور، وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب، فخلبت القلوب عن هواها، واخذت الخواطر دون رماها، واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء)^(١).

كذلك نجد الإمام يذكر في تهديده لمعاوية كلمات تذكره بأحداث مؤلمة فيما يخصه؛ فذكره بأخيه وخاله وجده وأهله وتذكره بما حل بهم من السيوف الهاشمية.

إنما لإثارة المتلقي وقذف الرعب في قلبه من حتمية المصير الذي سيلاقه لو أصر على غيه.

وان ألفاظ الإمام خدم له في كل غرض يرمي إليه متخييرا منها ما وافق أفكاره وانفعالاته يقول: ((وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَوْ لَا بَعْضُ الْأَسْبِقَاءِ لَوْصَلْتُ إِلَيْكَ مَيِّ قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعِظْمَ وَتَهْلِسُ اللَّحْمَ))^(٢).

فهذا القسم (بالله) قد أضاف مجيئه في سياق التهديد إضافة رائعة أرعبت القلوب وإثارت فيها الذعر لمقام الباري عز وجل وقدرته.

أما(قوارع تفرع العظم وتهلس اللحم)^(٣).

فلا مجال لإنكار ما لهاتين العبارتين من محاكاة صوتية للحدث الذي تعبران عنه وكأنه فلم يعرض أمام المتلقي.

وقد أكد العلماء في الألفاظ لكي تكون قادرة على التأثير في السامع أن تكون ملائمة ومنسجمة مع المعنى الذاتي المراد نقله (يتمثل في وجوب مطابقته لما يقتضيه حال الخطاب)^(٤)، فلا نبأ بالغ أو نعجب إن سمعنا من يقول: (كان يخيل لي في كل مقام أن حروبا سببت وغارات شنت)^(٥).

(١) عبده (محمد عبده)، في مقدمة تحقيقه لكتاب نهج البلاغة: ٥.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبحي الصالح): ٦٣/٧٣.

(٣) يراجع هذا الفصل: ٧٧.

(٤) ظ: ناجي (مجيد عبد الحميد ناجي)، الأسس النفسية للأساليب البلاغية العربية: ٧٦.

(٥) عبده (محمد عبده)، في مقدمته لكتاب نهج البلاغة: ٢٥.

وكتب الإمام: ((لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ؛ تَقِيلَ الظَّهْرَ؛ ضَنْبِيلَ الْأَمْرِ))^(١) وأيضاً: ((فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ؛ لِيُنَّ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا؛ لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلَيَّ هَوَانًا؛ وَلَتُخْفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا))^(٢).

ففيها إيقاع السريع تعاونت في صناعته الأصوات القوية والسجعات المترددة والموازنة التركيبية بين الفقرات وتكرار حروف المد بين الحين والآخر.

قليل الوفر	فلق الحبة	لتجدن بك على هواناً
ثقيل الظهر	برأ النسمة	ولتخفن عندي ميزانا
ضنبيل الأمر		

والإمام لم يتكلف السجع لمجرد خلق جو شعري وإنما هو ترجمة لعواطفه لأنه (السجع) يكثر في مقام الغضب واشتعال العواطف ويقل متى يختفي وتتوارى الصناعة كلها في مقام التوضيح والتعبير عن الأفكار الخالصة فيلجأ إلى الترسل^(٣).

ونلاحظ تأكيد الإمام لألفاظ الأفعال بنون التوكيد الثقيلة لما تحمله من الصوت الرنان الذي يتعالى مع الشدة بقوة الضغط على مخرجها كما في: (لاوقعنّ) (لتجدنّ) (لتخفنّ) (لاشدنّ).

وهذه الإيقاعات الموسيقية لها اثر كبير في انسجامها مع الحدث أو المشهد الذي يدور الكلام حوله إذ إن هذا التناغم الصوتي بين الألفاظ المفردة والمركبة لا تتم جماليته الموسيقية إلا بتمام التناسق بين صوت اللفظ ودلالة محتواه^(٤).

ج - النقد والتقريع:

لما كان لحياة الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) من أحداث ووقائع وأعمال لأعدائه وحساده؛ فقد كان من الطبيعي أن نجد الإمام في كتبه ناقداً موبخاً مرة ومعاتباً مرة أخرى؛ فهو الذي لا يسكت على حق؛ ولا يعبأ بقوة الباطل، وأسلوب الإمام في نقده وتقريعه أشبه له في تهديده ووعيده (محذراً)

(١) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبحي الصالح): ٣٧٧/٢٠.

(٢) م. ن: ٤٣/ ٤١٥.

(٣) الحوفي (احمد الحوفي)، بلاغة الإمام علي (عليه السلام): ٢٨١.

(٤) عاصي (ميشال عاصي)، الفن والأدب (بحث في الجماليات والأنواع الأدبية): ١٢٢.

لذلك سنقتصر ذلك مشيرين إلى بعض منها:

ما جاء في كتاب له إلى بعض عماله: ((فَسُبْحَانَ اللَّهِ أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ؟ أَيُّهَا الْمَعْدُودُ كَانَ عِدَدَنَا مِنْ أُولِي الْأَبَابِ؛ كَيْفَ تُسَيِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا وَتَشْرَبُ حَرَامًا؟))^(١).

فخذ ما أوقعته هذه الاستفهامات من صدى صوتي رائع ومخيف في (أما؟) و.. (أو ما؟) ثم (كيف؟).

فان هذه الاستفهامات وهذه التعجبات المقترنة بالمئات المتوالية التي بلغ عددها اثنتين وعشرين مدة في هذا المقطع الصغير، وجعل من أصواته ترتعد وتصرخ بمن يسمعها وتعنفه تعنيفا شديدا.

وفي رسالة أخرى:

((أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ أَيْبِكَ عَرَّبِي مِنْكَ؛ وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ؛ وَتَسْأَلُكَ سَبِيلَهُ؛ فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رَفِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا؛ وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَجِكَ عِتَادًا. تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ أَخْرَجِكَ وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِطَبِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا. لَجَمَلٌ أَهْلَكَ؛ وَشِسْعٌ نَعَلَكَ؛ خَيْرٌ مِنْكَ؛ وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَعْرٌ؛ أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ؛ أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ؛ أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى حَيَاةٍ؛ فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا؛ إِنْشَاءً لِلَّهِ))^(١).

يلاحظ هنا أن الإمام لم يسلك المسلك التقريري المتأنى بل سلك الأسلوب الخطابى بما فيه من طباقات واستفسارات، وإيقاع هذا النص إيقاعا سريعا ينبئ المرسل إليه بعجلة أمر الرسالة وحسم الأمر فيها.

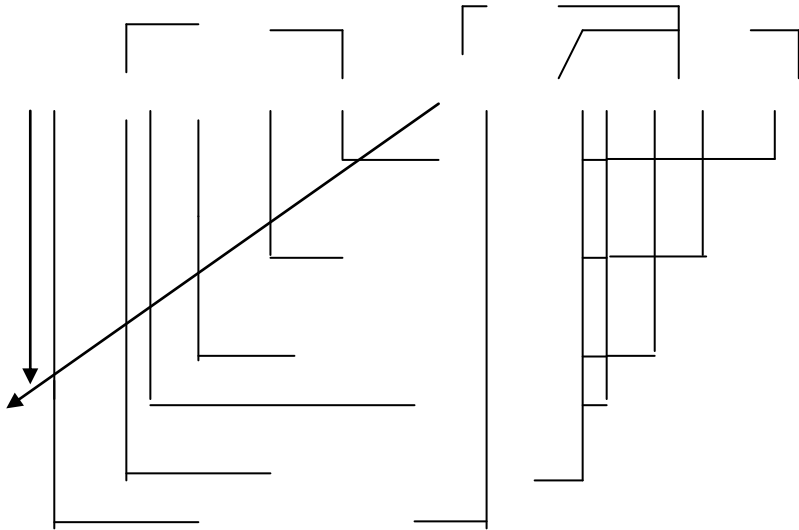
وكرر (عليه السلام) الأصوات في هذا النص بشكل لافت للنظر في نهايات الجمل (الفواصل) فقد تكرر صوت الكاف ثمان مرات؛ أغلبها في آخر الفاصلة: (منك، عنك، آخرتك، دينك، اهلك، نعلك، منك، صفتك).

وتكررت الهاء مرتين في (هديه) و (سبيله) والداد كذلك في (انقيادا) و (عتادا) أما الراء فثلاث مرات (ثغر، امر، قدر) ثم التاء مرتين (أمانة، خيانة). وقد أسهم التكرار هنا في تحقيق التماسك النصي المرسل ولاسيما أن ضمير المخاطبة الكاف قد تكرر سبع عشرة مرة. موزعا في أثناء الرسالة.

(١) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صحي الصالح): ٤١/٤١٣.

(٢) م.ن: ٤٦١/٧١-٤٦٢.

إلا أن محور التمرکز في رسالة الإمام كان في التوازي التركيبي الذي ظهر بوضوح، يعود ذلك إلى غرض الرسالة في التأكيد على الفكرة الواحدة، قراءة وسماعاً باعتماده على كثير من الاستنتاجات المنطقية التي تدور حولها فكرة التقريع فضلاً عن التقفية في كثير منها أضفى لها المعنى الذي تؤتاه، فلهذه المجانسة الوزنية التركيبية في العبارات وعدد الكلمات وعدد الحروف من التقارب ما كرس الطابع الجمالي في النص؛ فهي تناظرات صوتية وتقابلات معنوية عكست صورة الغضب وترجيع الألم في نفس الإمام (عليه السلام).



طباق

طباق

طباق

تعمر دنياك بخراب أخرتك وتصل عشيرتك بقطيعة دينك

فعل مضارع

مفعول به (مضاف) ضمير المخاطب (الكاف) (مضاف إليه) تقفية
حرف جر (الباء)

مضاف إليه

اسم مجرور به وهو مضاف
مجرور

يُسد به ثغر
ومن كان بصفتك فليس باهل أن
سجع
أو يُنفذ به أمر
أو يُعلى له قدر

وكلها تكونت من فعل مضارع مبني للمجهول ثم جار ومجرور ثم نائب الفاعل.

فهو حين ينتقي ألفاظا موسيقية كهذه لها القدرة على الإيقاع الداخلي المتردد.. عليه أراد بترددات الصوت تردد الصفعات المتتالية بدفعات متجددة من الإحساس والانفعال وكأنني بالأمر يأخذ الصوت بيده (دا.. دا) فيستعمله كسوط حاد الضربة ثم يرخي فينقله بعد مدة إلى اليد الأخرى ليضربه بوقع آخر كأن تكون الرء بتكرارها ورنه صوتها الممتزج بصوت التنوين المقترنة به (رون.. رون...رون) في (ثغر، أمر، قدر) وهكذا في بقية السجعات.

ثم يقطع كل هذه الضربات الإيقاعية منبها الأسماع ومفاجئا الأذهان بسرعة هذه الخاتمة وقطعها (فاقبل إلي حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله) فهي قطعا ولا شك خاتمة الرسالة ويالها من خاتمة عززت لنا كل ما توصلنا إليه في متنها من معاني الغضب والسرعة معا فهو يحسمها بالأمر الجزم بـ (الإقبال إليه فور وصول الرسالة).

د - الوعظ والإرشاد:

إن للوعظ والإرشاد النصيب الأكبر من رسائل الإمام. فلا يمكن أن تخلو رسالة من رسائله منه سواء أكان هذا الوعظ دينيا أم اجتماعيا أم سياسيا.

إذ كان (عليه السلام) عارفا بأمور دينه ودينه قادرا على اكتشاف ما في نفس المقابل محاولا التأثير في سلوكه، (فنهج البلاغة يعج بالسلوكيات البشرية المختلفة وأبعادها، ويجعل المتطلع وكأنه يرى ويتلمس الشخصية بحواسه المختلفة وكله شفق في هذا اليم العظيم الذي يرى فيه وصف الاستقرار السلوكي والتخبط السلوكي)^(١) وكانت السياسة واضحة في رسائل أمير المؤمنين إلى ولاته وعهوده ووصاياه إلا أننا اخترنا أن ندخلها مع عرض الوعظ والإرشاد لأنها كلها تصب في الإرشاد والتوجيه الذي خدم الأمة عامة؛ لندرس الوعظ على قسمين: (وعظ ديني اجتماعي ووعظ سياسي).

١ - الوعظ الديني والاجتماعي:

هو ما عبّر عنه بـ (احي قلبك بالموعظة)^(٢) أي انك إن تمسكت بحبل الله وعروته فلا تدع الغفلة تمت قلبك، أمّا الموعظة: فهي جذب الخلق إلى الحق، وأمّا الواعظ: فهو الذي يوجد حالة الانجذاب في الإنسان نحو الفضائل الإلهية، وهو العامل المسبب لهذا الانجذاب. أمّا المتعظ: فهو الشخص المنجذب^(٣)؛

والإمام هو الذي يدعو إلى التعلم وتعليم الخلق، فهو القائل: ((رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ))^(٤).

ويعد التكرار من أهم المظاهر الصوتية في أساليب الوعظ والإرشاد وقد كرر

(١) المحنك (هاشم حسين المحنك) ، علم النفس في نهج البلاغة: ٩٥.

(٢) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صباحي الصالح): ٣٩٢/٣١.

(٣) أملي (جوادي أملي) ، الحكمة النظرية والعملية في نهج البلاغة: ١٣٣.

(٤) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صباحي الصالح): باب الحكم: ٤٨٧/١٠٧.

الإمام الصوت الواحد.

كصوت الراء في هذا النص: ((أحي قلبك بالموعة؛ وأمه بالزهداة وقوه باليقين؛ ونوره بالحكمة؛ ودلله بذكر الموت؛ وقرره بالفناء؛ وبصره فجائع الدنيا؛ وحذره صولة الدهر؛ وفحش قلب الليالي والأيام؛ وأعرض عليه أخبار الماضين؛ وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين؛ وسر في ديارهم وآثارهم فأنظر فيما فعلوا؛ وعمّا انتقلوا؛ وأين حلوا ونزلوا))^(١).

فجاء صوت الراء مع أفعال الأمر التي كما نعلم أن وقعها يكون أقوى من وقع الكلام الخبري العادي، فاسمع إلى هذه الأوامر التي أنقلها صوت الراء بتكريره وضربه: (نوره؛ قرره، بصره، حذره، إعرض؛ ذكره؛ سر؛ فانظر) وكأنه بترجيحه يؤكد ويشدد التمسك بهذا الأمر وإن التضعيف الذي حصل مع الراء في أداء مهمته جاء للإلحاح والتأكيد وأعطى دلالة صوتية واضحة لكل لفظة جاء فيها وبقدر ما أوحته اللفظة مفردة نجد الألفاظ تكتسب بالتحامها دلالة أعمق يوحيها السياق.

وهناك تكرار صوتي فضلا عن تكرار الحرف المفرد أو تكرار اللفظة وهو تكرار فقرة أو جملة بأكملها مثاله: ((وأصدع المال صدعين ثم خيرته فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره؛ ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيرته؛ فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره؛ فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فأقبض حق الله منه))^(٢).

هذا الكلام من وصية كتبها لمن يستعمله على الصدقات فهو في تكراره لعبارة (فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره) إنما يؤكد على عدم الاعتراض لاختيار المتصدق بما أراد التصديق به وفاء لحق الله... ومن أنماط التكرار الجمالية أيضا تكرار لفظة (الله) في:

((اللّٰهُ اللّٰهُ فِي الْاَيْتَامِ فَلَا تُعْبُوا اَفْوَاهَهُمْ؛ وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ؛ وَ اللّٰهُ اللّٰهُ فِي حَيْرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ؛ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ؛ وَ اللّٰهُ اللّٰهُ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ؛ وَ اللّٰهُ اللّٰهُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ؛ وَ اللّٰهُ اللّٰهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ لَا تُخْلُوهُ مَا بَقِيْتُمْ؛ فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاطَرُوا؛ وَ اللّٰهُ اللّٰهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَسْنَانِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ))^(٣).

(١) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صباحي الصالح): باب الرسائل: ٣٩١/٣١.

(٢) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صباحي الصالح): ٣٨١/٢٥.

(٣) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صباحي الصالح): ٤٢٢-٤٢١/٢٥.

وقد تناوله الدارسون لجماله وقوته، مع هذه التكرارات التي سجلت علامة فارقة على جسد النص، وهي تكريرات لفظية تتمركز حول لفظ الجلالة (الله الله) الذي تكرر تركيبه ست مرات على التوالي مقترنا في كل مرة في قيمة إنسانية وإسلامية تختلف عن التي تليها، وقد جيء بهذا التكرار بوصفه قيمة دلالية يتم التأكيد من خلالها على المفاهيم التي أوجزها (عليه السلام) وهو على فراش الموت.

وقد رصفت ظاهرة التكرار في الوصية بطريقة بدت متسقة بتلقائية خلقت إيقاعا داخليا تؤكد حضوره عن طريق تجانس الأصوات مع دلالات العبارات المركزية وهي (لفظ الجلالة) فالصلاة والقرآن والجهاد وبيت الله (الكعبة) والأيتام والجيران؛ تتجانس مع ما يحققه لفظ الجلالة من حضور روحي يستدعي استحضار القيم الروحية والاخلاقية والانسانية التي وجدت من اجلها ظاهرة التكرار في النص^(١).

غير أن ثمة ما يدعو إلى تكرار لفظ الجلالة فضلا عما له من اثر صوتي، فالإمام في موضع التذكير بالله لهذا قصد إلى إشاعة جو من الحنين والشوق بتكرار لفظ الجلالة، ومثل هذا محمود على جهة التشوق والاستغراب أو على سبيل التنويه والإشارة إليه أو على سبيل التعظيم للمحكي عنه^(٢).

وفي كتاب أرسله لابن عباس: ((أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسْرُهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَقْوَتُهُ؛ وَيَسُوُّهُ قُوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكُهُ؛ فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نَلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ؛ وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا؛ وَمَا نَلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا؛ وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا؛ وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعَدَ الْمَوْتِ))^(٣).

هذا الكتاب الذي حمل أروع العبر والمواعظ وأجمل ما يتصور المرء من المعاني الجليلة، زد على ذلك أساليبه الفنية الرائعة؛ ونحن نعرف؛ إن الكلام إن كان خلوا من المعاني الجليلة، فلا فائدة من الأساليب الرفيعة^(٤).

وهذه المقاطع مبنية على تعادل في الفقرات المزدوجة في تلازم موسيقي معتدل وهذا جدول توضيحي بذلك:

(١) الموسوي (نوفل هلال عبد المطلب الموسوي) مستويات الشعرية في كتاب نهج البلاغة:

٧٠.

(٢) الفحام (عباس علي حسين الفحام) , التصوير الفني في خطب الإمام (عليه السلام): ١٤١.

(٣) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صباحي الصالح): ٣٧٨/٢٢.

(٤) عبده (محمد عبده) , في مقدمة تحقيقه لكتاب نهج البلاغة : ٨.

قد يسره درك ما لم يكن ليفوته	ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه
فليكن سرورك بما نلت من آخرتك	ولیکن اسفك على ما فاتك منها
وما نلت من دنياك فلا تكثر به فرحا	وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا

وجداول آخر يوضح التضاد الحاصل:

الكلمة	ضدها
يسره	يسوؤه
درك	فوت
ليفوته	ليدركه
سرورك	اسفك
نلت	فاتك
فرحا	جزعا

وكان لهذه المظاهر الضدية المتوازية مهمة أساسية في بناء فكرة الرسالة أولاً؛ وفي خلق الإيقاع المزدوج ثانياً. فان ذلك خلق نوعاً من التراجع لدى المتلقي؛ إذ أنه متى ما بنى توازيه على تركيب معين عاد إليه ثانية ليناسب ذلك التركيب.

واجتماع الألفاظ في تراكيب متقابلة عزز المعنى التقابلي والأثر الإيقاعي في الوقت نفسه، فأساس هذه الظاهرة الصوتية تبديل مواقع الكلمات لخلق دلالة عميقة المعنى عن طريق شحن الإيقاع لهذا التبديل وخلق إطار جمالي للمعنى إذ أراد (عليه السلام) التركيز والتأكيد على مسألة الفوت والدرك في ثلاثة تراكيب متقابلة عزز أحدها الآخر.

ومما حققه الطبايق أيضاً تهيئة المتلقي لقبول انعكاسات الرؤية الفلسفية للإمام وكأنه يرسم الوضع المتقلب للناس في هذه الدنيا والحال المتأرجح بين الرضا والسخط.

*ومن جماليات النظام الصوتي الذي يتبعه الإمام ليؤثر في السامعين نوع آخر

من المقابلات يتضح لنا في هذا النص: ((وِظْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ؛ إِذَا كَانَ الرَّفْقُ خُرْقًا كَانَ الخُرْقُ رَفْقًا؛ رَبِّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً؛ وَالدَّاءُ دَوَاءً؛ وَرَبِّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصِحُ))^(١).

ففي هذه المقابلات نجد التناظر الإيقاعي على نحو يجسد الإحساس بالدلالة التي يومية إليها. وهذا ما وجدناه في المقابلات السابقة.

لكنه استعمل هنا الألفاظ ذاتها في قلب المعنى، وذلك من خلال تقديم اللفظة وتأخيرها (تغيير موقعها). فالجملة الأولى إذا كان الرفق خرقا قلب معناها بتقديم (خرقا) على (الرفق) فصارت (كان الخرق رفقاً).

كذلك (ربما كان الدواء داءً) فقلبها بتأخير (الدواء) وتقديم لفظة (داء) فصارت: والداء دواء.



فقد تضافرت البنيات الصوتية بتنوع منحها حيوية إضافية عبر ضربات إيقاعية بتبديل مواقع الكلمات وقلب صياغتها واشتمالها على تقابلات في المعاني والتركييب والمفردات واثر ذلك في تحريك سواكن الوحدات الصوتية بين حين وآخر.

٢ - الوعظ السياسي:

لم يخل نهج البلاغة من هذا الجانب الحيوي الذي كان يلزم التطور الحضاري للمجتمع العربي الإسلامي في تهيئة الكادر العسكري ومناهجه ورفع الروح المعنوية وكل الجوانب السايكولوجية.. ففي جانب تهيئة الكادر واختياره يتم وفق منطق أو مصطلح الجهاد الذي يدعو كل من يتمكن على حمل السلاح، سواء كان من ضمن الجيش النظامي أم عامة الرعية، للمشاركة في المعارك ضد العدو الذي يناهض الإسلام^(٢).

ويتركز هذا الوعظ أو التوجيه في عهوده إلى عماله على الأمصار ووصاياها التي يبعثها للجيش؛ ومن هذه الكتب: ((وَتَفَقَّدَ أَمْرَ الخَرَّاجِ بِمَا يُصْلِحُ

(١) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبحي الصالح): ٤٠٢/٣١.
 (٢) المحنك (هاشم حسين المحنك)، علم النفس في نهج البلاغة: ١٠١.

أَهْلُهُ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ؛ وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِيهِ^(١).

فانظر إليه كيف أدار (عليه السلام) لفظة الصلاح في هذا النص إدارة رائعة فقد ورد المصدر (صلاح) أربع مرات والفعل منه (يصلح) ورد مرة واحدة، موزعا إياها في أثناء هذا المقطع لاستيقاف المتلقي هنيهة واستشارته ليستخرج أعمق ما يمكن أن يصل إليه من المعاني وكان المعنى في فلك يدور كدوران اللفظة:

صلاح أمر الخراج ← صلاح أهله ← صلاح كل الناس.

وكرر الإمام اللفظة للتبنيه والتأكيد على أمرها بما يضمن تحقيقها.

وكان مما يقوله لأصحابه عند الحرب: ((لَا تَشْتَدَنَّ عَلَيكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ؛ وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمَلَةٌ؛ وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا؛ وَوَطِّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا؛ وَادْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ؛ وَالضَّرْبِ الطَّلْحِيِّ؛ وَأَمِيئُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفِشْلِ؛ فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَسْلَمُوا؛ وَلَكِنْ اسْتَسْلَمُوا؛ وَأَسْرُوا الْكُفْرَ؛ فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ^(٢))).

فمن النظر الى النص نجد إن الإمام قد استعمل الأصوات المشددة (المضغفة) في كثير من ألفاظه فبلغت الألفاظ التي جاء فيها التضعيف خمس عشرة لفظة.

وتشديد الحرف يعني زيادة مدة النطق به حتى يمكن أن يقال إن الصامت المضغف هو صامت طويل، من وجهة نظر حديثة^(٣)، وسبق لنا القول إن زيادة الصوت (اللفظ) تؤدي إلى زيادة المعنى المتأني منها.

وهذا يوصلنا الى أن الإمام قصد إلى تحميل عباراته معنى مكثفا لا يقف عند حدود اللفظة التي جاء بها.

ونلاحظ أيضا في النص تكرر صوت السين بين حين وآخر مما له من صفير شديد الوضوح إذ ظهر في سبعة مواضع (السيوف، أنفسكم، الدعسي، النسمة، اسلموا، استسلموا، اسروا) وعزز صفة الصفير في النص تكرر صوت الفاء في عشرة مواضع (فرة، السيوف، أنفسكم، الطلحفي، فانه، الفشل، فوالذي،

(١) نهج البلاغة تحقيق الصالح (صبحي الصالح): ٤٣٦/٥٣.

(٢) من: ك: ٣٧٤/١٦٤.

(٣) شاهين (عبد الصبور شاهين)، المنهج الصوتي للبيئة العربية: ٧٠.

فلق، الكفر، فلما).

فضلا عن الصاد في (مصارعها، الأصوات) والشين في (لا تشتدن، الفشل) والذال في (أذمروا، الذي).

كل هذه الألفاظ جعلت من حفيفها صفيرا اكسب النص قوة وقدرة على التأثير في سامعه، جاعلا في صفيرها شدة وحدة تشد من نشاط متلقيها وعزمهم على الخروج بهمة إلى الحرب.

وكهذه الأصوات يبرز صوت العين الذي وظفه الإمام في النص توظيفا ناجحا بما لصوت العين من قدرة فائقة - كما تحدثنا عنها في مواضع سابقة - على إضفاء طابع الشدة والقوة والعنف وورد استعمالها بهذه الدلالة في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (الطور: ١٣) .

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥) .

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦) .

وورد في النص في عشرة مواضع:

(عليكم، بعدها، بعدها، وأعطوا، مصارعها، على، الطعن، الدعسي، أعوانا، عليه).

فتردد قرع صوت العين على الأذن بتفاوت بين الأصوات الأخرى وبعدم نظام بين الأحرف أو انتظام مطلق في تركيب الأصوات والكلمات والمقاطع بل تجد الأصوات المكررة الموزعة بنسب متفاوتة. ولا يخلو هذا النص من الموازنات الصوتية المسجعة:

جولة بعدها حملة	فرة بعدها كرة
وطئوا للجنوب مصارعها	أعطوا السيوف حقوقها
الضرب الطلحي	الطعن الدعسي
برأ النسمة	فلق الحبة

ومن الجناس والسجع المزدوجين: ((ولكنني أسى أن يلي أمر هذه الأمة سقهاؤها وفجارها؛ فيتخذوا مال الله ذولا؛ وعباده خولا؛ والصالحين حرباً

وَالْفَاسِقِينَ حَزْبًا))^(١).

فالتوازي الصوتي جاء في:

وعباده خولا	مال الله دولا
والفاسقين حزبا	الصالحين حربا

وجاء الجناس والسجع في (حزبا = حزبا) و(دولا = خولا) وفي الاخيرة أيضا التزام الواو قبل اللام وهو لزوم ما لا يلزم. وكل هذه الظواهر الصوتية والألوان الموسيقية إنما جيء بها وفق ما تتقبله النفس الإنسانية وترغب إليه.

وأخيرا فان ما لاحظناه في الوعظ بنوعيه أن السجع قد طبع كلام الإمام جله، إذ لم يقتصر على موضوع دون موضوع فهو واحد من أدوات الإمام الفنية الرئيسية في صياغة معانيه، يؤثره كلما قصد إلى الأداء الفني في التعبير^(٢)، وهذا لا يتعارض مع قولنا السابق في أنه يتعالى بتعالى أوقات الغضب والانفعال، والسجع في وعظ الإمام ولاسيما في الوعظ السياسي اقل مقارنة بغرض غيره، إذ نجده هادئا راشدا، يأخذ في اغلب الأحيان في الاسترسال مع قطع هذا الهدوء بين الحين والآخر بالأنماط الموسيقية لكسر روح الرتابة وتخليص المتلقي من الملل.

هـ - الفخر

يفخر علي بن أبي طالب (عليه السلام) بما ميزه الله به من غيره ؛ وما خصه به من الكرامة وما وفقه له من الإيمان ورؤية الحق ؛ فهو لا يتردد ولا يتوانى عن الفخر في كتبه بأهم أمرين... قد صرح بهما ويذكرهما دائما:

أ- الفخر بنسبه وقرابته من رسول الله(صلى الله عليه واله وسلم).

ب- التباهي والفخر بشجاعته أمام أعداء الدين متحديا الفرسان والأبطال.

فجاء ذلك في كثير من كتبه منها كتابه إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة: ((وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوِّءِ مِنَ الضَّوِّءِ وَالذَّرَّاعِ مِنَ الْعَصْدِ وَاللَّهُ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا أَلَيْتُ عَنْهَا؛ وَلَوْ أَمَكَّنَتِ الْفُرْصُ مِنْ رِقَابِهَا

(١) نهج البلاغة ، تحقيق الصالح(صحي الصالح): ٤٥٢/٦٢.

(٢) الفحام (عباس علي حسين الفحام) ، التصوير الفني في خطب الإمام علي(عليه السلام):

لَسَارَعَتْ إِلَيْهَا))^(١).

نجد في هذا النص فخرا واضحا في نسبه من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ويزداد فخرا بذكر شجاعته فلا يهتم ولو تظاهرت كل العرب عليه. ومن كتبه إلى معاوية: ((وَأَمَّا قَوْلُكَ: (إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ) فَكَذَلِكَ نَحْنُ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ أُمِّيَّةُ كَهَاشِمٍ؛ وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ؛ وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ؛ وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ؛ وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ؛ وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغَلِ وَلَيْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتَّبِعُ سَلْفًا هُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَفِي أُيُدِينَا بَعْدُ فَضْلُ الثُّبُوءِ الَّتِي أَذَلَّلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ؛ وَنَعَشْنَا بِهَا الدَّلِيلَ؛ وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا؛ وَأَسَلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعًا وَكَرْهًا؛ كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً؛ عَلَى حِينِ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ؛ وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوْلُونَ بِفَضْلِهِمْ؛ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا؛ وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا وَالسَّلَامُ))^(٢). نجد في النص المتقدم موازات لها موسيقى عالية تمثلت بالتوازي شبه التام في تراكيب الجمل القصار

ليست أمية كهاشم	_____	
ولا حرب كعبد المطلب	_____	
ولا أبو سفيان كابي طالب	_____	
ولا المهاجر كالتليق	_____	ولكن
ولا الصريح كالصيق	_____	
ولا المحق كالمبطل	_____	
ولا المؤمن كالمدغل	_____	

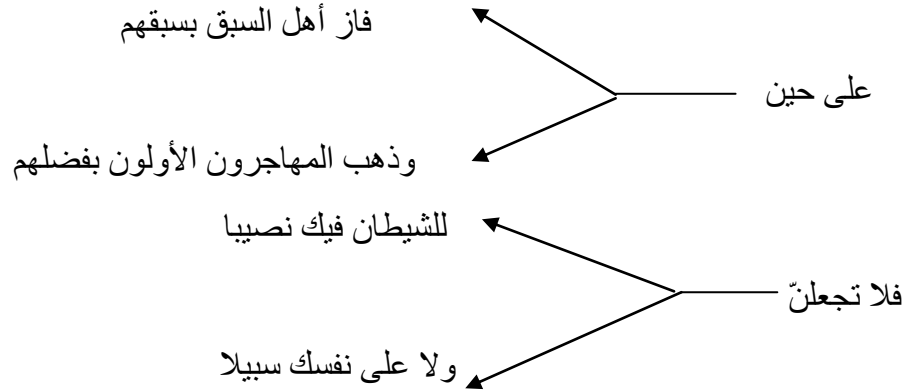
هذه الموسيقى التي تتعالى بزيادة الموازات. ثم تو

(١) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبيح الصالح): ٤٥/٤١٨.

(٢) م.ن: ٣٧٥/١٧.

اجد السجعات وفق تنظيم ثنائي في (مطلب - طالب) و(الطلق - اللصيق) و(المبطل - المدغل) كل ذلك استعمله في مقابلات صوتية تتضمن تقابل المعاني فضلا عن تقابلها الصوتي لإبراز مدى تفضله عن غيره من خلال سياقات المقابلة التي جعلت المعنى ابعد أثرا في النفس وموسيقاه العالية ساعدته ليكون الصق ما يكون في ذاكرة القلب بحيث لا ينسى أو تندثر آثاره.

ومما زاد في الأثر الصوتي تكرار حرف العطف (و) مع أداة النفي (لا) فكررها في بداية ست فقرات. ثم تأخذ هذه الموسيقى بالهبوط قليلا لترتفع مرة أخرى في ختام الرسالة:



ولم يقف الأثر الصوتي عند هذا الحد في إبراز معاني النص المرادة بل نجد اثر الطباقات المتتالية التي عبرت في انعكاساته وأبلغت عن سعة الفجوة التي فصلت بين المرسل (عليه السلام) وبين معاوية بن أبي سفيان، وحجم المقام الذي خصه الله به:

الكلمة	ما يقابلها
المهاجر	الطلق
الصريح	اللصيق
المحق	المبطل
المؤمن	المدغل
الخلف	السلف
العزیز	الذليل
طوعا	كرها
رغبة	رهبة

وفي كتاب آخر لمعاوية متعجبا من كتاب بعثه له: ((وَأَتَى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمُكَدَّبُ؛ وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ؛ وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صَبِيهُ النَّارِ؛ وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ

العالمين؛ ومِنكُمْ حَمَالَةُ الْحَطَبِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ^(١).

فمعاني الفخر واضحة وضوح الشمس عبّر عنها بأسلوب المقابلة الذي غالباً ما يستعمله ويفضله في الفخر وأسس عباراته على بداية واحدة لتقريبها من النفس؛ فناوب في بداياتها بين ضمير المتكلمين مرة وضمير المخاطبين مرة مرتبطاً بـ(من) التي تفيد التضمين فصارت هكذا:

ومنا ← ومنكم ← ومننا ← ومنكم ← ومننا ← ومنكم ←

الكلمة	يقابلها
ومنا النبي	ومنكم المكذب
ومنا أسد الله	ومنكم أسد الأحلاف
ومنا سيدا شباب أهل الجنة	ومنكم صبية النار
ومنا خير نساء العالمين	ومنكم حمالة الحطب

(١) نهج البلاغة، تحقيق الصالح (صبيح الصالح): ٣٨٧/٢٨.

الفكر التاريخي عند امير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة

(دراسة في ابعاد التاريخ)

المدرس المساعد: الشيخ حسن كريم ماجد الربيعي

المدرس المساعد: محمد نعمة طاهر (جامعة الكوفة - كلية الفقه)

المقدمة

هذا بحث بعنوان (الفكر التاريخي عند امير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة دراسة في ابعاد التاريخ)، وتأتي اهمية دراسة التاريخ كعلم انساني في تصحيح المسارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية وتجاوز اخطاء الماضي بقراءة النصوص التراثية قراءة واعية وبعث الافكار الاصلية التي تغير الواقع الى الاحسن والارقي بالبحث عن الاصول والاسس والعلل في حركته وقد تعددت القراءات وظهرت النظريات الفلسفية في تفسير التاريخ تفسيراً دينياً ودينياً ومن مختلف الاتجاهات والرؤى الا ان رؤية الامام علي (عليه السلام) هي رؤية تعبر عن اصول ومعارف ومصادر منطلقة من النصوص القرآنية المدونة بيديه مع القرب والاقربىة على من نزلت اليه وهو الرسول «صلى الله عليه واله وسلم» صاحب الاتصال السماوي، وامة تتصل بمثل هذه الرموز ينبغي لها الرفعة وهذا ما يقرره العقل قبل النقل، ومن الغريب ان التاريخ يقرأ ولا يعتبر به، وهذه هي المدونة الوحيدة في العالم منذ يوم نزولها تنقل لنا اخبار الامم السالفة ثم احداث الواقع الذي نزلت فيه ثم ما يحدث في المستقبل من احداث تغير وجه العالم، عرفت تلك الاحداث المنصرمة بالقصص القرآني منطبعة بطابع العظة والعبرة سواء تمثل الجوانب الايمانية الخيرة او الجوانب السيئة في المبدأ والخاتمة او تمثل جانب التحولات النفسية لدى بعض الشخصيات او الاقوام وهي بيان حالات اجتماعية مستقرة او متغيرة وكل هذا ليس للترف الفكري او الذكر اللساني دون العبرة والتغيير الفردي او الجماعي نحو تجاوز الاخطاء والصعود نحو سلم المجد والازدهار كل هذا نجده ايضاً في كلمات الامام علي (عليه السلام) وقد اقتصرنا على بيان ذلك في نهج البلاغة بالخصوص في ثلاثة مباحث: المبحث الاول الماضي وعبره، والثاني: بُعد الواقع المعاش، والثالث: بُعد المستقبل ونختم البحث بخلاصة لهذه الابعاد، والله المنة علينا واليه المصير.

الباحثان

المبحث الاول: بُعد الماضي وعبره

ذكر الراغب الاصفهاني (ت ٥٠٢هـ): ان مضى بمعنى والمضاء النفاذ ويقال ذلك في الاعيان والاحداث، قال تعالى: «وَمَضَى مَثَلُ الْأُولَيْنِ»^١ وقال ايضاً: «فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأُولَيْنِ»^٢، هذا ما استدل به الراغب ان الماضي او مفهوم مضى نفذ كحدث انتهى ووقائع مرت لا يمكن اعادتها او تغييرها وهي التي تسمى في علم التاريخ بالمعلومة الارشيفية، ويبقى التحليل لما وراء الحدث في ابعاده الثلاثة وعناصره والظروف المحيطة بهذه الاحداث الماضية أي دراسة نفسية ونحن بحاجة الى الدخول في التاريخ النفسي والاجتماعي لرصد الواقع والحكم عليه، فان تشخيص الموضوع يحتاج الى تأمل ونظر واستنتاج وهي رؤية ركز عليها امير المؤمنين في جملة من خطبه وكتبه وحكمه وهو البعد الماضي لهذه الاحداث في تاريخ البشرية.

١ . الراغب الاصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ضبط : هيثم طعيمي، (بيروت : دار احياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ)، ص ٤٩٠.

٢ . الزخرف / ٨ .

٣ . الانفال / ٣٨ .

تاريخ الوجود البشري (الحركة النبوية)

يشير امير المؤمنين (عليه السلام) الى حكمة الخلق واختيار الانبياء قبل النبي محمد «صلى الله عليه واله وسلم» بشكل متواصل لذا قال: «رواثر اليهم انبياء» أي لا يخلو الوجود من حركة الانبياء عبر الاتصال بالوحي والتبليغ لاوامر الله سبحانه وتعالى لغرض وهدف واحد تبليغ امانة الرسالة القاصدة لسعادة البشرية وكان الحكمة اكثر من التذكير لذا قال: (ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدره)^١ وقد تكون مهمة الانبياء اكثر من التذكير باثارة دفائن العقول بالنظر والتأمل والتحليل لهذه الحركة الاصلاحية وكان البشر في مسار وجوده يحتاج لمن يأخذ بيده ويحرك العقول المتواصلة مع الانبياء في الخارج وهي قد تتفاعل مع الامور العقلية ولذا حكم اهل الاصول بالملازمة المقررة عندهم «كل ما حكم به الشرع حكم به العقل وكل ما حكم به العقل حكم به الشرع» وهي مشهورة شهرة كبيرة، والعلاقة قد تكون مبنية على التذكير لهذا الجهاز الذي يحوي الدفائن ربما هي اشارة الى الكنوز المعرفية.

يخيل لنا ان ثنائية الداخل والخارج تتضح بانه: «لم يُخل سبحانه خلقه من نبي مرسل او كتاب منزل او حجة لازمة او محجة قائمة: رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم: من سابق سمي له من بعده، او غابر عرفه من قبله على ذلك نُسبت القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلفت الانبياء»^٢.

هذا التاريخ النبوي وحكمته هداية البشر ورفع شأنه بثنائية الاستجابة مع العقل لا الغرائز والشهوات التي تبعد هذه الثنائية جانباً فتتحكم الاهواء الدنيوية وتضييع الموازين العقلية ولا يثار ما دفن من العقول لعجز النبي الباطن ان يتفاعل مع النبي الظاهر (الخارجي) مع ان الحجة لله سبحانه وتعالى مع المبالغة في الاحتجاج بعدم خلو الزمان والمكان من جملة من التبليغات: النبي وكتابه، الظواهر والعقول البواطن ولكن لا يعمل احدهما بدون الانفعال والتفاعل بين الاثنين العقل والنقل ولكل مساحته وهو ما ذكره امير المؤمنين من وجود ظواهر سبقت ظهور النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) فقال: «واهل الارض يومئذ ملل متفرقة، واهواء منتشرة وطرائق متشتتة بين مشبه الله بخلقه او ملحد في اسمه او مشير الى غيره»^٣.

هذه الرؤية في تقصي الاحداث العالمية لحركة النبوة حتى وصلت الى الخاتم رؤية كلية في بيان حقائق الاشياء الماضية نابعة من ادراك البعد التفسيري لنصوص القرآن الكريم، قال تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نُجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ»^٤، وهي اشارة الى مفهوم الظلم عند الامم المضاد لحركة الرسالات الواضحات التي ما تدعوا الا الى العدل والسماحة والمساواة وهي المشتركات العظمى بين جميع الرسالات في التاريخ البشري.

ان من جملة الاهداف الكبرى لحركة الانبياء هي تأكيد وحدة المصدر والمنهج والاهداف مع العمق التاريخي وابعاده، مع اختيار مسلك هؤلاء الانبياء في تواضعهم، ويضرب الامام علي (عليه السلام) في خطبة امثلة على السلوك الفعلي لخط النبوة عن النبي موسى بن عمران واخيه هارون (عليهما السلام) فقد دخلا على فرعون وعلبيهما مدارع الصوف وبايديهما العصي فشرطا

١ . الشريف الرضي، ابو الحسن محمد بن الحسن الموسوي، نهج البلاغة وهو مجموع ما اختاره من كلام امير المؤمنين اب الحسن علي بن ابي طالب عليه السلام، شرح: محمد عبده، تحقيق: عبد العزيز سيد الاهل، (بيروت: دار الاندلس، ١٣٨٢هـ)، ج ١، ص ٣١ .
٢ . المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢ .
٣ . نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٢ .
٤ . نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٣ .
٥ . يونس / ١٣ .
٦ . الكفيسي، عامر، حركة التاريخ في القرآن الكريم، (بيروت: دار الهادي، ١٤٢٤هـ)، ص ١٤٦ .

له ان اسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: «الا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل فهلا ألقى عليهما اساورة من ذهب»^١، وفي هذا النص تتضح عدة امور تعزز الحياة الاجتماعية على مستوى العلاقات بين الانبياء والملوك بين فردين الاعتدال والتفريط والتواضع والتكبر ولكن الرؤية تختلف والموازن مختلفة بين الدنيوي والأخروي فان فرعون اعظم الذهب وجمعه واحتقر الصوف ولبسه وهذه الرؤية للحياة تعبر عن التسلط والاستبداد الناتجة عن عدم فهم الوجود والموجود وغايته او بمعيارية الدنيوية فقط. وهنا يذكر امير المؤمنين (عليه السلام) الاعتبار بالامم الماضية بنحو العبرة بهم: «فاعتبروا بما اصاب الامم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته»^٢ ثم يشير الى اصل العبرة من اخبار الماضين حيث يتذكرهم الانسان فقال: «وبقي قصص اخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين»^٣.

ثم قال في موضوع اخر: «فاعتبروا بحال ولد اسماعيل وبني اسحاق وبني اسرائيل عليهم السلام..... الخ»^٤، ثم يشير (عليه السلام) الى تسلط الاكاسرة والقياصرة الذين اتخذوا ارباباً من دون الله سبحانه وتعالى^٥.

ان التأمل والنظر الدقيق في حضارات الامم السالفة احياء للقلب والفكر بالاعتبار واخذ العبرة وتجاوز اخطاءهم فمن وصيته (عليه السلام) لابنه الامام الحسن (عليه السلام) يقول له في العرض القلبي: «واعرض عليه اخبار الماضين وذكره بما اصاب من كان قبلك من الاولين وسر في ديارهم واثارهم فانظر فيما فعلوا واما انتقلوا، واين حلوا ونزلوا فانك تجدهم قد تنقلوا عن الاحبة وحلوا ديار الغربية، وكانك عن قليل قد صرت كاحدهم»^٦، وفي موضوع اخر من الوصية يذكر (عليه السلام) الاعتبار والعبرة من التاريخ: «أي بني اني وان لم اكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في اعمالهم وفكرت في اخبارهم وسرت في آثارهم، حتى عدت كاحدهم، بل كاني بما انتهى الي من امورهم قد عمرت مع اولهم الى آخرهم»^٧، وهذه الوصية فيها مضامين عالية بل هي تربية رفيعة للنفس يجدر بنا ان نضعها في مدارسنا وجامعاتنا وطرق تدريسنا لتعلم منها الخلق الرفيع والاتصال مع الواقع الاجتماعي ونعمل بمضمونها في تجسيد دراستنا لواقع الماضين واخبارهم بل يمكن اعتماد دراسة التاريخ واحداثه للعبرة والعظة سواء دراسة تاريخ العالم الكلي او جزئيات التاريخ البشري ولكل حضارته وثقافته، وليس الاطلاع والعرض على النفس او المجتمع لغرض الترف الفكري او قضاء الاوقات بل لاستخلاص العبرة والابتعاد عن المسلك الخاطيء فان اخبارهم عبرة وعظة لذا عد التاريخ من مصادر الوعظ وليس المقصود الوعظ الديني فقط بل الوعظ الاجتماعي لتجاوز اخطاء الماضين واختصار الزمن من المرور بنفس الحوادث لنشابه ذلك، وكثيراً ما يقع ذلك في سقوط الدول ونشوء غيرها فتمر بنفس الدائرة من دون النظر لاحداث الماضي وتجاوزها كالتقدم الذي يحصل للحضارات مع الاستفادة من تجارب الامم الاخرى وقد صرح العديد من العلماء الغربيين باخذهم من الاسلام اصوله في السياسة والتمرن وحسن ممارستهم لمبادئه وجوده استنباطهم واستخراجهم لها ونقل عنهم ان

١ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٦٣ .

٢ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٦٢ .

٣ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٧٠ .

٤ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٧٠ .

٥ . للمزيد ينظر : نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٧٠ - ص ٣٧١ .

٦ . للمزيد ينظر : نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٧٥ .

٧ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٧٦ .

٨ . للمزيد ينظر: النائيني، محمد حسين، تنبيه الامة وتنزيه الملة، تعريب: عبد الحسين آل نجف ن تحق: عبد الكريم آل

آل نجف، (قم: سبهر، ١٤١٩هـ)، ص ٩٤ .

الصليبيين: «خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين فاذا هم جلوس عند اقدمهم يأخذون عنهم افانين العلم والمعرفة»^١ لذلك اعدوا المناهج العلمية لدراسة الحضارات فقد اعد المؤرخ الفرنسي فرنان برودال (١٩٠٢ - ١٩٨٥) F.BRAVDEL منهجاً في التاريخ لطلاب المدارس الثانوية الفرنسية اسماه (في نحو الحضارات)^٢، اذا كانت مدارسهم في التعليم الاولي يدرس مثل ه ذا النوع من الكتابات التاريخية فما هو تفكيرهم في قضايا ابعاد التاريخ ووعيه، فهم لا ينكرون اسهامات الحضارات البشرية ومدى الاستفادة من ذلك وتغيير الثقافة نحو البناء الفكري والنقدي لمثل هذه الاحداث الماضية.

فان لفظ امير المؤمنين (اخبار الماضيين) هو مطلق غير محدد بحضارة دون اخرى او هو ما يتبادر الى الذهن التاريخ السياسي عند العرف العام بل يقصد منه التاريخ العام ومنه التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي وتاريخ تطور المفاهيم او تاريخ العلم بكل اشكاله وتجلياته كلها لعدة امور منها العظة والعبرة والتعلم والتعليم والمعرفة ومصادرها المتعددة او بنحو التطوير الفكري والعلمي.

ان ما يذكره هنا الامام علي (عليه السلام) يبينها الى دراسة الظواهر التاريخية وتحليلها او جمع الابعاد لتفعيل الوعي وهذا ما نجده عند دراسة سيرة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) والائمة الهداة عليهم السلام فانهم الاسوة والقدوة بل المنار فهل يجب التمسك بهذه السيرة ام الاطلاع عليها فقط؟، وهنا تأتي اهمية الدراسة التاريخية، فان عرض اخبار الماضين الصالحين والطالحين لأعظم عبرة ليس للفرد وحده بل للامة في بيان خيارها على مفاهيم التقدم والوعي التاريخي التقدمي لا الرجعي فالتقدم اصل اصيل في الفكر الاسلامي أي التفاعل مع آليات المناهج المتطورة للتقدم ولا يجدي التمسك بالآليات القديمة التي استهلكت ولا تعد قادرة على المواصلة ومثل ذلك تجديد الفكر وآلياته في التاريخ وغيره وبالاخص في المعاملة مع التراث المعرفي والمنهجي والمفهومي مع الحذر من السقوط فريسة للفكر الغربي^٣ والقطيعة مع التراث

الماضي، وهنا يؤكد امير المؤمنين (عليه السلام) اجتياز الحاضر بالعبرة من الماضي الذي يحمل في طياته الحكمة والعبرة والتراث والفكر والمنهج وهو قد عاشه بقوله كاحدهم لذا قال امير المؤمنين (عليه السلام) لابنه الامام الحسن (عليه السلام): «احي قلبك بالموعظة وذكره بما اصاب من كان قبلك من الاولين»^٤ «واعرض عليه اخبار الماضين»^٥، فالتذكير حالة

تتعامل مع النفس والتربية مصاحبة للعاطفة والتأمل والنظر وله اثر في الوعي الاجتماعي التربوي كتغيير السلوك، وربما اعطى الامام (عليه السلام) معاني الدرس النظري اولاً ثم تحول الى معنى الدرس العملي وهكذا يدرس علم التاريخ بنوعين:

١- التفاعل والانفعال مع الحدث التاريخي.

٢- النظر المادي للمخلفات الاثرية للاقوام الماضية.

وقد ارجع بعض الباحثين الانهيار الاممي من انه مرتبط باسباب ذاتية وموضوعية فالوصف القرآني يعد مركز القاعدة في البناء والهدم هي الاخلاق كقيمة عليا مرتبطة بواقع الممارسة والتطبيق^٥.

١ . هرنشو، علم التاريخ، ترجمة: عبد الحميد العبادي، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م)، ص٤٨ .

٢ . التيمومي، الهادي، نظريات المعرفة التاريخية وفلسفات التاريخ في العالم الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين مختارات معربة، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ٢٠٠٨م)، ص٣٠ .

٣ . للمزيد ينظر: الجابري، محمد عابد، نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، (بيروت: المركز الثقافي الثقافي العربي، ١٩٩٣م)، ص١٣ .

٤ . نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٥ .

٥ . الركابي، السنن التاريخية في القرآن المجيد، (بيروت: دار النهضة الاسلامية، ١٩٩٦م)، ص١٤٦ .

وعرف ذلك بالسنن التاريخية وقد ذكر ذلك في القران الكريم فمثلاً العذاب المهين سنة تاريخية في القيمة والقوة من خلال ارادة الانسان وفعله، قال تعالى: «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ»^١ وفي نص قرآني اخر يقول الخالق عز وجل: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا»^٢ وهنا اشكالية في تصوير هذا المفهوم القرآني حيث ان الناس ليسوا كلهم ظالمين عادة فيهم الانبياء والائمة والاوصياء هل يشمل الهلاك الجميع؟ الحقيقة ان هذا العقاب دنيوي فهي تتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه الامة عن طريق الظلم والطغيان^٣، ان ارادة النص القرآني هو خلق مجتمع على درجة من الوعي التاريخي في الاحداث كما يقول السيد الشهيد الصدر: «انه يخلق في الانسان المسلم شعوراً واعياً على جريان احداث التاريخ متبصراً لا عشوائياً ولا مستسماً ولا ساذجاً»^٤، ذاك الوعي الذي اشار اليه امير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته التي تسمى (الغراء) وهي من الخطب العجيبة كما يعبر عنها الشريف الرضي (ت ٤٠٤ هـ) فقد جاء فيها: «عباد الله أين الذين عُمروا فَنَعْمُوا، وَعَلِّمُوا فَفَهَّمُوا وانظروا قَلْبُوهُ، وَسَلِّمُوا فَنَسُوا، أمهلوا طويلاً ومنحوا جَمِيلاً وحذروا أليماً ووعدوا جَسِيماً..... الخ»^٥، وبعد هذا الكلام الذي يعرض للتفكير والتأمل والنظر يعطي النتائج لهذه الجولة من الافكار في السير الصحيح الموافق لارادة الله سبحانه وتعالى «قبل قدوم الغائب المنتظر واخذة العزيز المقتدر»^٦ وفي كلام له عظيم يقول: «وان لكم في القرون السالفة لعبرة، اين العمالقة وانباء العمالقة اين الفراعنة وانباء الفراعنة اين اصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين واطفأوا سنن المرسلين واحياوا سنن الجبارين.....»^٧.

ماضي العرب قبل الاسلام

اشار امير المؤمنين (عليه السلام) الى تاريخ العرب قبل الاسلام وحالتهم الاقتصادية والاجتماعية وما هم عليه من احوال فذكر: «فالأحوال مضطربة والايدي مختلفة والكثرة متفرقة في بلاء ازل، واطباق جهل من بنات مؤودة واصنام معبودة، وارجام مقطوعة، وغارات مشنونة»^٨، هذه هي احوال العرب قبل الاسلام الاجتماعية والفكرية والعسكرية يصفها امير المؤمنين (عليه السلام) ليبين التكوين الاسلامي للعرب من هذه احوالهم الى امة ذات حضارة بلغت الخافقين بفضل دعوة الاسلام، لذا كان يخاطبهم بقوله: «وانتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار منيخون بين حجارة خشن وحيات صم، تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون ارحامكم، الاصنام فيكم منصوبة والاثام بكم معصوبه»^٩، وفي هذا النص يبين التفكير الديني العربي بهذه الحالة قبل الاسلام مع الحالة المزرية للاقتصاد وحالة الخوف والرعب اثر الغارات المتبادلة بين القبائل العربية نتيجة لسوء الحالة الاقتصادية وغياب الحكم وضياعه بين قبائل لا ترضخ الا بالقوة كعامل يستطيع السيطرة على هذه القبائل التي لا تعرف النظام والتنظيم في حياتها.

١ . الركابي، السنن، ص ٧٢ .

٢ . القصص / ٥٩ .

٣ . فاطر / ٤٥ .

٤ . للمزيد ينظر: السيد الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، (قم: شريعة، ١٤٢٦ هـ)، ص ٥٨ وما بعدها.

٥ . السيد الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص ٦٩ .

٦ . نهج البلاغة، ج١، ص ١٤٧ .

٧ . نهج البلاغة، ج١، ص ١٤٩ .

٨ . المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٢٧ .

٩ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٧١ .

١٠ . المصدر نفسه، ج١، ص ٧٤ .

فان الاغارة والسلب من اهم وسائل العيش، والثأر عندهم من الواجبات الدينية قتل الجاني او احد افراد قبيلته، ويبدو ان العرب لم يقبلوا برجل من بلد آخر سيداً اعلى عليهم وهو موجود عند القبائل الرعوية التي اظهرت مستوى رفيعاً من التجانس الاجتماعي فكانت تكره بنى السلطة فهم لا يعرفون المراقبين ولا الموظفين، وكانوا يحتقرون المهن وهي لغيرهم^١، وهذا التعالي لتعظيمهم شجاعة الرجال في الغزو والاغارة وهي ظاهرة متأصلة فيهم برزها امير المؤمنين (عليه السلام) بكثرة غاراتهم المشنونة، وهي غارات ذكرها امير المؤمنين (عليه السلام) في وصفة لواقعة ايام خلافته عندما شن معاوية الغارات على اطراف الدولة فعاتب اهل العراق بقوله: «حتى شنت عليكم الغارات في بلادكم.....»^٢ اذ يعني ذلك ان العادات الجاهلية متأصلة في نفوسهم حتى بعد ان مدنهم الاسلام ورفع شأنهم.

يقول امير المؤمنين (عليه السلام) عن ظاهرة انتشار الحفظ الشفوي بلا قراءة لكتاب فهي امة حافظة من دون ذلك: «وليس احد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة»^٣، ويدل هذا اننا لم يصل اليها من نتاجاتهم على شكل مخطوط فنعرف هذه النتاجات ونقرأها الا ما حفظ ودون بعد ذلك نقلا من تاريخهم المحفوظ في الصدور.

ثم يصف (عليه السلام) الناس قبل البعثة بقوله: «والناس ضلال في حيرة، وخابطون في فتننة، قد استهوتهم الاهواء، واستزلتهم الكبرياء واستخفنتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الامر، وبلاء من الجهل»^٤، هذه هي حياتهم الاجتماعية، اما حياتهم الاقتصادية فقد اشار اليها امير

امير المؤمنين (عليه السلام) اذ وصفها وصفاً واضحاً معللاً سبب فقرهم وتفرقهم هو تسلط القوى الكبرى عليهم وازاحتهم الى المناخات القاسية كما تتسلط قوى الاستكبار العالمية اليوم بحجج براقعة من العولمة والحداثة والتطور والحرية وغيرها من المفاهيم الفضاضة مع انها تحققر غيرها بجعل المركزية الغربية هي المرجعية العالمية لبني البشر، يصف امير المؤمنين (عليه السلام) حالة العرب مع القوى الكبرى من القياصرة والاكاسرة وما فعلوه بهم فقال: «تأملوا في حال تشنتهم وتفرقهم ليالي كانت الاكاسرة والقياصرة ارباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا الى منابت الشيخ ومهافي الريح ونكد المعاش، فتركوهم عالية مساكين اخوان دبر ووبر، اذل الامم داراً واجدبهم قراراً لا يأوون الى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا الى ظل الفة يعتمدون على عزها.....»^٥، وهذا المقطع من الخطبة المعروفة بالقاصعة -

سميت بذلك لانه (عليه السلام) حقر حال المتكبرين^٦ - بين فيها احوال العرب في ظل القوى الكبرى من الفرس والروم، ودخلت المناذرة والغساسنة في احلاف الدول الكبرى وكانت حطبا بين القوتين انذاك فقد تورطوا في هذا الصراع فلما عين الامبراطور الفارسي كاواد المنذر سيداً على العرب في الاراضي الفارسية وبالمقابل جمعت مختلف القبائل الموالية للبيزنطيين تحت زعيم واحد هو الحارث بن جبلة ومنح لقب الملك^٧، ولذا كان الصراع بين القبائل العربية وليس بين الفرس والروم وكانت على رأي ربرت هيلند ان هذه الامارات تسكن في الخيم مميزات السكان

- ١ . هيلند، ربت، تاريخ العرب في جزيرة العرب من العصر البرنزني الى صدر الاسلام ٣٢٠٠ ق.م - ٣٦٠، ترجمة: عدنان حسن مراجعة: زياد منى، (بيروت: قدس للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م)، ص ١٤٩ .
- ٢ . المرجع نفسه، ص ١٥٠ .
- ٣ . الثقفى، ابراهيم بن محمد، الغارات، تحقق: عبد الزهراء الحسيني، (دمشق: دار الكتاب الاسلامي، ١٩٩٠م)، ص ٣٢٦ .
- ٤ . نهج البلاغة، ج١، ص ٨٩ .
- ٥ . نهج البلاغة، ج١، ص ١٨٧ .
- ٦ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٧٠ .
- ٧ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥٦، هامش الخطبة .
- ٨ . هيلند، تاريخ العرب، ص ١١١ .

من المسيحيين انهم يسكنون في بيوت دائمة، وهو ليس بصحيح فان المناذرة ملوك الحيرة كانت لهم قصور ومبان مشهورة ومعروفة، الا ان امير المؤمنين (عليه السلام) يريد الاشارة ان الفرس والروم قد استغلوا هذه الكيانات المصطنعة وابعدوا جملة العرب عن هذه المناطق الخصبة ذات المناخ الجميل الى مناطق ذات مناخ قاس وصحراء كبيرة يندر وجود الزراعة فيها والمياه الا من بعض العيون التي يحدث عنها العربي لتأمين عيشه فيها وانه لا يستطيع الوصول الى اماكن تواجد المواليين لهاتين القوتين، فاصبحوا متفرقين في الصحراء العريضة من شبه الجزيرة العربية. وعلى هذا يدرس الماضي ويعتبر به فان الابعاد التاريخية دائماً في سير فتراضي الازمنة الثلاثة وتطوي الاوقات تغير مستمر بلا استراحة وسير دائب بلا وقفة.

المبحث الثاني: بعد الواقع المعاش (الحاضر)

تأطر واقعه (عليه السلام) بجملة من العلاقات الاجتماعية بينها بوضوح وبشكل جلي بجميل العبارة، فلا تقبل اللبس والتأويل الا بما هو كلام البلاغة العربية واساليبها المتنوعة، وفي هذا المبحث نأخذ جملة هذه العلاقات كملامح تذكيرية يمكن ان يسعها غير هذا البحث وذلك لطول الوقوف عندها.

اولاً: علاقته برسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)

اوضح تلك العلاقة بالقرابة القريبة في المنهج والتربية والسلوك بل امتزجت النفوس، فقد قال في خطبته القاصعة: «وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وانا ولد يضمني الى صدره ويكفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه»، وهذا النص يؤكد نوع العلاقة الحميمة بين

بين الاثنين وهي مما لا يقبل الشك والريب لمن تتبع سيرته المتطابقة مع فعل وقول وتقرير الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ونقلت كتب المسلمين الاحاديث الكثيرة في بيان تلك العلاقة، يقول الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في تاريخ بغداد في ترجمته (عليه السلام): «ومناقبة اشهر من ان تذكر وفضائله اكثر من ان تحصر»^١.

ان هذه العلاقة التي عرفها الجميع ينقلها امير المؤمنين (عليه السلام) لنا بأجمل صورة بلاغية تأخذ بالقلوب وترتفع بالايمان، فهو يصف العلاقات المتبادلة فينقل عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) صورته عنه فيقول: «وما وجد لي كذبة في قول ولا خطل في فعل»^٢، ثم يقول: «ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علماً»^٣.

هذه هي التربية النبوية وهذا هو الحال (الحاضر) وهو الواقع المعاش الذي عاشه امير المؤمنين في علاقته مع النبوة وقربه منها، ثم يصف هذه العلاقة باعلى من ذلك فيقول: «ويأمرني بالاعتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وخديجة وانا ثالثهما ارى نور الوحي والرسالة واشم ريح النبوة»^٤، من نال مثل هذه العلاقة بالاقربى الفعلية المادية والمعنوية وهي دلالة على الاولوية على غيره مهما قرب من ذلك.

١ . المرجع نفسه، ص ١١٢ .

٢ . المطبعي، حميد، العلامة الدكتور حسين علي محفوظ، (بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٩م)، ص ١٥٣ .

٣ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٧٣ .

٤ . الخطيب البغدادي، ابو بكر احمد بن علي، تاريخ بغداد مدينة السلام، تحقق: صدقي جميل العطار، (بيروت : دار

الفكر، ١٤٢٤هـ)، ج١، ص ١٠٨ .

٥ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٧٣ .

٦ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٧٤ .

٧ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٧٤ .

وقد بادل الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) هذه العلاقة من الحب والمودة والاخلاص فقال له (صلى الله عليه واله وسلم): «انك تسمع ما اسمع وترى ما ارى الا انك لست بنبي ولكنك لوزير وانك لعلی خير»^١، وقد تكرر لفظ الوزير في عدة مواضع من حياة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) مع ان العرب لم تعرف نظام الوزارة في حياتها السياسية، قال تعالى: «وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي»^٢، يقول الراغب الاصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) في مفرداته: «والوزير المتحمل ثقل اميره وشغله»^٣، والامام هو المتحمل عن الرسول ثقله وشغله، هذه العلاقة المتبادلة منذ بداية الولادة ينم على التأمل والنظر في جذورها والتعلق بها فهذا النوع من العلاقة التي ايدها النص القرآني في آية المباهلة اذ عبر عنه بالنفس وهي اعلى مستوى للعلاقات بين الناس، قال تعالى: «وأنفسنا وأنفسكم»^٤ اذ جعل النبي والامام نفس واحدة وذكر ذلك المفسرون من المسلمين في كتبهم التفسيرية قديماً وحديثاً.

وعند الوقوف على كلامه (عليه السلام) وهو ينطق بـ: «اشهد ان لا اله الا الله، شهادة ايمان وايقان واخلاص واذعان، واشهد ان محمداً عبده ورسوله، ارسله واعلام الهدى دارسة ومناهج الدين طامسة فصدع بالحق ونصح للخلق وهدى الى الرشد وامر بالقصد (صلى الله عليه واله وسلم)»^٥، ولفظة مناهج قد استعملها امير المؤمنين في خطابه هذا وربما يعد اقدم من ذكرها في الفكر الاسلامي وهي ذات دلالات في عصرها لان المفاهيم تتطور، ولكن لفظة مناهج هي اليوم ذات قيمة علمية رفيعة في البحث العلمي.

واستعمل (عليه السلام) لفظ منهج ويعني به الطريق معبراً عن بعثة النبي (صلى الله عليه واله وسلم): «بعثه حين لا علم قائم ولا منار ساطع ولا منهج واضح»^٦، ثم بين نوع العلاقة والاتباع المملوء ثقة ويقين لا اتباع عن عمى بل عن يقين واعلى منه وهو يعلن خطابه الواقعي امام الصحابة بانه قال: «لم ارد على الله ولا على رسوله ساعة قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الابطال، وتتأخر فيها الاقدام نجدة اكرمني الله بها»^٧. هذا النص يشير الى معنى الاقربية الحقيقية بينهما فقد بدأت منذ الولادة ثم انتهت العلاقة كما بدأت فقد عبر عنها: «ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه واله وان رأسه لعلی صدري ولقد سألت نفسه في كفي فمررتها على وجهي..... فمن ذا احق به مني حياً وميتاً»^٨، والكلام الاخير نتيجة لما قبلها فهو الاحق والمقدم على غيره في هذه العلاقة التي جعلت منه اماماً يسير على هدى الرسالة لا يخالفها وهو الاحق بالاتباع من غيره.

وقال وهو يغسله: «بابي انت وامي يا رسول الله، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والابناء واخبار السماء..... الخ»^٩، وقد تناول الامام (عليه السلام) في خطبه وكلامه مفاهيم مفاهيم هذه العلاقة في اغلب فصول الكتاب مبيناً شكل هذه العلاقة بينهما فلا يبقى مجالاً للشك من انه ازاح الشكوك والشبهات حول هذه العلاقة التي كانت المسار الحقيقي لمن يريد معرفة الاسلام والسير على خطاه، ومن الغريب من بعض الكتاب المعاصرين انه يعنون في بعض فصول كتابه ان علياً (عليه السلام) اراد الدنيا ولن ترده ثم ينقل كلامه بشكل غير موضوعي عن الاحداث التي

١ . المصدر نفسه .

٢ . طه / ٢٩ .

٣ . الراغب الاصفهاني، المفردات، ص ٥٤٥ .

٤ . آل عمران / ٦١ .

٥ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٨٣ .

٦ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٨٥ .

٧ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٨٦ .

٨ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٨٥ .

٩ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٣٥ .

وقعت والحروب التي دارت بين المسلمين والنتائج المترتبة من خياله مع قشرية الرؤية بلا معرفة حقيقية وبيان لتلك العلاقة الحقيقية والممارسات الفعلية على مستوى التطبيق لتظهر الحقيقة.

ثانياً: علاقته بالصحابة

وفي بيان حاضره وواقعه كان يصف الصحابة وعلاقته بهم مع بيان الحق مهما كانت النتائج، وهنا يعرض مفهوم اهل البيت وعلاقة الصحابة بهذا المفهوم ومدى ثقافتهم بهذا المفهوم على مدى واقعة وحاضره ومن هم الذين يتمسكون بهذا المفهوم نظرياً وعملياً لذا ذكر في بعض خطبه هذه العلاقة بينه وبينهم: «انظروا اهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا اثرهم...»^٢، ثم يصف اصحاب النبي (صلى الله عليه واله وسلم) باجمل وصف اذ يقول: «لقد رأيت اصحاب محمد (صلى الله عليه واله وسلم) فما ارى احداً يشبههم منكم...»^٣، ثم يعدد صفاتهم من الورع والزهد والبرقة والصبر والشجاعة وغيرها من الصفات التي فقدت في الذي يراه في خلافته ففي معركة صفين ذكر اصحاب محمد (صلى الله عليه واله وسلم) بقوله: «ولقد كنا مع رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)، نقتل آباءنا وأبناءنا وأخواننا واعمامنا ما يزيدنا ذلك الا ايماناً وتسليماً.....»^٤.

وقال يوماً لابي ذر الغفاري: «انك غضبت لله، فارح من غضبت له، ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك في ايديهم ما خافوك عليه.... لا يؤنسك الا الحق ولا يوحشك الا الباطل، فلو قبلت دنياهم لاحبوك ولو قرضت منها لأمنوك»^٥، وترحم على احد الصحابة وهو خباب بن الارت (ت ٣٧هـ)^٦، فقال: «يرحم الله خباب بن الارت فلقد اسلم راغباً وهاجر طائعاً ووقع بالكفاف ورضي عن الله وعاش مجاهداً»^٧.

ولما توفي سهل بن حنيف الانصاري^٨ بالكوفة بعد مرجعه معه من صفين وكان احب الناس اليه، قال عنه: «لو احبني جبل لتهافت» يشير الى ان المحنة تغلظ عليه فتسرع المصائب اليه، وقال للاشعث بن قيس^٩ وقد عزي عن ابن له توفي: «يا اشعث ان صبرت جرى عليك القدر وانت مأجور وان جزعت جرى عليك القدر وانتم مأزور»^{١٠}.

وقال لانس بن مالك (ت ٩١هـ) بعد ما بعثه الى طلحة والزبير ليذكرهما بما سمع من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ولكنه رجع مدعياً انه نسي فرد عليه امير المؤمنين (عليه السلام):

- ١ . للمزيد ينظر: ابن قرناس، سنة الاولين تحليل مواقف من الدين وتعليقها، منشورات الجمل، ٢٠٠٨م، ص ٤٧٨ - ص ٤٨٨.
- ٢ . نهج البلاغة، ج١، ص ١٩٠ .
- ٣ . المصدر نفسه .
- ٤ . المصدر نفسه، ج١، ص ١١٢ .
- ٥ . المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٤١ .
- ٦ . هو خباب بن الارت من بني سعد بن زيد مناة حليف لبني زهرة كنيته ابو يحيى مات بالكوفة منصرف الامام من صفين وصلى عليه امير المؤمنين ودفن بالكوفة، ابن حبان، ابو حاتم محمد، تاريخ الصحابة الذين روي عنهم الاخبار، تحقق: بوران الصناوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ)، ص ٨٨ .
- ٧ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٧٤ .
- ٨ . هو سهل بن حنيف بن واهب بن الحكيم كان من البدريين سكن الكوفة ومات فيها وصلى عليه امير المؤمنين عليه السلام سنة ٣٨هـ، ابن حبان، تاريخ الصحابة، ص ١٢١ .
- ٩ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٨٥ .
- ١٠ . الاشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، سكن الكوفة وشهد صفين مع امير المؤمنين عليه السلام وكانت ابنته عند الامام الحسن عليه السلام مات بعد شهادة الامام باربعين ليلة، ابن حبان، تاريخ الصحابة، ص ٣٥ .
- ١١ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٦٢٥ .

«ان كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لامعة لا توارىها الممامة [كذا] والصحيح في النسخ العمامة»^١.

وقال لجابر عبد الله الانصاري (ت ٧٩هـ): «يا جابر قوام الدين والدنيا باربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستتكف ان يتعلم وجواد لا يبخل بمعرفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فاذا ضيع العالم علمه استتكف الجاهل ان يتعلم، واذا بذل الغني بمعرفه باع الفقير آخرته بدنياه»^٢.

وهناك العديد من الالفاظ البلاغية التي توضح مراداته من هذه العلاقة التي يراها ان تتبع امر الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في معرفة حقه وشخصيته في اقامة العدل واسس الاسلام وقواعده، ولكنه رأى غير ذلك فعبر بعدة خطب لا يسع ذكرها في هذا البحث.

ونقل ابن سينا حديثاً في رسالته المعراجية المكتوبة باللغة الفارسية عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) يدعو امير المؤمنين الى التقرب الى الله بالعقل فاورد احد المحشين على هذه الرسالة بان امير المؤمنين بين الصحابة عقل وغيره حس وهم بحاجة الى العقل لانهم حواس^٣.

ثالثاً: علاقته بأعدائه

تمتع امير المؤمنين (عليه السلام) باخلاق الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وبأصل تربيته حتى مع اعدائه وعلاقته بهم، ومن تصرفه هذا نعلم حركة المعصوم في السلوك الفعلي الاجتماعي مع الاعداء والاصدقاء، وهنا سنبين بعض هذه المواقف الانسانية قبل اتخاذ قرار الصراع، فان النزعة الانسانية عرفها امير المؤمنين منذ ان عرف الاسلام، فانه يخاطب الناس بهذه النزعة التي رفع شعارها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) فان فعلهم حجة وهدى الى الصراط المستقيم الدنيوي والاخروي، اما ما نراه من فعل المسلمين من القسوة والعنف فهو من فعلهم لا من نظرية الاسلام ابدأ.

قال (عليه السلام) لطلحة والزبير: «لقد نعمتما يسيراً، وارجأتما كثيراً الا تخبراني أي شيء كان لكما فيه حق دفعتما عنه؟ والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية اربة، ولكنكم دعوتوني اليها وحلمتموني عليها.....»^٤، ثم يقول في موضع اخر: «وانهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه.....»^٥، وهنا يصف واقع البيعة له من هؤلاء الذين نكثوا بيعته ثم خرجوا عليه وكانت معركة الجمل وهو يصف اثرها في مقتل الخليفة عثمان وفي بيعته لكن امير المؤمنين يشير في اغلب كلامه الى كوامن النفس البشرية للوصول الى غاياتها على نحو الترتب، لذا قال في اخر كلامه: «اخذ الله بقلوبنا وقلوبكم الى الحق.....»^٦.

ومن نزعته الانسانية وقد سمع بعضهم يسبون اهل الشام فقال: «اني اكره لكم ان تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتهم اعمالهم وذكرتم حالهم كان اصوب في القول وابلغ في العذر وقلتم مكان سبكم اياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»^٧.

واما علاقته مع الخوارج فقد ارسل اليهم عبد الله بن عباس للاحتجاج والمناظرة واوصاه بقوله: «لا تخاصمهم بالقرآن، فان القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة فانهم لن

١ . المصدر نفسه، ج٤، ص٦٢٨ .

٢ . المصدر نفسه، ج٤، ص٦٢٨ .

٣ . أملي، جواد، الحكمة النظرية والعملية في نهج البلاغة، (قم: نوى القربى، بلا)، ص٣٢ .

٤ . نهج البلاغة، ج٣، ص٣٩٧ .

٥ . نهج البلاغة، ج٢، ص٢٤٨ .

٦ . المصدر نفسه، ج٢، ص٣٩٨ .

٧ . نهج البلاغة، ج٣، ص٣٩٩ .

يجدوا عنها محيصاً»^١، وهي اشارة عظيمة لمن يشتغل بالتشريع الاسلامي فان السنة تتكلم عن الجزئيات وتفصيلاتها فلا مرد من الانصياع لها في حين ان القرآن هو القانون الاساس العام الذي يحتاج من يشرحه ويفسره ويذكر فيه مواطن التطبيق الفعلي على مستوى الواقع الذي لا ينكر.

وقد كتب معاوية كتاباً ذكر في ذيله: «واقبل الي في وفد من اصحابك»^٢، اشارة الى روح النزعة الانسانية الخالصة وحقن دماء المسلمين، ورد على معاوية في رسالة جوابية قائلاً: «اما بعد فاننا كنا نحن وانتم على ماذكرت من الالفة والجماعة ففرق بيننا وبينكم امس أنا آمن وكفرتم واليوم انا استقمنا وفتنتم وما اسلم مسلمكم الا كرهاً»^٣.

ومن كتاب ارسله الى طلحة والزبير جاء في اخره: «فارجعا ايها الشيخان عن رأيكما فان الآن اعظم امركما العار من قيل ان يتجمع العار والنار والسلام»^٤.

وقد رد على معاوية في دعوته الى حكم القرآن قوله: «وقد دعوتنا الى حكم القرآن ولست من اهله ولسنا اياك اجبنا ولكننا اجبنا القرآن في حكمه»^٥.

وهذه الممارسات من امير المؤمنين (عليه السلام) تحتاج الى دراسة حفرية في الفقه السياسي من منطلق نظرية الاسلام واسسه في التعامل مع الاحداث أي تعامل الحاكم السياسي في الواقع المعاش وكيفية اتخاذ القرارات على اسس القانون الاسلامي وعلى راس هذا القانون القرآن الكريم.

وهناك العديد من الارشادات والاحكام التي تبناها الامام (عليه السلام) مع من خالفه واعلن واكتم العداء له، موزعة في مطاوي كتاب نهج البلاغة.

رابعاً: علاقته باصحابه ومحبيه

كانت العلاقة بينه وبين اصحابه ومحبيه علاقة الايمان والمحبة الواجبة والاطاعة لله ولرسوله ومحبته لهم، فنراه يقول ويتحسر: «اين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ اين عمار؟ واين ابن النيهان؟ واين ذو الشهادتين؟ واين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية.... اوه على اخواني الذين تلووا القرآن فاحكموه وتدبروا الفرض فاقاموه احيوا السنة واماتوا البدعة دعوا للجهاد فاجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه»^٦.

هذه العلاقة بينه وبينهم قد بنيت على اسس الايمان والتقوى ومثل هذه العلاقات لا تنزحزح ابداً مهما كانت الاحوال والظروف لذا كان يقول لهم: «انتم الانصار على الحق والاخوان في الدين»^٧، ومفهوم الاخوان في الدين من اعظم المفاهيم في النظرية الاسلامية الذي يحفظ البنية الاجتماعية للامة الاسلامية.

وقد اشار الى اصحابه في التعاون بينهم في ساحة الحرب وغيرها في عدة خطب وكلام له. وفي كلام قاله لاصحابه وهو يحثهم على الجهاد وهو من روائع كلامه (عليه السلام): «ولا تجتمع عزيمة ووليمة»^٨ وعلق الشيخ محمد عبده في الهامش شارحاً لهذه العبارة بقوله: «أي لا يجتمع طلب المعالي مع الركون الى اللذائذ»^٩.

١ . المصدر نفسه، ج٤، ص٥٦٣ .

٢ . المصدر نفسه، ج٤، ص٥٦٢ .

٣ . المصدر نفسه، ج٤، ص٥٥٠ .

٤ . المصدر نفسه، ج٤، ص٥٤١ .

٥ . نهج البلاغة، ج٤، ص٥١٣ .

٦ . نهج البلاغة، ج٢، ص٣٢٩ .

٧ . المصدر نفسه، ج٢، ص٢٢٦ .

٨ . المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٢ .

ووصف محبيه ومبغضيه بكلام فقال: «لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على ان يبغضني ما ابغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على ان يحبني ما احبني، وذلك انه قضي فانقضى على لسان النبي الامي (صلى الله عليه واله وسلم) انه قال: يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق»^٢.

وبهذا النص تتضح علامة الايمان وعلاقة النفاق وربما التوفيق في الاخذ على هدى الامام ممن يتركه ويتبع غيره ويمكن اعتماد ذلك في وسائل تقويم رجال الاسناد مع المتون، فهي قاعدة فكرية وعلمية وضعها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم).

وقال لاحد اصحابه: «طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الارض بساطاً وترابها فراشاً وماءها طيباً، والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً ثم قرضوا الدنيا قرضاً...»^٣.

هذه الثنائية هي ثقافة المسلم ثم ترجيح المنافع والمصالح الآخروية على المنافع والمصالح الدنيوية بالزهد في الثانية والرغبة في الأولى لعدة مرجحات يتبعها العقل ويرشدها النقل وفي عصرنا انتهى الصراع الى العقل وازاحة النقل في العالم المتطور اليوم فوجدت العدمية الوجودية والعلمانية والماركسية والكثير من هذه الاسماء، نحن نعيش في عصر همش واقصي النقل وكاننا خلقنا انفسنا بايدينا، ان النقل لن يقبل العقل بل يرشده ويأمره، قال تعالى: «اعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ»^٤، يقول زكي نجيب محمود: «ان الاسلام مجموعة من القيم التي لا احسب عاقلاً على وجه الارض يرفض شيئاً منها من حيث هي مثل عليا»^٥.

وخرج (عليه السلام) مع كميل بن زياد النخعي وهو من اصحابه ومحبيه فبلغه من علمه ودعاءه ما خلد به ذكره ونحن نلهج اليوم بذكر الكلمات والدعاء بل الملايين اليوم يقرؤون دعاءه الذي علمه اياه، هذه الكلمات التي طرفت سمعه هي تطرق سمعنا اليوم: «يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وانت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق... الخ»^٦.

وعلم كاتبه جودة الخط فقال: «الق دواتك واطل جلفة قلمك وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف فان ذلك اجدر بصباحة الخط»^٧ والنص يشير الى اهتمامه بفن الخط العربي وهذه اشارات جمالية فنية رائعة تؤكد اهتمامات الامام بالكتب والمراسلات في العلاقات الدبلوماسية مع خصومه واصحابه وولاته.

وفي بيان المعيارية في التعامل الاسري قال لبعض اصحابه: «لا تجعلن اكثر شغلك بأهلك وولدك: فان يكن اهلك وولدك اولياء الله فان الله لا يضيع اولياءه وان يكونوا اعداء الله، فما همك وشغلك باعداء الله؟»^٨.

واعظم ما جاء في الفقه السياسي عهده لمالك الاشر في ادارة مصر، وهو يصلح على عمومه في ادارة الدول الحديثة^٩، فقد جاء فيه التخطيط والتنظيم وقيادة الشعب والرقابة وموانع القيادة^{١٠}،

- ١ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٤١ .
- ٢ . هامش نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٤١ .
- ٣ . المصدر نفسه، ج٤، ص ٥٧٤ .
- ٤ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٨٣ .
- ٥ . الربيعي، حسن كريم ماجد، النقل والعقل دراسة في حاجة العقل للنقل، بحث غير منشور وغير مرقم .
- ٦ . الحشر، آية ٢ .
- ٧ . محمود، زكي نجيب، تجديد الفكر العربي، (بيروت : دار الشروق، ١٤٠٢هـ)، ص ٦٨ .
- ٨ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٩٤ .
- ٩ . المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٢٩ .
- ١٠ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٦٣٦ .
- ١١ . للمزيد ينظر: نور الدين ن عباس، عهد امير المؤمنين الى القادة والمسؤولين، (بيروت: مركز بقية الله الاعظم، ١٩٩٨م).
- ١٢ . المرجع نفسه، ص ١٣٩ - ص ١٤٤ .

والعهد قد شرحه العديد من العلماء بل اعتمد عليه الكثير من اهل القانون ومن كتب في السياسة واعتبره الشيخ محمد حسين النائيني رحمه الله في كتابه المعروف (تنبيه الامة وتنزيه الملة) بل عد نهج البلاغة مع العد من مصادر علم السياسة.

كان امير المؤمنين (عليه السلام) يحب مالك الاشتر فلما جاء نعيه قال: «مالك ومالك، والله لو كان جبلا لكان فنداً، ولو كان حجراً لكان صلداً لا يرتقيه الحافر ولا يوفي عليه الطائر»^١.

خامساً: علاقته بعائلته

يذكر الامام (عليه السلام) في واقعة الاسري الحرص على امتداد الرسالة الاسلامية بابنيه الامامين الحسن والحسين عليهما السلام، ففي بعض ايام صفيين وقد رأى الحسن (عليه السلام) يتسرع الى الحرب فقال: «املكوا عني هذا الغلام لا يهدني فأنني انفس بهذين - يعني الحسن والحسين عليهما لاسلام - على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)»^٢، وهو اشارة مهمة في امتداد خط الرسالة الاسلامية بهما وبوجودهما لانهما سيدا شباب اهل الجنة كما هو في الاحاديث المتفق عليها بين المسلمين وان وردا بالفاظ تدل على معاني قربهم من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ليس القرب النسبي وحده بل القرب المعنوي والرسالي، وقد ورد في البخاري (ت ٢٥٦هـ) قول رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) لهما: «هما ريحانتي من الدنيا»^٣ ووصف آل محمد «صلى الله عليه واله وسلم» باعظم وصف فقال: «عقلوا الدين عقل وعاية، لا عقل سماع ورواية، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل»^٤، ان مفهوم العقل النظري والعملي هو عقل الوعاية والرعاية وهي مفاهيم يشير اليها الامام امير المؤمنين (عليه السلام) أي العمق لا الفهم القشري السطحي الذي ابتلت به الامة حتى يومنا هذا.

قال بعض المعاصرين: «ان مطلق الادراك والارشاد انما هو من العقل النظري فهو بمنزلة المشير الناصح والعقل العملي بمنزلة المنفذ الممضي لاشاراته وما ينفذ فيه الاشارة فهو قوة الغضب والشهوة»^٥.

وقبل شهادته كتب وصيته وجاء فيها: «اوصيكما وجميع ولدي واهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم امركم وصلاح ذات بينكم.... والله الله في القرآن.... في الصلاة..... في بيت ربكم..... في الجهاد»^٦.

ومن اعظم الوصايا وصيته لابنه الحسن (عليه السلام) وهي وصية احتوت مضامين عالية جداً تستحق ان تكون من طرائق التدريس في التربية والتعليم العالي الجامعي بخصوص علاقة الاب بابنه واسرته وكيف يقدم له الوصية المكتوبة وكيف يعرف فلسفة هذه الحياة وثقافة الاسلام فيها، فقد جاء في بعض فقراتها: «احي قلبك بالموعة وامتة بالزهادة، وقوه باليقين ونوره بالحكمة وذلك بذكر الموت..... الخ»^٧، تتحدث الوصية المكتوبة في عدة ابعاد من اهمها الابعاد الفكرية والتاريخية للحياة وكيف يسير الانسان في خضم هذه الاحداث التي تواجهه؟، ان مفهوم الاحياء الذي ذكره الامام (عليه السلام) يوحي الى تجديد الفكر دائماً والا كيف يحيى قلبه فأليات الحياة في تجدد كيف لا يتجدد الفكر بألياته الجديدة والتي هي انجع واقرب، كالمعلومة الان التي

- ١ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٦٥٦ .
- ٢ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٩٩ .
- ٣ . البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، المثني به : محمد محمد تامر، (القاهرة: مؤسسة المختار، ١٤٢٤هـ)، ج٢، ص ٨٥٠ .
- ٤ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٣٩ .
- ٥ . السنند، محمد، العقل العملي دراسة منهجية في الحسن والقبح العقليين والبرهان في الجزئيات والادراكات الاعتبارية، (قم : منشورات الاجتهاد، ١٤٢٩هـ)، ص ٢٣٥ .
- ٦ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٥١١ .
- ٧ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٧٥ ؛ للمزيد ينظر : المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٧٣ - ص ٤٩٠ .

اصبحت اسهل ما يمكن بمجرد ضغطة زر فيفتح العالم امامك لتقطف ما تريد من المعلومات وتحمل ما تشاء وانت في بيتك جالس او قائم او أي صورة انت فيها، في حين كانت في زمن مضى تستغرق الايام والليالي.

جاءت في هذه الوصية عدة مفاهيم للكون والحياة والواقع والاختيار والاخبار في ابعادها وعناصرها، وحلول السلوك العام والخاص، ومن اعلاها القيم الاخلاقية المرتبطة ارتباطا واقعيا مع الارادة الظاهرة والباطنة للنفس الانسانية مع الجمع بين العمل الدنيوي والاخروي بما يوصل الى الاخرة دار المقامة.

وفي كلام له لابنه محمد بن الحنفية يصف آفة الفقر في المجتمع واثرها في الواقع الاجتماعي قال (عليه السلام): «يا بني اني اخاف عليك الفقر فاستعد بالله منه، فان الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل داعية للمقت»^١.

وهنا حذر الامام من آفة الفقر التي تشغل فكر الانسان عن الدين وتدهش حركة العقل عن التفكير الا بما يشغله بسد رمق الحياة بل ربما يتحول الانسان الى مجرم متحلل من القيم والروابط وهي ردة فعل سببها الفقر والعوز وهو لا ينتظم مع الحياة الفكرية والعلمية فتتجمد القوى الفكرية وتشتغل القوى العضلية.

وفي تعبيره عن مقتل محمد بن ابي بكر الذي كان يحبه بل يعتبره من اهله قوله: «ان حزننا عليه على قدر سرورهم به، الا انهم نقصوا بغيباً ونقصنا حبيباً»^٢.

وفي مجال الفقه كتب وصيته بما يعمل في امواله وقد اعطى الحق للامامين الحسن والحسين عليهما السلام في القيام بتنفيذها ثم علل ذلك بعد ان ذكر: «وان لابني فاطمة من صدقة علي مثل الذي لبني علي واني انما جعلت القيام بذلك الى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله وقربة الى رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وتكريماً لحرمة وتشريفاً لوصلته»^٣.

وله كلام عند قبر رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) لما دفن سيدة النساء فاطمة الزهراء سلام الله عليها يصف واقع الحال وما حل به بعد احداث السقيفة وما بعدها يشكو لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) الاحداث والوقائع عليه وعلى زوجته الزهراء فمنها: «وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فاحفها السؤال واستخبرها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر»^٤، وهذا النص يشير اشارة واضحة انها سلام الله عليها ذهبت حزينة لما جرى عليها غير راضية بل غاضبة، روى البخاري في صحيحه «ان رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) قال: فاطمة بضعة مني فمن اغضبها اغضبني»^٥.

المبحث الثالث: بعد المستقبل

المستقبل ذلك المجهول الذي يخافه الانسان ويتمنى معرفته، ولكن حركته خاضعة الى عوامل محركة لصناعته لها ارتباط في ماضيه وحاضره ومستقبله لا انفكاك بينهما ولكن على نحو التقدم والتطور لا يمكن الرجوع وهذه هي السنوات المستمرة وهذا هو التاريخ وحركته فلا الماضي تخلف ولا الحاضر ولا حتى المستقبل لان حركة وعجلة التاريخ الى الامام لا الى الخلف، ولكنها دروس تقرأ وتتجدد الآليات والرؤى والافكار، ان الحضارة الحديثة قد ركزت على التطور

١ . نهج البلاغة، ج٤، ص ٦٣٠ .

٢ . المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٣١ .

٣ . المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٦٠ .

٤ . نهج البلاغة، ج٣، ص ٣٩٦ .

٥ . البخاري، الصحيح، ج٢، ص ٨٥٣ ؛ مسلم، ابن الحجاج القشيري النيبابوري، صحيح مسلم، «القاهرة: مؤسسة المختار، ١٤٢٦هـ)، ص ١٠٣٥ مع اختلاف عبارة يغضبني الى يؤذيني.

المادي مع تأخر مأساوي في مجال المعنويات^١، وهو ما يخالف الثقافة الاسلامية التي تنظر الى التطور وحركة التاريخ مصاحبة للثنتين المادي والمعنوي، وهكذا هو رؤية الامام (عليه السلام) للتاريخ وحركته فهو يتحدث عنه باعتباره رجل الرسالة والعقيدة والقائد الحضاري والمفكر المستقبلي^٢.

ان اهتمامات الامام (عليه السلام) بحركة التاريخ هو لحل اشكالية الانسان مع تغير قدرته على التكامل الروحي والمادي مع الحفاظ على الطهارة الانسانية^٣ قال تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^٤، هذه السنن تحكم المستقبل وهذه الاية تميز بين الحركة المادية الصرفة والحركة المركبة وربما هي اشارة الى من يعتمد المدرسة المادية (كالفكر الغربي) او من يعتمد المدرسة المركبة -الدينو-أخروية- كالفكر الديني الاسلامي والاديان الاخرى فهو فكر يعتمد الثنائية في ثقافته وينفي الاحادية في التفكير.

ان التفسير الاسلامي لحركة المجتمع لا يتبنى النظرة الاحادية لحركته وانما يدخل عناصر اخرى مؤثرة فيه^٥، في حين ترى المادية التاريخية ان الانتاج هو اساس التطور الاجتماعي فعليه يجب البحث في تطور القوى المنتجة لانها المحور الرئيسي لتحرك البشرية^٦، ثم تطورت المفاهيم بتركيز الفردانية وجعله المركز الذي تدور حوله المصالح، لذا يقول برتراند رسل: «ان شعور المرء بكرامته يعني معرفته لقيمته الذاتية واهميته من حيث هو انسان وعدم تضحيته لمصالحه في سبيل مصالح الغير»^٧، هذه الثقافة قد غزت العالم اليوم في حين ان ثقافة الفكر الاسلامي تعتمد روح الايثار وقضاء مصالح الغير لكسب الخير في الدنيا والاخرة وهي ثقافة قد انحسرت حتى في عالمنا اليوم بتأثير الفكر المادي وانتصاره الحضاري.

كان امير المؤمنين (عليه السلام) يعي المرحلة التاريخية ويعرف ويشخص داء الامة ودوائها لذا كان يهتم بالحركة التاريخية وما ستؤول اليه الامور بعده فقد حذر من ظاهرة الاموية المتصاعدة، لذا اخبر بظهور معاوية على مسرح الاحداث لعوامل عديدة ساعدته على الظهور السياسي لذا قال لاهل الكوفة: «اما انه سيظهر عليكم بعدي رجل... يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد...»^٨، ويبدو ان امير المؤمنين (عليه السلام) يريد ان يبين مستقبلهم أي الكوفة وغيرها ستخضع لحكم معاوية طويلاً.

كان امير المؤمنين (عليه السلام) قد اعلم غيره بعد الفتنة التي اطاحت بعثمان ولما اراده الناس رفض ولكنهم اصروا فقال: «دعوني والتمسوا غيري فانا مستقبلون امراً له وجوه والوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول...»^٩، وهي اشارة صريحة الى تعقد المسرح السياسي وصعوبة اعادة النظرية الاسلامية والتخلص من بعض النظم التراكمية التي بنيت على الحكم الاجتهادي

١ . للمزيد ينظر: شمس الدين، محمد مهدي، حركة التاريخ عند الامام علي عليه السلام دراسة في نهج البلاغة، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، ١٤١٨هـ)، ص ٢٤ .

٢ . المرجع نفسه، ص ٢٩ .

٣ . المرجع نفسه، ص ٣٠ .

٤ . الاعراف / ٩٦ .

٥ . للمزيد ينظر: الحسيني، عبد الرحيم، مستقبلنا المعالم النظرية لاستشراف المستقبل الاسلامي، (قم: دار الغدير، ١٤٢٤هـ)، ص ٧٦ .

٦ . كيلله، فلاديسلاف وما تفي كوفالسون، المادية التاريخية دراسة في نظرية المجتمع الماركسية، (موسكو، دار التقدم، بلا)، ص ٣٨٤ .

٧ . رسل، برتراند، السلطة والفرد، ترجمة: نوري جعفر، (كولونيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٥م)، ص ٨٠ .

٨ . نهج البلاغة، ج١، ص ١١٣ .

٩ . نهج البلاغة، ج١، ص ١٧٨ .

الفردى وفيها التفاضل الاجتماعى وظهور الطبقيّة فى المجتمع التى تركزت كثافة لدى الطبقات المترفة بل تطمح بالمزيد واذا بها ترى العكس الرجوع الى المساواة.
ومن خطبة له يصف حال الظاهرة الاموية فى التغيير الاجتماعى والتسلط السياسى فيقول: «ولا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم الا نافعاً لهم او غير ضائر بهم...»^١، وهذا شأن الحكومات الاستبدادية الى يومنا هذا، ويمكن للباحث ان يدرس قيام الدولة الاموية ويرى بنفسه واقعها ويحكم بشكل موضوعى غير مؤدلج لها وعليها.

فان الظاهرة الاموية يشخصها امير المؤمنين (عليه السلام) فى خطبته بالتغيير الاجتماعى والتغيير الدينى لذا يقول: «واصاب البلاء من ابصر فيها» أى نزل به بلاء الانتقام من بنى امية بعد معرفته الحق^٢، ثم تسقط هذه الدولة بعد ان تأخذ دورتها ويتسع ظلها فيأتى «بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصيرة لا يعطيهم الا السيف»^٣، ويعطى امير المؤمنين (عليه السلام) نهايتها وقيام غيرها بحد السيف وذلك يبدو من كلامه مصير الاستبداد السياسى والدول الظالمة التى لا تعي واقعها التاريخى اذ تظلم مجتمعها ثم مصيرها الانهيار، وهذا ما يكتشفه من اشتغل بالحقل التاريخى كحقل من حقول المعرفة بل ان التفكير التاريخى لونه من النشاط المعرفى الذى يقوم به العقل الانسانى، ان ديكارات يصرح بان فكرة الماضى فكرة طبيعية متوارثة فى التكوين الانسانى^٤، لذا تكون دراسة ابعاد التاريخ مهمة فى تطور المجتمعات بل انها تهتم كثيراً بمستقبلها بوضع الخطط والبرامج الاساسية لتطورها.

والوصول الى تكاملها ببعث وعيها التاريخى ودراسة حالات التقدم فيه والتراجع فليس التاريخ وحرركته فى تطور نحو الازدهار او الانهيار بل حالات متبادلة تؤثر فيها جملة من العوامل الداخلة فى انحرافها وتضاعدها وتنازلها كأى حضارة من حضارات التاريخ، مثل الحضارة الاسلامية وتأخرها وتدهورها فى كل البنى التحتية وان وجدت فى اصل نظريتها كافة اصول واسبس القوانين والتشريعات الانسانية لكن الممارسات والتطبيقات تخالفها وهو ما اشار اليه امير المؤمنين (عليه السلام) فى تغيير بنى امية لاصل النظرية الاسلامية فقال: «والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً الا استحلوه ولا عقداً الا حلوه.... وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه وبالك يبكي لديناه...»^٥.

ويقول فى موضع اخر عن هذه الرؤية المستقبلية الحتمية التى نقلها عن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم): «فو الذى فلق الحبة وبرأ النسمة ان الذى انبئكم به عن النبى الامى (صلى الله عليه واله وسلم) ما كذب المبلغ ولا جهل السامع...»^٦، وهنا يؤكد امير المؤمنين (عليه السلام) اقربيته اقربيته من خط الرسالة ويعلن صراحة مصادر معرفته هذه ليثبت حاجة الامة الى الامام المعصوم وهى نظرية الشيعة من الامامية.

ثم يذكر احد الامويين ويعبر عنه بقوله: «لكأني انظر الى ضليل قد نعق بالشام وفحص براياته فى ضواحي كوفان»^٧ وهى اشارة الى عبد الملك بن مروان (٦٥هـ - ٨٦هـ) الذى دخل الكوفة وقد نزل بظهرها فخرجوا اليه وبايعوه وقد عمهم ترغيبه وترهيبه^٨.

١ . المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٤ .

٢ . المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٤ جمعاً بين المتن والشرح .

٣ . نهج البلاغة، ج٢، ص١٨٥ .

٤ . كولنجود، ر . ج، فكرة التاريخ، ترجمة: محمد بكر خليل ن راجعة: محمد عبد الواحد خلاف، (القاهرة: لجنة

التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م)، ص٤٢٨ .

٥ . نهج البلاغة، ج٢، ص١٩٠ .

٦ . نهج البلاغة، ج٢، ص١٩٤ .

٧ . المصدر نفسه .

وأشار الامام (عليه السلام) في حدوث الفتن في مستقبل الايام لحركة صاحب الزنج الذي خرج سنة ٢٥٥ هـ وانتهت فتنه سنة ٢٧٠ هـ فقال: «فويل لك يا بصرة..... من جيش.... لا رهج له ولا حس وسببتي اهلك بالموت الاحمر والجوع الاغبر»^٢ وسميت هذه الثورة بثورة العبيد او ثورة الزبخ واستمرت طويلاً^٣، وفي موضع اخر اخبر عن ملاحم البصرة لذات خبر صاحب الزنج يصف قائدهم: «كاني به وقد سار بالجيش الذي لا تكون له غبار ولا لجب ولا قعقة لجم ولا محمة خيل، يثيرون الارض باقدامهم كأنها اقدم النعام.....»^٤، ثم يقول (عليه السلام): «ويل لسككم العامرة والدور المزخرقة التي لها اجنحة كاجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة من اولئك الذين لا يندب قتلهم ولا يفقد غائبهم.....»^٥، صاحب الزنج دخل البصرة سنة ٢٥٧ هـ واعمل جيشه سيوفهم دون رحمة وخربت البصرة على ايديهم واصبح مثلاً سائراً على الزمن^٦، ويذكر الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه الاحداث مفصلة وما عمله صاحب الزنج بالبصرة في احداث سنة (٢٥٧ هـ) من حرق الدور والمساجد اذ حرق المسجد الجامع وغدر بالناس بعد اجتماعهم^٧ وغيرها مما يشيب رأس الانسان بذكره مثل ما قال امير المؤمنين (عليه السلام) واخبر به.

ورد عليه بعض اصحابه ان هذا الذي تخبر به عن المستقبل هو علم الغيب فنفي امير المؤمنين (عليه السلام) ان يكون من علم الغيب فقال: «ليس هو بعلم غيب، وانما هو تعلم من ذي علم، وانما علم الغيب علم الساعة... الذي لا يعلمه احد الا الله وما سوى ذلك فعلم الله نبيه فعلمنيه ودعا لي بان يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي»^٨.

وهنا يؤكد الامام مصادر معلوماته عن هذه الاحداث في التاريخ الاسلامي فينسب ذلك الى الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ولا يدعي علمه بالغيب ابداً وهنا لانقول ان الامام مؤرخاً بل المستفاد من ذلك اهتمامه بالحركة التاريخية ودورها في البناء الاجتماعي الذي يستدعي منا البحث في هذا الحقل لنعرف حركة التاريخ ومجريات الاحداث وبناء المستقبل والعمل على التطور والبناء والتجديد في مختلف المجالات.

وفي خطبة له رائعة تصف تغير الزمان والاحوال بالناس على مستوى العلاقات الاجتماعية لذا ارشدهم الى الركون الى العلماء الربانيين بقوله: «فاستمعوا من ربانيكم»^٩، هذا الوصف بالمفاهيم المعروضة تشابه زماننا هذا تماماً فقد قال: «وتوآخى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق، فاذا كان ذلك كان الولد غيظاً، والمطر قيظاً، وتفيض اللئام فيضا، وتغيض الكرام غيضا، وكان اهل ذلك الزمان ذئاباً وسلطينه سباعاً واوساطه اكالاً، وفقراؤه امواتاً، وغار الصدق، وفاض الكذب واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسباً، والعفاف عجباً ولبس الاسلام ليس الفرو مقلوباً»^{١٠} ذكرتها

- ١ . للمزيد ينظر : المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٢٥ هـ)، ج٣، ص ١٢٩ ؛ الدينوري، ابو حنيفة احمد بن داود، الاخبار الطوال، تحقق: عبد المنعم عامر، مراجعة : جمال الدين الشيال، (قم: المكتبة الحيدرية، بلا)، ص ٣١٣ .
- ٢ . نهج البلاغة، ج٢، ص ١٩٦ .
- ٣ . للمزيد ينظر : علي، احمد، الاسلام والمنهج التاريخي، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥م)، ص ١٣ وما بعدها.
- ٤ . نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٣٨ .
- ٥ . نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٣٨ .
- ٦ . غلبي، الاسلام والمنهج التاريخي، ص ٦٧ .
- ٧ . الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠م)، ج٩، ص ٤٨١ وما بعدها.
- ٨ . نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٣٩ .
- ٩ . نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٠٦ .
- ١٠ . المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٠٧ .

بطولها لاهميتها اذ تكشف عن واقع ما وصل اليه الناس اليوم فاغلب هذه المفاهيم اصبحت تحكم جملة من العلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس.

ومن عجيب ما يذكره عن الازمنة التي تكون مشابهة لزماننا هذا فانظر وتأمل قوله: «يأتي زمان لا يبقى فيهم من القرآن الا رسمه ومن الاسلام الا اسمه ومساجدهم غامرة من البناء خراب من الهدى....»^١.

وهناك خطب اخرى يذكر فيها الملاحم قد تتشابه مع ما اخترناه من الكلمات والخطب في رؤيته المستقبلية للاحداث ونحن اذ ندرس هذا الفكر نقرر ان اهتمام المعصوم بايراد مثل ذلك يؤكد الاهتمام الكبير بمثل هذه الدراسات وان اختلفت المصادر فمصادره علم تعلمه من الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وعلما نتيجة لاعمال الفكر والنظر والتأمل وهكذا هي نظريات فلسفة التاريخ بانواعها في مختلف المدارس التفسيرية لحركة التاريخ وعلله.

اذ ان التفسير المادي لا يؤمن الا بالمحسوس ويستبعد الغيبيات من مجال بحثه ولا يسلم اصلا بوجودها، وقد ظهر هذا المنهج للتفسير كرد فعل للمنهج الروحي المستمد من التفسير المسيحي للتاريخ^٢، ان الاسلام برؤيته لحركة التاريخ يعدد العوامل المحركة للتاريخ ولكن هناك سنن ثابتة

وقوانين يتحرك بها التاريخ ويخضع لمجملها، فان الوعي التاريخي بالمركب الثقافي الاسلامي - الدينواخروي- وارجاع القوى المحركة الغير محسوسة الى خالقها مع ارجاع القوى المحركة لعوامل الانسان ووجوده وقيمه ومفاهيمه كلها تدخل عوامل محركة للتاريخ كما ذكر ذلك امير المؤمنين (عليه السلام) في اغلب خطبه فان نتائج الظلم والاستبداد معلومة وهو ما آلت اليه الماركسية بتصورها ان لا خالق لهذا الوجود فانهارت الى غير رجعة.

فالاسلام يعتمد الاعتدال ولا يفسر الاشياء برودها فله نظرة واقعية للاشياء لا يترك الدنيا ويعمل للاخرة بل يعمل للثنتين باوامر الهية معللة بالمصالح والمفاسد تجعل من الفرد المسلم مثال الاخلاق والمعرفة والاعتدال هذه هي ثقافة الاسلام من مصادرها الاصلية القرآن والسنة وسيرة الائمة عليهم السلام وفي خطبة له عن اخر الزمان يقول: «واعلموا انكم ان اتبعتم الداعي لكم سلك بكم منهاج الرسول»^٣، وهذا المنهاج لا يمكن تحديده بالامد التاريخي وتقبيده بمدة زمنية ينتهي امدها وهو ما يعرف بالتاريخية التي لا توافق الحداثة وما بعدها، ان القيم الاخلاقية والتشريعات الضامنة لحقوق البشر وبيان اسس العلاقات الاجتماعية وفق اصول تكوين الجنس البشري تحكمها طبيعة الانسان ومراداته الذاتية في البحث عن مسلك النجاة والوصول الى الاستقرار العقلي بمساعدة وارشاد النقل.

الخلاصة

بعد هذه الجولة في الابعاد التاريخية لفكر امير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة يمكن استنتاج ما يأتي:

١- اهمية الفكر التاريخي عند امير المؤمنين (عليه السلام) اذ اوصى بالاستفادة من حركته للموعظة والعبرة واجتياز مراحل الحياة الدنيا الى الاخرة.

٢- الدعوة للنظر في الماضي بوصفه حركة للتاريخ البشري وبالاخص تاريخ الحركة النبوية وسيرتهم.

٣- رؤية الواقع ومحاولة تغييره حسب البنية الاجتماعية بعلاقات متوازنة اذ وضح (عليه السلام) علاقته الخاصة برسول الله (صلى الله عليه واله وسلم).

٤- وفي البعد المستقبلي اكد امير المؤمنين (عليه السلام) على ان مصادره في كشف الاحداث المستقبلية هو ليس علم الغيب وانما هو علم تعلمه من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم).

١ . المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٤٠ .

٢ . طحطح، خالد فؤاد، في فلسفة التاريخ، (بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٠هـ)، ص ٦٨ .

٣ . نهج البلاغة، ج٢، ص ٣٠١ .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
أملي، جواد.
١. الحكمة النظرية والعملية في نهج البلاغة، (قم: ذوى القربى، بلا).
البخاري، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ).
٢. صحيح البخاري، اعتنى به: محمد محمد تامر، (القاهرة: مؤسسة المختار، ١٤٢٤هـ).
التيموي، الهادي.
٣. نظريات المعرفة التاريخية وفلسفات التاريخ في العالم الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين مختارات معربة، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ٢٠٠٨م).
الثقفي، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد بن سعيد (ت ٢٨٣هـ).
٤. الغارات، تحقق: عبد الزهراء الحسيني، (دمشق: دار الكتاب الاسلامي، ١٩٩٠م).
الجابري، محمد عابد.
٥. نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م).
ابن حبان، ابو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ).
٦. تاريخ الصحابة الذين روي عنهم الاخبار، تحقق: بوران الضناوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ).
الحصيني، عبد الرحيم.
٧. مستقبلنا المعالم النظرية لاستشراف المستقبل الاسلامي، (قم: دار الغدير، ١٤٢٤هـ).
الخطيب البغدادي، ابو بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ).
٨. تاريخ بغداد مدينة السلام، تحقق: صدقي جميل العطار، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٤هـ).
الدينوري، ابو حنيفة احمد بن داود (ت ٢٨٢هـ).
٩. الاخبار الطوال، تحقق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال، (قم: المكتبة الحيدرية، بلا).
الراغب الاصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ).
١٠. المفردات في غريب القرآن، ضبط: هيثم طعيمي، (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ).
الربيعي، حسن كريم ماجد.
١١. النقل والعقل دراسة في حاجة العقل للنقل، بحث غير منشور.
رسل، برتراند.
١٢. السلطة والفرد، ترجمة: نوري جعفر، (كولونيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٥م).
الركابي.
١٣. السنن التاريخية في القرآن المجيد، (بيروت: دار النهضة الاسلامية، ١٩٩٦م).
السند، محمد.
١٤. العقل العملي دراسة منهجية في الحسن والتصبح العقليين والبرهان في الجزئيات والادراكات الاعتبارية، (قم: منشورات الاجتهاد، ١٤٢٩هـ).
الشريف الرضي، ابو الحسن محمد بن الحسن الموسوي (ت ٤٠٤هـ).
١٥. نهج البلاغة وهو مجموع ما اختاره من كلام امير المؤمنين ابي الحسن علي بن ابي طالب (عليه السلام)، شرح: محمد عبده، تحقق: عبد العزيز سيد الاهل، (بيروت: دار الاندلس، ١٣٨٢هـ).
شمس الدين، محمد مهدي.

- ١٦ . حركة التاريخ عند الامام علي (عليه السلام) دراسة في نهج البلاغة، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، ١٤١٨هـ).
الصدر، محمد باقر (ت ١٤٠٠هـ).
- ١٧ . المدرسة القرآنية، (قم: شريعة، ١٤٢٦هـ).
الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).
- ١٨ . تاريخ الرسل والملوك، تحقق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠م).
طحطح، خالد فؤاد.
- ١٩ . في فلسفة التاريخ، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٠هـ).
عُلي، احمد.
- ٢٠ . الاسلام والمنهج التاريخي، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥م).
ابن قرناس.
- ٢١ . سنة الاولين تحليل مواقف من الدين وتعليقها، منشورات الجمل، ٢٠٠٨م.
الكفيشي، عامر.
- ٢٢ . حركة التاريخ في القرآن الكريم، (بيروت: دار الهادي، ١٤٢٤هـ).
كولنجوود، ر . ج .
- ٢٣ . فكرة التاريخ، ترجمة: محمد بكير خليل، راجعة: محمد عبد الواحد خلاف، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م).
كيلله، فلاد يسلاف وما تفي كوفالسون.
- ٢٤ . المادية التاريخية دراسة في نظرية المجتمع الماركسية، (موسكو: دار التقدم، بلا).
محمود، زكي نجيب.
- ٢٥ . تجديد الفكر العربي، (بيروت: دار الشروق، ١٤٠٢هـ).
المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ).
- ٢٦ . مروج الذهب ومعادن الجوهر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ).
مسلم، ابن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ).
- ٢٧ . صحيح مسلم، (القاهرة: مؤسسة المختار، ١٤٢٦هـ).
المطبعي، حميد.
- ٢٨ . العلامة الدكتور حسين علي محفوظ، (بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٧٩م).
النائيني، محمد حسين (ت ١٣٥٥هـ).
- ٢٩ . تنبيه الامة وتنزيه الملة، تعريب: عبد الحسين آل نجف، (قم: سبهر، ١٤١٩هـ).
نور الدين، عباس.
- ٣٠ . عهد امير المؤمنين الى القادة والمسؤولين، (بيروت: مركز بقية الله الاعظم، ١٩٩٨م).
هرنشو.
- ٣١ . علم التاريخ، ترجمة: عبد الحميد العبادي، (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م).
هيلند، ربرت.
- ٣٢ . تاريخ العرب في جزيرة العرب من العصر البرونزي الى صدر الاسلام ٣٢٠٠ ق.م - ٦٣٠م، ترجمة: عدنان حسن، مراجعة: زياد منى، (بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م).

الوعي بالزمن في نهج البلاغة

الدكتور: عبد الحسين العمري (جامعة ذي قار)

بوابة البحث:

لعل الشعور بالوعي بالزمن ومحاولة الإفادة من ذلك، إنما تمثل مهمة كبرى من مهمات المعرفة البشرية، ولعلّ محاولة الإفادة هذه، تبنى على معطيات باطنية وظاهرية، أما الباطنية منها فإنها تقوم على أساس استثمار الطاقات الكامنة في العقل الذاتي وحشد الأشكال والأصوات والأحداث في صور مقصودة يجري تركيب بعضها مع بعض بطريقة تنم عن فعل باطني يستغل المعرفة بشكلها الزمني وعلاقتها باستقراء الزمان في ألما بعد وألما قبل فضلاً عن اللحظة الحاضرة، بما يتيح لها حرية استجلاء الصورة أو مجموعة الصور المتكاملة للأحداث وحينها تصبح المعرفة بشكل يمكن الفعل الباطني أن يهيمن على استثمار الزمان من خلال الوعي به .
وأما المعطيات الظاهرية، فهي الأخرى تقوم على أساس التماثل بين صورة أو صور الأحداث والأشكال والأصوات في الباطن ومدى المطابقة مع الوجود الواقعي لها، ومن هنا يتم استثمار الزمان ببعديه الموضوعي والواقعي بما يمنح المعرفة الفرصة لتتربع على قاعدة الوعي بالزمن، الذي يعد بكافة أبعاده - المُحسنة والواقعية - على رأي أرسطو أنه (مقياس أو وظيفة للحركة)؛^١ لأنه متعلق بصيرورة الفعل الذي يقوم به الجسد، مما جعله ينعكس في مرحلة من مراحلها فيفسّر على أساس أنه (بعد كلي.. يمكن أن تقاس عليه الخصائص الفيزيائية الأخرى)^٢ بمعنى أن (الزمن يقتضي أن تكون الحركة قابلة للقياس)^٣.

إن الوعي بالزمن حينما يشير إليه آدموند هوسرل على أن القس أو غسطينوس أو أوغسطين - كما يسميه - هو أول من عانى صعوباته بغية معرفته^٤، إذ أن هوسرل بين حقيقة هي يمكننا أن نقول مع أوغسطين (لئن لم أسأل في الزمان ما هو، علمت ما هو، وإن سُئلت ما هو، جهلت ما هو)^٥ بمعنى أن تعريف الزمان لديه لا يمكن البت فيه من غير معرفة الماهية التي يكون عليها الزمان ذاته؛ لأن السؤال عنه يحتاج إلى إجابة تمحيصية تعطي إضاءات تهدي إلى تعريف الزمان الذي يمكن تعريفه بأنه إدراك ذاتي في الأساس، كما يشير عالم الاجتماع الألماني نيكلاس لومان إلى أن أوغسطينوس لم يكن يعرف الزمان تلك المعرفة التي تشير إلى الوضوح الكامل في رؤية التعامل مع الزمان^٦، في الوقت الذي يذكر فيه لومان أن أوغسطينوس كان يعرف أن (الزمن يأتي من المجهول، المعتم، من الغيبي السابق ويختفي في العتمة)^٧، وهذا يعطينا الحق في القول أن الوعي بالزمن لا يمكن أن يتأتى لأي كان؛ لأنه مسألة ذات ضبابية في المفهوم يتعذر على العقل الفاطر معرفتها؛ لأنها تشير إلى معنى دقيق بعينه إشارة محددة؛ لأن الزمان - في الواقع - ووعي للذات؛ إذ أن كل السؤال يكمن في معرفة بأي شروط يصبح الزمان وعيّاً للذات، ولعل الوعي للذات هنا هو الذي يسهم في تحديد أقسام الزمان التي هي (ألما قبل) و(ألما بعد) وما بينهما الذي ندعوه بالحاضر الذي نعيشه والوعي به يتم من خلال إدراكه من قبلنا مباشرة باللحظة الحاضرة التي لها طبيعة خاصة في إدراكها وحركتها ووجودها لأنها الانفصال

١ . نقلًا عن: فكرة الزمان عبر التاريخ ٣٧ .

٢ . المصدر نفسه ٣٧ .

٣ . المصدر نفسه ٣٨ .

٤ . ينظر: دروس في فينومينولوجيا الوعي الباطني بالزمن - المقدمة - ٧ .

٥ . المصدر نفسه - المقدمة - ٧ .

٦ . ينظر: مدخل إلى نظرية الأنساق ٢٤٤ .

٧ . المصدر نفسه ٢٤٤ .

بين الماضي والمستقبل فهي كالنقطة الهندسية التي لا طول لها ولا عرض ولا ارتفاع، ومن هنا يمكن القول بأن للوعي بالزمان مظاهر ثلاثة لتقديره من قبل العقل البشري .
أول هذه المظاهر هو الوعي بزمان الحاضر اليومي من حيث هو يمثل المركز في بنية التعامل مع الزمان - كما رأينا قبل قليل - الذي يعني إدراك للفترة أو الفترات الزمنية التي تمر بنا ولا نحس بها .

وثاني المظاهر يتعلق بإدراك ديمومة الزمان التي تتلخص في تقدير وقوع الأحداث من حيث وجودها في وعينا بالزمان وعلاقة ذلك بالجسم البشري من خلال الإحساس بالحرارة والبرودة - مثلاً - وتأثيرهما على قوة تقدير المدة الزمنية التي تكون مشابهة لتأثيرها على سرعة التفاعل الكيميائي البسيط، مما يعني أن الانطباع الذي يكوّنه العقل البشري عن طول أية مدة زمنية يتوقف في جزء منه على قوة نشاطه في أثناء تلك المدة .

أما ثالث مظاهر الوعي بالزمان فهو يعني الوعي بامتداد الوعي خلال الزمان في الماضي والمستقبل عن طريق الذاكرة والتوقع، الذي يكون عن طريق نمو تقديرنا للزمان عبر المراحل الزمانية التي يمر بها عمر الإنسان، وهي التي تترجم ذلك الإحساس بالزمان ومراحله ونسبة تفاعلنا معه عبر حاجتنا إلى استغلاله، وكيفية توظيف تلك المدة الزمانية في الاستذكار والتوقع للمستقبل وفق رؤية تتناسب وحجم الوعي بالزمان في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهذه الرؤية هي التي يمكن التعويل عليها في الوعي بالزمان في نهج البلاغة؛ لأننا من خلال البحث سيتبين لنا أن الوعي بالزمان في نهج البلاغة ليس وعياً قائماً على التذكر لمدة زمنية مرت بعد الولادة أو الخروج من رحم الأم وأصبحت بمثابة العمق الزماني للوعي به لدى الإمام علي (عليه السلام)، إنما تقوم على عمق زماني ووعي بذلك العمق الزماني من سرد أحداث ووقائع بتفاصيل تكاد تقترب من المستحيل في تذكرها لأي إنسان مرت عليه وقائع وأحداث عايشها خلال سني حياته إلا بما تستطيع أن تجود به الذاكرة التي تصبح مشوشة كلما استنفد العمر أيامه فكيف بأحداث لم يشهدها بروية عينية تتناسب ووجوده المادي على وجه الأرض، لذلك نجد أن هذا الأمر غير موجود إلا في نهج البلاغة، إذ أننا - من خلال استعراض الإمام (عليه السلام) لحركة الزمان والوعي به - نجد أن تفصيل ذلك يجب أن يكون بطريقة تتجاوز المؤلف إلى البحث في الإمكانات الذاتية للعقلية العلوية التي أثبتت أنها تنتمي إلى غير المؤلف عبر ممارساتها اليومية تطبيقياً، ولا بد من تفصيل ذلك على نقاط لبيان فكرة البحث من خلال تناول تقسيمات الزمان التي ذكرناها آنفاً.

١- الوعي بالزمن (ألمأ قبل):

وهو ما يمكن أن نحصره في جملة واحدة تختصر المعنى كله حينما نقول بأنه فهم قائم على أساس الوعي المدرك لحركة الزمان المنصرم، ويتلخص هذا الفهم باستذكار الأحداث والوقائع والأصوات التي مرت عبر ما مضى، من خلال استيعابها في الذهن بناء على حركيته الواعية التي تتساقط فيها تلك الأحداث والأصوات والوقائع كلُّ يقترن بالمناسب له بعيداً عن الانفصال غير المنضبط في حركته، مرهوناً بحركة الوعي الباطني بالزمان، التي تدخل ضمن القصدية التي تنطلق من وعي بـ(ألمأ قبل)، لا على سبيل الحدس المتخيل بل على أساس الفهم والذكر اليقيني الذي لا يخرج عن أبعاد الغاية المرجوة من خلال عرض تلك الأحداث والوقائع والأصوات بصورة مفصلة أو مجملية وحسب الحاجة إلى ذلك، يتجلى ذلك واضحاً من خلال استعراضنا لخطبته الأولى في نهج البلاغة بجميع فقراتها إذ يقول في أثنائها مدركاً للوعي بالزمان في كلامه عن ابتداء خلق السماء والأرض مستعملاً أداة العطف (ثم) في بدء كل فقرة من فقرات الخطبة والأدوات الأخرى (الفاء، الواو) بين فقرات الكلام، كلاً حسب أهميته في

١ . ينظر: الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي ١٨ .

٢ . ينظر: فكرة الزمان عبر التاريخ ١٤٤ - ١٤٦ .

التتابع الزمني بين فقرات الخطبة للدلالة على التعامل مع الزمان من خلال (التسلسل في سرد أحداث الخلق يشير إلى حالة المشاهدة أو الإخبار الحقيقية)، وهذا هو الوعي بالزمان الذي نشير إليه في كل تفصيلاته غير المعروفة للمتلقي، وكل أداة من أدوات العطف هذه قد أوكل إليها مهمة في الوعي لا تفارقها فيقول:

(... أنشأ الخلق إنشَاءً، وابتدأه ابتداءً... (إلى أن يقول) ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكانك الهواء) وهنا يكون الوعي بالزمان من خلال رؤية التعقيب في قضية الخلق باستعمال الأداة (ثم) التي تعني الفسحة الزمنية في الخلق لا على أساس التراخي من قبل البارئ عز وجل، بل من خلال تراتبية الإيجاد لهذه المخلوقات، وكأنه حينما يذكر الأداة (ثم) في بدء كل فقرة كقوله (... ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها، وأدام مربّها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها....) والفقرات التي سنستعرضها التي تبدأ بالأداة (ثم)، إنما يشير استعمالها إلى بداية خلق جديد آخر غير الذي ذكره في الفقرة السابقة أو الذي سيذكره في الفقرة اللاحقة، مما يبين أن الوعي بالزمان ضمن المدارك المتوافرة، أي أن الزمن مسيطر عليه من خلال الرؤية التي تتحكم بتراتبية ذكر المخلوقات، ولناخذ فقرة أخرى من فقرات الخطبة فيقول فيها (... ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً منيراً، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر....) وينتقل إلى فقرة أخرى بعد كلام يأتي بالأداة (ثم) فيقول (... ثم فتق ما بين السموات العلا، فملأهن أطواراً من ملائكته، منهم سجد لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصاقون لا ينزايون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان....) وبعد كلام يأتي بالأداة (ثم) كذلك فيقول (... ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها، وعذبها وسبخها، تربة سنها بالماء حتى خلصت، و لاطها بالبلية حتى لزبت، فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول، وأعضاء وفصول، أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت، لوقت معدود، وأجل معلوم....) بعدها ينتقل مباشرة إلى فقرة جديدة تدل على أن مديات الخلق تأخذ زماناً لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، مبيناً أن الروح لم تنفخ في تلك الصورة التي تحدث عنها في الفقرة السابقة مباشرة، إنما تركت الصورة زمناً حتى نفخ فيها الروح، فيقول (ثم نفخ فيها من روحه فتمثلت إنساناً ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يخدمها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل.....) وبهذا فهي تحولت إلى إنسان حقيقي يحمل صفته الحقيقية بمجرد النفخ فيها، وبعد تفصيل في الكلام يأتي بالأداة (ثم) في بداية فقرة جديدة فيقول (... ثم أسكن آدم داراً أرغد فيها عيشته، وأمن فيها محلته....) وبعد كلام قصير يأتي بالأداة (ثم) في قوله (... ثم بسط الله سبحانه له (آدم) في توبته، ولقاه كلمة رحمته ووعده المرء إلى جنته...) وبعد كلام يطول في تفصيل ما يريد، يأتي بالأداة (ثم) في قوله (... ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا، ورجب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريماً، وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها - إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح...).

وبعد هذه الفقرة من كلامه لم يعد يذكر الأداة (ثم) في باقي الخطبة، وهذا يجعلنا نقول إن تلك المدد الزمانية التي تتباعد فيما بينها قد انتهت أثرها في الواقع الذي بدا للناظر شيئاً مألوفاً، فانتفت بذلك الحاجة إلى استعمال تلك الأداة، فهو يستعمل حرف العطف (الواو) للدلالة على المصاحبة الإيجابية أو الحديثة - إن صح التعبير - فيما بين الأحداث التي جرت.

ما فيما يخص الأداة اللتين استعملهما الإمام في أثناء فقرات الخطبة وهما (الواو والفاء) فإننا نلاحظ أن استعمالهما كان بين فقرات الكلام، و(الواو) أكثر استعمالاً من (الفاء)، والاثنتان أكثر استعمالاً من (ثم)، مما يدلنا على أن لكل أداة ارتباط بالزمان الذي تدل عليه كما عبّر الشاعر أبو العلاء المعري بقوله:

١ . الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته - دراسة تحليلية - ٦٥ .
٢ . ديوان لزوم ما لا يلزم ٢٤٩/١ - ٢٥٠ .

إذا مات ابنها صرخت بجهل
ستتبعه كفاء العطف ليست

وماذا يستفيد من الصراخ
بمهله أو كتم على التراخي

وهذا يعني أن الإمام كان يمتلك وعياً بالزمان تمكّن من خلاله أن يبين عن طريق استعماله اللغوية تلك التراتبية الزمانية في خلق الموجودات، أولاً، والمدد الزمانية التي تحتاجها في عملية الخلق، ثانياً، والذهاب إلى تفصيلات الخلق بوعي بالزمان لا يمكن أن يخطئ في ترتيبه الزمني التتابعي الذي يدل على ذلك الوعي بالزمان من خلال الإتيان بتفصيلات تمارس (الواو) فيها دورها، بوصفها أداة تدل على استرسال لفظي يؤشر إلى استرسال إيجاد مصاحب أو حدثي من قبل الخالق عز وجل في ترتيب المخلوقات ذات العلاقة بالمخلوق الأول الذي تبدأ فيه الفقرة، فيقول:

(...أحال الأشياء لأوقاتها، ولاعم بين مختلفاتها، وغرّر غرائزها، وألزمها أشباحها)، ففي الجملة الأولى (أحال الأشياء لأوقاتها) إشارة مؤكدة إلى أهمية الزمان في الترتيب الوجودي فكل حدث مرتبط بزمان، وحين لا يحتاج إلى أية أداة لكي ينتظم الوعي بالزمان من خلالها يأتي بالجملة التي تكمل المعنى (.. عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرانها وأحنائها...)، وتكثر الجمل التي يستعمل فيها الواو كثرة لافتة للنظر؛ مما يدل بشكل لا يقبل الإنكار على أن تفرعات الخلق والوجود هي أكثر من أن تحصى في كلام؛ لأن الخلق مستمر متجدد في كل لحظة وبذلك يخرجنا الإمام (عليه السلام) من دائرة حصر المخلوقات إلى دائرة التجدد والانتشار في الخلق .

أما فيما يخص الأداة (الفاء) فإن استعمالها يشير إلى أن الزمان متقارب حد التتابع الملحوظ في الخلق، ولعل إشارة المعري السابقة من الدقة بمكان؛ إذ أننا نجد في الخطبة ما يثبت ذلك كما في قوله:

(..... فأجرى فيها ماءً متلاطماً تياره، متراكماً زخّاره، حمله على متن الريح العاصفة، والززع الفاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شدّه، وقرنها إلى حدّه، الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق.....).

ويقول في مكان آخر من الخطبة ذاتها(.... فأمرها بتصفيق الماء الزخار.... فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء فرفعه في هواء منفق، وجوّ منفق، فسوى منه سبع سموات....).

واللافت للنظر، أن الإمام (عليه السلام) لم يستعمل الأداة (ثم) في القطعة التي يتحدث فيها عن الملائكة ماعداً مرة واحدة في بدء القطعة استعمالها للإشارة إلى ذلك الخلق الجديد الذي سيملاً به السموات العلاء، بل اقتصر فيها فقط على حرف (الواو) مما يعني أن خلق الملائكة تم دفعة واحدة دون أن يكون في كلامه عن خلقهم أية إشارة تدل على أن خلقهم قد تم على دفعات، وقد جاء بالأداة (الفاء) مرة واحدة لبيان الحال التي بدأ بها إيجاد الملائكة في فتوق ما بين السموات العلاء، وهو ما نراه في قوله:

(ثم فتق ما بين السموات العلاء، فملأهن أطواراً من ملائكته، منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزابلون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان لا يتوهمون ربهم بالتصوير، ولا يُجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر ..) مبيناً الحال التي عليها هؤلاء الملائكة من حيث عبادتهم وطبيعتها وتوجههم إلى البارئ عز وجل .

٢- الوعي بالزمان (الحاضر):

إذا كان الزمان عند بعض الباحثين ذهنياً لا موضوعياً فهذا يعني أن (الذهن هو الذي يرتب العلاقات بين أقسام الزمان الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، بوساطة ثلاث وظائف، هي

التوقع والانتباه والذاكرة)١، مما يعني أن الذهن سيكون بمقدوره تقدير اللحظة الحاضرة التي هي ستكون جسراً واصلاً بين الزمان الماضي (ألمأ قبل) والزمان المستقبل (ألمأ بعد)، ليس على سبيل التابع البسيط بين الحوادث والأشياء بل هو نظام يجب أن يوضع بين تلك الحوادث والأشياء لكي يكون هناك إدراك لانسيابية الزمان من خلال ما تقدمه اللحظة الحاضرة من نسبية الحركة وبيان السببية والنتائج المنظورة وغير المنظورة من خلال تدافع حركة الزمان، وفي نهج البلاغة كانت اللحظة الحاضرة بمثابة المنتج الطبيعي لتلك الحركة الزمانية أو هي التي يمكن للقدرة العقلية من خلالها أن ترى الترتيب في اتجاهين (ألمأ قبل - ألمأ بعد) ما يعني أنها ستكون تلك النقطة الهندسية التي لا طول لها ولا ارتفاع ولا عرض - كما أشرنا آنفاً- يقول الإمام علي (عليه السلام) في إحدى كلماته:

(على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلقت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه فنجاز عدته، وتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة واهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبهه الله في خلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداه به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة...).

يبدو البحث في الدوائر الزمانية الصغرى التي تؤلف الدائرة الزمانية الكبرى في حركة الكون أمراً غير مألوف على خلفية اتساع تلك الدائرة بما تحتويه من حركة دائبة في هذا الكون الفسيح، وعليه يكون التنقيب في مكونات الأحداث من الصعوبة بمكان على المتلقي لكلمات الإمام علي (عليه السلام)؛ لأنها تسدل ستاراً سميكاً على دائرة الأحداث التي يرى في النظر في تفصيلاتها شيئاً غير ذي بال؛ لأجل الوصول إلى اللحظة الحاضرة، فيقول (على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلقت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه) فهو يختزل حركة الأحداث في دائرة صغيرة من الألفاظ المؤدية للمعنى بما يتوافق مع حركة الزمان والوعي به من قبله؛ إذ يمثل هذا المنظور استجابة ضمنية للفهم القاصر عن إدراك تلك التشعبات الزمانية في حركة الأحداث، فجاء نسق الجمل على هذا المنوال؛ لكي يصل إلى إحدى الدوائر الكبرى في حركة الأحداث وهي الرسالة المحمدية، بل لعلها تكون الدائرة الأكبر في الوعي بحركة الزمان مشيراً إلى تسبب تلك الحركة الزمانية والغاية من ذلك (... لإنجاز عدته، وإتمام نبوته...) وهذا الإنجاز والإتمام إنما تتحدد صورته (بنحو طبيعي في صورة - لغة وفي صورة - فكر، فما يكونه الماضي في الزمن، يكونه المعنى في اللغة، وتكونه الفكرة في الفكر)² هذا إذا فهمنا أن (المعنى كماض للغة هو شكل وجودها القبلي)³ كما في قوله

عليه السلام (...مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سمائه، كريماً ميلاده...) لينتقل بعدها إلى ربط اللحظة الحاضرة زمانياً من حيث حركة الحدث فيقول (...وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، واهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبهه الله بخلق، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره...)، والحديث عن مفصل زمني بحد ذاته لا يتم بمعزل عن حركة التدافع الحداثي زمانياً؛ لأن الترابط بين هذه الأحداث موجود، فالعبر الحركي يربط تماماً، بتكون معين، بين اللغة والطبيعة)⁴ من خلال الوعي بالزمان وحركته في الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا يعني (أن ارتقاب مجرى الزمان مكتوب في الذاكرة ولا تظهر قبليته إلا لاحقاً كضرورة منطقية)⁵؛ ليضفي على الحدث الزماني مصداق التآلف بين الحدث والشكل الزماني، وحينها يكون الوعي به جزءاً من حركة الذهن البشري الخلاق.

١ . الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ١٤٣-١٤٤.

٢ . الصورة - الزمن ١٣٣.

٣ . المصدر نفسه .

٤ . الكلمات والأشياء ١٠٤.

٥ . جدلية الزمن ٣٩.

٣- الوعي بالزمان (ألما بعد)

هل يمكن أن نعد الحديث عن المستقبل في نهج البلاغة من قبيل الزمن الحدسي الذي يمكن أن يعتوره الانكسار أو التغيير أو الانهيار؟ لأن الحديث عن معنى الماضي ومعنى المستقبل يختلف عن الحديث عن المعاني الأخرى التي قد تقترب بالتصور الحسي كالحديث عن الحاضر المنظور الذي يبدو أنه معيش بتفصيلاته! لكن النظر إلى المستقبل - مثلاً - هو من صميم الإحساس البشري بالزمان، والوعي به إشكالية ذهنية وفكرية واعتقادية في الوقت ذاته؛ لأن الطبيعة البشرية تتطلع إلى مشارف الغد تحسباً واستبشاراً وتفاؤلاً؛ لأن الهدف في الحياة البشرية هو دائماً المستقبل والغاية من ذلك كسبه والهيمنة عليه؛ إذ إن الإمام (عليه السلام) لم يكن غافلاً عن تملك تلك اللحظة التي يشير فيها إلى أهمية النظر إلى المستقبل البعيد فضلاً عن القريب، فيقول عن طبيعة الرسالة المحمدية وأثرها على المسيرة البشرية (...). وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها؛ إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم - كتاب ربكم - مبيناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه، وعبره وامثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسراً جملة، ومبيناً غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، وموسع على العباد في جهله، وبين مثبت في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنة نسخته، وواجب في السنة أخذه، ومرخص في الكتاب تركه، وبين واجب لوقته، وزائل في مستقبله، ومباين بين محارمه، من كبير أو عد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، وبين مقبول في أدناه، وموسع في أقصاه).

إن الحديث عن مرتكزات الرسالة الإسلامية على ضوء حركة الزمن والوعي به، إنما يحتاج إلى رؤية تستشرف تلك الحركة الزمانية وطبيعتها، كما أن الوعي بالزمن يستلزم وجود نظرة شمولية تبين مفردات تلك الرسالة على وفق قراءة عميقة لمقتضيات المصلحة الإسلامية العليا وما تتطلبه الحياة البشرية في مجمل حركتها وفي تفصيلاتها بما يجعلها تتساقق ومقتضيات الرسالة بعيداً عن التعامل الفوقي أو التجزيئي لما تتضمنه الرسالة الإسلامية من تفرعات تكاد تغيب عن كثير من العاملين في هذا المجال، إلا أن الإمام (عليه السلام) من خلال وعيه بحركة الزمان وفهمه العميق لمقتضيات الرسالة واستشرافه لتلك الحركة الزمانية بين أن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) لم يترك الناس هملاً من دون أن يبين لهم ما يجب عليهم اتباعه والتقيد بتعاليمه، فقال (...). إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، وعلم قائم - كتاب ربكم - مبيناً حلاله وحرامه (...). في تفصيل دقيق لكل مفصيلات الرسالة الإسلامية وهو تفصيل الحاذق العليم الذي لم تغب عنه شاردة أو واردة منها مما يعني أن الإحالة في ذلك كله ستكون إليه؛ لأنه الذي حفظ كل شيء حسب قوله في إحدى خطبه (...). وليس كل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من كان يسأله، ويستفهمه وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته ..)،

مما يعني أن تلك التفصيلات التي تحدث عنها في الخطبة موضوعة البحث، إنما تسعى إلى بيان الحاجة المستقبلية إلى من يبين تلك المفردات التفصيلية في الرسالة المحمدية، وهذا الأمر قطعاً غير موجود عند كل من أراد التصدي لتلك المسؤولية الكبرى والخطيرة في الوقت ذاته، إنه أراد أن يشير - من وجهة نظرنا - إلى ضرورة البحث عن فئة تمتلك القابليات الكاملة والاستعدادات الفطرية في فهم الكتاب الكريم وبيان ما يستوجب بيانه للناس، وهو بذلك يضع يده على الجادة الحق في رسم الطريقة المثلى للتعامل بوعي مع حركة الزمن الذي ستفتح من خلال حركته آفاق جديدة في معالجة المشكلات التي تستحدث كما في قوله (...). وبين واجب لوقته، وزائل في مستقبله (...). أو بيان (...). واجب في السنة أخذه ومرخص في الكتاب تركه..)، أو الذي أثبت فرضه في الكتاب لكن السنة نسخته .

إن الإمام علي (عليه السلام) في تعامله مع المستقبل من خلال الوعي بالزمن في نهج البلاغة، لا يمكن أن يكون خارج نطاق المفهوم العلمي والمنهجي؛ لأن ذلك يمثل حالة هروبية نحو

اللامعلوم، بل كان يتم على وفق منظور حقيقي يتعامل مع الأحداث على أنها كائنة لا محالة، وإن كان ذلك يدل على شئ إنما يدل على يقينية الفهم والتعامل مع الواقع المستقبلي على أساس الرؤية الحقيقية التي تقرأ المستقبل من خلال الوعي بحركة الزمن .

الخلاصة

يعد الوعي بالزمن في نهج البلاغة من القضايا التي شغلت حيزاً لا بأس به من خطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، على أساس أن حركة الكون هي زمانية في بعدها الفعلي الحقيقي الذي يستلزم فهمه، فهم طبيعة تلك الحركة . ومحاولة الإمساك به قائمة من قبل العلماء والباحثين والمنظرين، إلا أن ذلك كان وسيبقى حدسياً خاضعاً للانكسار والتغير الجزئي أو الكلي، إلا أننا نجد في نهج البلاغة أن الإمام يتعامل مع الزمن وحركته بوعي ينم عن استيعاب كامل لحركة الأحداث، سواء أكان ذلك في الزمن الماضي (ألمأ قبل) أو الحاضر أو المستقبل (ألمأ بعد)، ما يجعل الباحث يقف متأملاً في تلك القدرة على التعاطي مع حركة الأحداث من حيث هي أحداث ماضية ضاربة في عمق الزمن غير المنظور، بل والمنسي تاريخياً بالإضافة إلى التعاطي مع حركة الأحداث الحاضرة، وباليقين ذاته مع حركة الأحداث المستقبلية، والرؤية الشمولية التي تحيط بكل تلك الحركة وبوعي كامل بالزمن في كل أبعاده، وقد وجد البحث أن الإمام في تعامله مع الزمن بوعي غير معهود على المستوى البشري العام، إنما يشير إلى ما يمتلكه الإمام من قدرات وطاقات وإمكانيات تصنف فوق العادة، ناهيك عن الأهمية الكبرى التي يمثلها الإمام (عليه السلام) في التاريخ البشري لا الإسلامي فقط، كما أنه ينبئ عن قدرة مذهلة تتعامل مع الحركة الزمانية من خلال النظر إلى الأحداث بشكل عمودي وأفقي وكأنها تحصل تفصيلاً يومياً .

المصادر والمراجع

- جدلية الزمن، جاستون باشلار، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر ط ٢، ١٩٨٨ .
- الخطاب في نهج البلاغة - بنيته وأنماطه ومستوياته - دراسة تحليلية، د. عبدالحسين العمري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط ٢٠١٠، ١ .
- دروس في فينومينولوجيا الوعي الباطني بالزمن، د.موند هوسرل، ترجمة لطفي خيرالله، منشورات الجمل، ط ١ بيروت - بغداد ٢٠٠٩ .
- ديوان لزوم ما لا يلزم، أبو العلاء المعري، حرره وشرح أغراضه د. كامل اليازجي، دار الجيل، بيروت، لبنان ٢٠٠١ .
- الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم، حسام الدين الألوسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ١٩٨٠ .
- الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، د. هيثم الحاج علي، مؤسسة الانتشار العربي بيروت - لبنان ط ١ ٢٠٠٨ .
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد - العراق ط ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- الصورة - الزمن جيل دولوز، ترجمة حسن عودة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق - سوريا ١٩٩٩ .
- فكرة الزمان عبر التاريخ، ولسون كولن، عالم المعرفة ع ١٥٩ الكويت ١٩٩٦ .
- الكلمات والأشياء ن ميشيل فوكو، ترجمة مجموعة مترجمين، مركز الإنماء القومي، بيروت - لبنان ١٩٨٩ - ١٩٩٠ .

- مدخل إلى نظرية الأنساق، نيكلاس لومان، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات
الجمال، كولونيا- ألمانيا، بغداد ط ١، ٢٠١٠ .

إنتاج الدلالة اللغوية في كتاب نهج البلاغة

دكتور: محمد حسن معصومي

دكتور: سيد اكبر غضنفرى

الملخص

تتميز اللغة اليومية بسطحيتها وكونها مستهلكة، فقد أصبحت لكثرة تداول ألفاظها واستخدامها المتكرر عرضة للصدأ والتآكل، الأمر الذي ساهم في نضوب حيوية اللغة و نفاذ خصوبتها، ولاشك أنّ هذه الخصوصية تُعدّ نوعاً من الركاكة والضعف في بعض جوانب اللغة إلا أنّ هناك فضاءات أو سياقات تنفلت فيها اللغة عن سطحيتها لتزِيل هذا الصدأ عن جسدها، فتتحول حينئذٍ إلى كائنٍ يقوم بوظيفة فنية ناشطة إيحائية، وهي تتم عادة عبر كسر المألوف من القول، واستيلاد دلالات جديدة من الألفاظ سواء على المستوى المفردات أو التراكيب، ومن ثمّ إعادة الحياة إليها وعرضها عرضاً يبعث الدهشة؛ ويأتي في هذا السياق كثير من كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) فقد حفلت تلك الكلمات بخروقات لغوية وانحرافات اسلوبية ومداهمات دلالية تصيب لبّ المعنى دون أن تقع في هوة الفجاجة والتعسف، أما الخروقات و الانحرافات الاسلوبية التي أتحفنا بها الامام علي (عليه السلام) فهي تُعيد إنتاج الدلالة اللغوية وبالتالي تغني القاموس الادبي الإنساني الحافل، وفي هذه المقالة نعالج بعض هذه الانتاجات المبدعة.

المقدمة

التنوع الخطابي الذي لا حدود له، يدين في إحدي توجّهاته للمنتج الدلالي في حقل اللغة، حيث يتم استيلاء الدلالات على يد المبدعين باستمرار. أمّا هذه الخدمة الجليلة للغة فيُسديها أصحاب العقول النيرة من قادة الدين و الفكر وأمراء الكلام والبيان؛ فهم يعيدون إلى الالفاظ التي هي قوالب المعاني اصالتها وينفثون فيها روحاً جديدة، نري نماذج ذلك في بيانات شائقة تداهم الملتقي بما لا يتوقّعه من الدلالات. و من مصاديق هذا التنوع الخطابي الذي ساهم مساهمة جادة في الابداع اللغوي ما اصطُح عليه في النقد الادبي المعاصر بتفجير اللغة، و هو تعبير حديث يُقصد به إضفاء دلالات جديدة على الالفاظ و التراكيب أو وضعها في سياقات غير مألوفة. كثيراً ما يتمّ ذلك في النتاج الشعري. يقول أحد النقاد المعاصرين في هذا الشأن: «ذلك لأنّ كلّ لفظة من ألفاظ اللغة لها معنى معجمياً هو تاريخها الطويل، هو الجانب العام منها وعندما يعمد الشاعر إلى التعبير عن تفردّه وعن خصوصية رؤيته، فإنه لا يجد أمامه إلا تلك الألفاظ بمعانيها المعجمية التي أبلاها فرط الاستعمال إنّ تلك اللغة تحاصره وهو لا يستطيع أن يتجاوزها أو ينفك عنها، عند ذلك يداورها مداورة فنية و يلجأ إلى وسائل شتى لإغنائها»^١

أمّا في التراث الشيعي فثمة نماذج رائعة من هذا الانتاج اللغوي، حيث يعد كتاب «نهج البلاغة» أحد أخصب المصادر في هذا الحقل، فقد أنتج الامام علي (عليه السلام) في خطب هذا الكتاب ورسائله وقصار حكمه دلالات لغوية ثرة تتم عن عبقريته الفذة. إنّ الامام (عليه السلام) قد بثّ من خلال هذه النصوص الفريدة روحاً جديدة في الألفاظ حتّى فك عنها شرنقتها التي كانت تلتفّ حولها، مضيفاً عليها من خلال هذه العلمية التي تعدّ بحق إنقاذاً للغة، مسحة جمالية تمتع وتروق بعد أن نفت فيها حياة جديدة.

١ . الدقاق، عمر، ١٩٩٢: ١٤٩-١٥٠.

وحرىُّ بالإشارة أنّ هذا الإبداع المنقطع النظير لم يأت إلا عندما توفّر الإمام (عليه السلام) على مخزون روحي ثرّ امتلأ به نفساً ووجداناً، وذلك من منطلق عبودية المطلقة لله - تعالى - حيث جعلته هذه العبودية التامة ينظر إلى الأشياء نظرة مختلفة، يرى الظواهر في صورة تتفاوت كلياً أو جزئياً مع الصور المنطبعة في نفوس العامة من الناس فكان أن تحوّل الإمام (عليه السلام) إلى كائن الهي قادر على التغلغل في جوهر الأشياء بحثاً عن مفاهيم معرفية مبدعة، يستولدها عبر إنتاج للدلالات اللغوية التي نحن بصدد مناقشتها في هذه المقالة، وها هي مختارات منها على مستوى المفردات والتراكيب:

منتجات لغوية مبدعة

بين أيدينا العديد من النماذج الراقية لإنتاج الدلالة اللغوية في نهج البلاغة نستعرض منها أولاً الإبداعات المتعلقة بالمفردات اللغوية تليها إبداعات على مستوى التراكيب:

(الف) مستوى المفردات:

١- الغني: تأتي لفظة «الغني» في معناه المعروف الشائع صفة لكلّ من يملك مالاً وفيراً يستغني به عن الآخرين، وفي اللغة: «غني: كثرة المال، وغني: كثر ماله»^١.

وهذا المعنى هو الذي يفهمه العامة من الناس من هذه اللفظة؛ بيد أنّ الإمام علي (عليه السلام) يعيد إنتاجها، حيث يستحوذ على رؤية جديدة في تناول اللفظة حين يعتبر «الغني» الحقيقي في إلىأس عمّا في أيدي الناس، عندما يقول: «الغني الأكبر إلىأس ممّا في أيدي الناس»^٢.

٢- لا يأتي هذا الإنتاج اللغوي المعرفي من شعور فردي بحت بل هو ناهض على ركائز إيمانية موضوعية أرسنها الشرائع السماوية؛ أمّا من الناحية الاجتماعية فإنه متي ما حصلت لنا قناعة أن «الغني» يكمن في إلىأس من الآخرين، نستطيع أن نصلح شأننا في هذا الجانب الاجتماعي الهام، فإليأس من المخلوق في الأرزاق وغيرها، والرجاء من الخالق في كلّ شيء، لهو خير وسيلة للفرد في حياة حرة كريمة يتمناها، ومن الواضح أنّ إلىأس عمّا في أيدي الناس - كما أشرنا - ليس انطباعاً شخصياً تشوبه المزاجية، بل هو حقيقة أثبتتها تجارب الحياة اليومية. وفي نفس السياق عرض الإمام (عليه السلام) في كلمة أخرى لمفهومي «الغني والفقر» بقوله: «الغني والفقر بعد العرض على الله»^٣.

فقد وضع الإمام (عليه السلام) هذين المفهومين خارج مفهومات دنيوية مستهلكة، موسّعاً معناهما عبر كسر للبنى الفكرية المادية، حيث عمد إلى معايير مثالية في حكمه على ظاهرتي الفقر والغني.

فيما يتعلّق بالفقر والغني أيضاً يقول الإمام (عليه السلام) في مقام آخر «لا غني كالعقل، ولا فقر كالجهل»^٤.

فالعقل نورٌ يهتدي به الانسان وهو بحق أعظم نعمة أسبغها الله - سبحانه و تعالى - على الانسان، فمن أعطي حظه من العقل فاز فوزاً عظيماً، ومن لم يحظ منه، خلا وفاضه من أية ذخيرة. عن هذا الإنتاج الدلالي اللغوي للإمام يقول الأديب إيليا حاوي: «الغني هنا بمعنى السعادة و النجاح، والمرء يسعد بعقله و يشقي به، فمن أحسن التفكير، استقامت سيرته و أعماله و قدّر الأشياء أقدارها الحقيقية و لم تغرّر به و لم تتعاطم عليه؛ أما إذا كان جاهلاً، فإنه فقير كأنه يملك مادة للسعادة، بل يكون تاعسا واهما تقوي عليه المادة و هو لا يقوي عليها»^٥.

١ . المنجد في اللغة، مادة غني.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٣٤٢.

٣ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٤٥٢.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٥٦.

٥ . الحاوي، إيليا، ١٣٧٩: ١٢١/٢.

٣- المنى: قال (عليه السلام): «أشرف الغني ترك المنى»^١.

يقول ابن ميثم البحراني: «المنى: جمع منية بمعنى التمني، ولما كان ذلك رذيلة تلزم عنها رزائل كالشره والحرص ونحوهما، وأقلها أنها اشتغال عمّا يعني بما لا فائدة فيه، رغب في تركها بأن فسّر به أشرف الغني حتى جعله هو هو، وظاهر أن ترك المنى يستلزم القناعة، واستلزامها للغني النفساني وعدم الحاجة ظاهر»^٢.

لقد أعطي الإمام (عليه السلام) هذه اللفظة قيمتهما الموضوعية، وحقق لهما فاعلية جمالية خاصة تدخل النص برمته في صلب الدلالة الأدبية التي قال عنها أحد النقاد المعاصرين أنها «لا تقتصر على معنى كلّ عنصر من العناصر التي تدخل في تكوين العمل الأدبي ولا على شبكة العلاقات المتبادلة بينها، بل لا بدّ أن تشمل طريقة أدائها لوظائفها و كيفية انتظامها في هذا النسق»^٣.

فالشرف كل الشرف - حسب هذه الرؤية - يتمثل في صفح الذكر عن الأمانى الخداعة التي لا تكاد تشبع منها النفس، فمن تركها ارتقى إلى ذروة الشرف الرفيع.

٤- الرّق: وقال (عليه السلام): «الطمع، رق مؤبّد»^٤، لو أردنا كشف المنتج الدلالي البديع للفظ

«الرّق» لا بدّ أن نتناولها ضمن السياق الذي بناها الإمام إذاً نوضح ذلك على النحو التالي: لقد مرّت على البشر حقبة متطاولة استغل خلالها الإنسان أخيه الإنسان لغايات مادية رخيصة، فهي جلجلة سلاسل البعيد تترامي مدويّة إلى مسامعنا لتبعث في وجداننا العطف و الرحمة و الاشفاق، تلتها عصور تغيرت من خلالها ملامح العصر، فانحني الشكل التقليدي للرّق لتظهر مرة أخرى وفي شكل آخر على يد المستعمرين الجدد في شكل فرض آراءهم على الشعوب المقهورة، بيد أنّ نظام الرّق مع كلّ ما جلب للإنسان الحرّ من ويلات و عذابات، سواء في شكله التقليدي أم في شكله الحديث يعدان بسيطين عندما يقاس بهما ظلم الإنسان نفسه، فحين يستذل المرء نفسه بلبائته وراء مشتبهات الدنيا و مفاتنها فإنه يُسيء إلى كرامته التي وهبه الله - سبحانه وتعالى- و في كلمة واحدة يحبس نفسه في سجن مظلم لا يكاد يعرف شيئاً، فالطامع يقع بسلوكة هذا في وثاق الدل الذي لا خلاص منها الا عندما يفك قيود إيساره من الأطماع الرخيصة.

٥- الغربة: و يقول (عليه السلام) في مقام آخر: «فقد الأحبة غربة»^٥. إن توظيف لفظ

«الغربة» في مثل هذا السياق يعدّ إنتاجاً للدلالة اللغوية، لأنّ الغربة في استعمالها الدارج تطلق على من هجر قومه و عشيرته وظلّ وحيدا في معتربه لا يكاد يعرف القوم و لا يعرفونه، و لمثل هذه الحالة مرارة يقاسيها الإنسان في حياته؛ بيد أنّ الإمام (عليه السلام) خرق بناء اللغة، حينما وظف لفظ «الغربة» في سياق جديد أو جدته الشريعة الجديدة، حيث تعطي هذه الشريعة المتلقي شحنات شعورية تتفاوت عما تعودها الناس في رتابتها، و كثرة استعمالها في سياقات مستهلكة؛ فلا عهد للعربي بهذا التوليد الدلالي الجديد الذي يخلق له عالماً جديداً و رؤيً جديدة؛ حتى يقف أمامها في حالة إنبهار قد يغير سلوكه ويساهم في إعادة بناء شخصيته التي تكونت من مفاهيم غير حضارية.

٦- الجهل: و قال (عليه السلام): «الركون إلى الدنيا مع ما تعانين منها، جهل»^٦.

المعنى الدارج للفظ «الجهل» في المجتمع العربي هو عدم المعرفة بالشيء، فمن لا يعرف علماً أو معنى أو نكتة أو صناعة يطلق عليه الجاهل، لكنها تأتي في أصل اللغة بمعنى الغضب

١ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٣٤.

٢ . البحراني، ابن ميثم ١٤٢٧: ٣٢٠/٥.

٣ . فضل، صلاح، ٢٠٠٢: ٥.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ١٨٠.

٥ . نهج البلاغة الحكمة رقم: ٦٥.

٦ . نهج البلاغة ، الحكمة رقم: ٣٨٤.

المرادف لمعنى «البغي» وهو التمرد والغضب والعصبية، فهو يقابل إذاً معنى الجهل، قال الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا! لا يجهن أحدٌ علينا
فجهل فوق جهل الجاهلينا^١

فقد جاءت لفظة «الجهل» في هذا البيت بالمعنى الذي أشرنا إليه وهو الغضب و التمرد. أما الابداع هنا فيمكن في تطعيم اللفظة معناه الاصيل، و كأنما نفت فيها روحاً جديدة، لا هذا فقط و إنما جعلها في سياق ملائم الذكي، حيث وظف اللفظة في سياق الحديث عن الدنيا، فالرغبة المفرطة في الدنيا و التشبث بأذيالها هو التمرد و هو البغي بعينه، حيث تحذر شريعة السماء الانسان من الوقوع في أسرها.

٧- القناعة: يقول (عليه السلام) في مقام آخر «القناعة مال لا ينفد»^٢ حيث تتحول القناعة وهي بمعنى عدم السعي الحثيث وراء الحظ الأوفر من مقتنيات الدنيا، وترك الحرص على المزيد من الثروات تتحول إلى مفهوم مخالف له وهو نفس امتلاك المال والحظ منه، بفارق هو أن المال ينفد بالانفاق، فيما القناعة لا تنفذ طالما يلزمها الانسان في حياته.

هذه النظرة نحو مفهوم «القناعة» نظرة استثنائية فريدة تجعل من هذا المفهوم ظاهرة سلوكية جديدة غير ما يتوقعها العامة من الناس، ومن هنا أيضاً يتولد معنى جديد يغتني به القاموس اللغوي.

٨- التحذير: وفي قوله (عليه السلام): «من حدّرك كمن بشرك»^٣ هنا يتحول التحذير إلى التبشير.

فمن أمحضك النصيح لكي تتورع عن القيام بتصرف سيء، فإنه في الحقيقة سيكون لك بمثابة رسول خير يهديك إلى الرشيد والنجاة، و يصدق عكس ذلك حيث التبشير بأمر يجلب للانسان الخير، لهو عين التحذير ممّا يسبب خراب دنياك وعقبك، وكذلك التحذير ممّا يعوقك عن الوصول إلى ذلك الخير.

(ب) على مستوى اللغة المركبة:

جاء ما ناقشناه في الصفحات السابقة على مستوى المفردات من اللغة، أمّا على مستوى اللغة المركبة فثمة نتاجات أدبية شائعة في نهج البلاغة نختار منها النماذج التالية:

١- قال الامام (عليه السلام) ضمن خطبة غراء وردت في كتاب نهج البلاغة و التي اشتهرت بخطبة «الشفشقية» قال ضمن كلام أدبي فريد و في سياق حديثه عن الخلافة و طريقة غضبها «أشدّ ما تشطّرا ضرّ عيها!»^٤ تعريضا لرجلين أخذوا بزمام الخلافة قسراً.

لقد بني الامام (عليه السلام) ضمن هذا التعبير المبدع صورة رمزية مركبة، تمثيلاً لأمر الخلافة و تعريضا لمن تصدّاه دون أن يستحقها و كذلك توجيه النقد إلى الرجلين على أساس انهما ليسا جديرين بأمرها، و التصريح بأحقيته هو في توليها باعتباره أفضل من عرفه المجتمع الاسلامي بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم).

فقد ضاهي - ضمن هذه الصورة المركبة - الخلافة بناقة ذلولة يحرص رجلان على استدرار ضرعها في جشع غريب، حيث يمسك كلّ واحد منهما ضرعاً من تلك الناقة جاذباً إياه نحوه في شدة ليحصل على نصيب أكبر من لبنها؛ أمّا الناقة فهي مسلوبة الإرادة مستسلمة لمصيرها، كما أن الصورة التمثيلية هذه توحى بأنّ هناك دوافع غير نزيهة وراء حرص الرجلين على الأخذ بزمام الخلافة.

١ . ديوان: المعلقة.

٢ . نهج البلاغة الحكمة رقم: ٥٧.

٣ . نهج البلاغة الحكمة رقم: ٥٩.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٣.

لا غرو أنّ هذا التمثيل يكشف بمهارة فائقة عن حق الامام (عليه السلام) الذي هضمه الرجلان أما أدبياً فلا نغالي لو قلنا أنه لم يسبق أحدٌ إلى توليد مثل هذه الصورة التعريضية المبدعة، فهي بحق إنتاج أدبي ممتاز على مستوى التركيب.

٢- وقال (عليه السلام) ضمن رسالة ردّ فيها على مزاعم معاوية ابن أبي سفيان: «... وأما استواؤنا في الحَرْبِ وَالرَّجَالِ فَلَسْتُ بِأَمْضِي عَلَى الشُّكِّ مِثِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَكَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ...»^١.

تتمثل إنتاجية هذا القطع من نص كتاب الامام (عليه السلام) في أسلوب رصف عبارته وترتيبه، حيث تمّ عرض المعنى فيها عرضاً بديعاً. فإنّ هذا الأسلوب يسمو بالنص على مستوى الاستخدام اللغوي المألوف ليتجاوز به إلى تحقيق وظيفة جمالية هي الامتاع، وهو ما عبر عنه القدماء «بالإطراب» فقد قال ابو حيان التوحيدي: «القصدي الكلام البليغ هو الإطراب بعد الإفهام»^٢.

وهذا الإمتاع أو الإطراب هو لغة ثانية داخل اللغة المألوفة، ثمّ هذه اللغة الثانية ملك لمبدع النص لأنها من إنتاجه بوجه خاص. إذاً الوظيفة الجمالية تساهم في تحقيق إنتاجية النص.

أمّا ابن ميثم البحراني فهو يبين وجه الانتاجية في هذا المقطع من كلام الامام (عليه السلام) بقوله: «.... يقول الامام ما معناه: إنك في طلبك لما أنت طالب له على شك من إستحقاقه، وأنا على يقين في ذلك، وكلّ من كان في شك من أمره فليس بأمضي في حربه وقيامه عليه ممّن هو على ثقة في أمره، ينتج أنك لست أمضي في أمرك على الشك، مّي على اليقين في أمري»^٣.

ثم يضيف قائلاً: «إن أهل الشام يطلبون بقتالهم، الدنيا وأهل العراق يطلبون بقتالهم، الآخرة وليس أهل الشام بأحرص على مطلوبهم من الدنيا من أهل العراق على مطلوبهم من الآخرة»^٤.

من الملاحظ أن الإنتاجية هنا تعدو المفردات لتصل إلى مستوى التركيب، فالمفردات في النص الذي عالجنه تتجلى أهميتها بمقدار دورها في إنتاجية للتركيب اللغوية.

٣- وقال الامام (عليه السلام) واصفاً الدنيا: «مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصْرَتَهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ» وذلك ضمن كلام له (عليه السلام) يقول فيه: «ما أصيفُ من دار أوّلها عناءٌ، وآخرها فناءٌ، في حلالها حسابٌ، وفي حرامها عقابٌ. مَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنَ، وَمَنْ سَاعَاها فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَائْتَهُ. وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصْرَتَهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ»^٥.

٤- لعل الشريف الرضي جامع نهج البلاغة هو أول من ألمح إلى إنتاجية هذا التركيب الفني، حيث عقب على كلام الامام (عليه السلام) بقوله: (و إذا تأمل المتأمل قوله (عليه السلام) «من أبصر بها بصرتة» وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره؛ لاسيما إذا قرن إليه قوله (عليه السلام): «ومن أبصر إليها أعمته» فإنه يجد الفرق بين «أبصر بها» و «أبصر إليها» واضحا نيراً وعجيباً باهراً صلوات الله و سلامه عليه»^٦.

فتكمن إنتاجية النص - حسب قول الشريف الرضي - في كون الكلام عجيباً وفي كونه بعيد الغرض، كما لاحظ انتاجيته في الرؤية المزوجة التي نظر المبدع من خلالها نحو العالم، لذلك قال ما معناه: لا يمكن بلوغ غاية هذا التعبير ولا يمكن ادراك عمقه إلا إذا قورن طرف منه بطرف آخر.

أمّا ابن ابي الحديد ينحو منحى آخر في تعقيبه على هذا الكلام فيقول: نظرت إلى قوله: «من أبصر بها بصرتة ومن أبصر إليها أعمته» فقلت:

١ . نهج البلاغة، كتاب رقم: ١٧.
٢ . التوحيدي، ابو حيان، ١٩٤٧: ١٧٠.
٣ . البحراني، ابن ميثم، ١٤٢٧: ٤٦٦/٤.
٤ . البحراني، ابن ميثم، ١٤٢٧: ٤٦٦/٤.
٥ . نهج البلاغة، كلام رقم: ٨٢.
٦ . نهج البلاغة، تعقيباً على كلام رقم: ٨٢.

دنياك مثل الشمس تدني إلي

ك الضوء لكن دعوة المهلك

إن أنت أبصرت إلى نورها

تعش، وإن تبصر به تدرك

فان قلت: المسموع، أبصرت زيدا و لم يسمع أبصرتُ إلى زيدٍ قلت: يجوز أن يكون قوله(عليه السلام): من أبصر إليها «أي و من أبصر متوجّهاً إليها كقوله تعالى: (في تسع آياتٍ إلى فرعون) ولم يقل مرسلًا»^١.

أما لغة النص هي الأخرى لها دورها في انتاج الدلالة حيث جاءت هذه اللغة تقريرية «وهي لغة تتجنب التعويل على استخدام الاستعارات البعيدة التي قد تحتاج إلى إعمال الذهن بشكل لافت كما تميل إلى الوضوح الدلالي والاتكاء أو التعويل على المشترك الإدراكي بين المبدع والمتلقي مما يحقق انسجاماً تاماً بينهما»^٢.

٥- وقال (عليه السلام) وقد مرّ بقدر على مزبلة: «هذا ما بخل به الباخلون»^٣.

٦- تتمثل الإنتاجية البلاغية لهذه الحكمة في ثلاث نقاط هي:

اولا: تتمثل في التبادل الصياغي بين الخبر والإنشاء، حيث يشير هذا التبادل إلى تغيير عميق في مستوى الشعور بالموضوع.

فالامام(عليه السلام) لا يخبر عما شاهده من مأكولات تالفة أو فضلات طعام أو غيرها، بل يبدي أيضا شعوره بالانزعاج و الأسف عما يشاهده واستيائه من سلوك أحرق يمارسه البعض، حيث يخلون بما عندهم من متاع فيضنون به على اشقائهم من ذوي الحاجات، ليرمي في نهاية الأمر فوق المزبلة.

ثانياً: تتمثل السياق الخاص الذي جاء الكلام ضمنه، حيث يكسبه هذا السياق سمة النصية - كما يقول النقاد- وليس ذلك إلا بسبب ما يعتري المتكلم من شعور طاع يدل على تعامله الحميم مع الموقف، لا هذا فقط بل استدراجه المتلقي وتنشيطه لمشاعره وأحاسيسه تجاه ذلك الموقف.

ثالثاً: تتمثل في السياق أيضا لكن من جهة مختلفة و هو أن التعبير مع كل كنفاته الاستعمالية يتسم بالادهاش و الغرابة مما يرقى به إلى المستوى الادبي. فليست الكثافة الاستعمالية للتعبير الكلامية تسلبها قيمتها الادبية دائما، كما أن تقريرية النص ليست في جميع الحالات يعني كونه إبلاغياً. فالدخلة الجمالية التي تصيب المتلقي عندما يواجه تعبير الامام(عليه السلام) لهو خير دليل على بلاغيته وبالتالي إنتاجيته.

٧- وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِلسَّائِلِ السَّامِيِّ لَمَّا سَأَلَهُ: أَكَانَ مَسِيرُنَا إِلَى السَّمَاءِ بِقَضَاءِ مِنَ اللَّهِ وَقَدْرٌ؟ بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ هَذَا مُخْتَارُهُ: وَيَحْكُ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءَ لَازِمًا وَقَدْرًا حَاتِمًا؟! وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ. إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيرًا، وَتَهَاوُمٌ تَحْذِيرًا، وَكَلَّفَ يَسِيرًا، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيرًا، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا، وَلَمْ يُعْصَ مَعْلُوبًا، وَلَمْ يُطْعَ مَكْرَهًا، وَلَمْ يُرْسَلِ الْإِنْبِيَاءَ لِعِبَاءٍ، وَلَمْ يُنْزَلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عِبْنًا، وَ لَا خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.^٤

إن لفظتي القضاء و القدر من أكثر الألفاظ إثارة للجدل و النقاش في اوساط علماء الكلام و الفلاسفة، وقد أسأل الموضوع الكثير من الحبر - كما يقولون - فما من متكلم أو فيلسوف الا وقد أدلى بدلوه في هذا المجال، ونظر له انطلاقا من رؤيته الفلسفية نحو الوجود، بيد أن جواب الامام هذا جاء بمثابة فصل الخطاب.

فقد جاء انتاجه اللغوي إنهاءً لكل ما يقال عن اللفظين حدساً وحديثاً، وإسكاتاً لكل صوت يرىد التشدق بالكلام في هذا المجال دونما سلطان.

١ . ابن ابي الحديد، ١٩٨٧: ٣/٢٣٩-٢٤٠.

٢ . ضرغام، عادل، ٢٠٠٩: ١١٨.

٣ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ١٩٥.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٧٨.

عموماً فإنّ الأجوبة المسكتة وما يطلق عليه البلاغيون «اسلوب الحكيم» يمكن اعتبارها منتجاً بلاغياً ينصب على المضمون بوجه خاص وهو منتج تمكن طاقته الدلالية في أنه طريقة مخصوصة لاستعمال الكلام «وهو اسلوب يتشكل مع سياق تحاورى، تتمثل حكمته في الفطنة و اللباقة في إدارة الحوار بطريقة عقلية أو بمهارة لفظية لإقناع المتلقي والوصول به إلى التسليم بما يريده المرسل»^١.

وثمة نماذج رائعة لهذا الاسلوب ورد في نهج البلاغة نكتفي بذكر نموذجين منها:
«وَسُئِلَ (عليه السلام): كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ؟ فَقَالَ: كَمَا يَرَزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ قَلِيلٌ: كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرُوْنَهُ؟ فَقَالَ: كَمَا يَرَزُقُهُمْ وَ لَا يَرُوْنَهُ.»^٢
«وَ قِيلَ لَهُ (عليه السلام): لَوْ سَدَّ عَلَى رَجُلٍ بَابُ بَيْتِهِ وَ تَرَكَ فِيهِ، مِنْ أَيْنَ كَانَ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ.»^٣

٨- «وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ (عليه السلام) قَالَهُ لِلْبُرْجِ بْنِ مُسْهَرِ الطَّائِيِّ وَ قَدْ قَالَ لَهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَكَانَ مِنَ الْخَوَارِجِ أَسْكُتْ! قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَيْلًا شَخْصُكَ، خَفِيَ صَوْتُكَ، حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قُرْنِ الْمَاعِزِ.»^٤.

تقوم انتاجية هذا الكلام على دعامتين:

أولاً: على الصور الحية النابضة بالحياة التي أبدعها الامام حينما غضب لله و نهر رجلاً خارجياً ذا تصرف أرعن، حيث راح يحط من شخصيته الهوجاء بادناً بذكر معيبة جسدية له، حيث دعا له بأفته «أثرم» وهو ساقط الثنية، انتقاصاً لشخصه؛ فقد تعود القوم في إهانة ذوي العاهات بذكر آفاتهم.

ثم صور موقفه المتخاذل ضمن عرض قضية الحق والباطل التي ظهرت فيها شخصية الرجل حقيرة مغيرة؛ فقد كان ذا صوت خفي مغمور حينما طلعت شمس الاسلام، عربيداً جاهراً بالسوء حينما قوي موقف الباطل، فقد شبهه الامام في موقفه الأخير بقرن الماعز في سرعة نباته. ثانياً: تقوم انتاجية الكلام أيضاً على تنوع الاساليب الكلامية وتتابع النغمات الموسيقية أو الايقاعات؛ فهاتان السماتان تجعلان النص في المستوى الانتاجية، حيث يبدأ النص بلفظة «أسكت» وهي لفظة الأمر الغرض منها التحقير ثم يدعو على الرجل بقوله: «قبحك الله» ينادي به بعد ذلك «يا أثرم» مذكراً إياه بعاهته حطاً لشأنه فيتطرق إلى أسلوب القسم «فوالله» تأكيداً لما يقوله في شأنه وهو إخباراً يرمي إلى إهانته لينهي قوله في النهاية ببناء صورة فنية تعمق فظاعة ممارسته و انتهازية موقفه.

ملحوظة:

تجدر الإشارة أنه قد يصعب علينا احياناً التعامل الوجداني الحر والاسترسال مع كلمات حادة وتقرعية كهذه التي وردت في كلام الامام (عليه السلام) ، بيد أننا حينما نجعلها في سياقاتها الخاصة بها، و حين نعاقب النص معاقرة دلالية نزول هذه الصعوبة في التعامل، فمثل هذا النص الذي أبدعه الامام (عليه السلام) لا يمكن قراءته قراءة صحيحة الا من خلال جعلها في سياقات ثلاثة هي: السياق العاطفي والسياسي الثقافي و سياق الموقف.
فالسبب العاطفي – على سبيل المثال – هو «الذي يحدّد درجة الانفعال قوة و ضعفاً.

١ . البحيري، أسامة، ٢٠٠٠م: ٣٩٨.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٣٠٠.

٣ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٣٥٦.

٤ . نهج البلاغة، كلام رقم: ١٨٣.

فالكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية ترد حين يكون الحديث عن أمر فيه غضب وانفعال شديد»^١.

وفي ضوء هذا التفسير وفي ضوء قراءتنا للسياق الثقافي للمجتمع العربي و سياق الموقف المتمثل في حركة الخوارج الانفصالية التي حققت اضرارا جساما بالأمة، نستطيع تبرير استخدام تعابير النص من امثال «يا أثرم» و «فَبَحِّكَ اللهُ» و «ضئيلا شخصك» و «نجمك نجوم قرن الماعز».

٨- وَقَالَ (عليه السلام) لِبَعْضِ اصْحَابِهِ: «لَا تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغْلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ، فَإِنَّ يَكُنَّا هَلْكَ وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ، وَأَنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فَمَا هُمْكَ وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ؟!»^٢.

ترتكز الانتاجية في هذا النص على الجانب النفسي، حيث هو الجانب الأبرز و معلوم أنّ هذا الجانب يتعلق بالمادة، فاذا كان الشكل يعتبر عادة مدار النقاش الدلالي الأدبي ويأتي المضمون في المرتبة الثانية لكن هنا يكتسب النص جمالية شكله من جمالية مضمونه العرفاني؛ وأما هذه الجمالية تنشأ من كونها تكسر المألوف من العادات والرؤي كما في معظم نتاجات الامام(عليه السلام).

لا شك أن أبناء الدنيا ينصب اهتمامهم بالأهل و الولد و هذا الاهتمام قد يرقى احيانا إلى مستوى الهمّ الرئيس في الحياة، فنتحول القضية إلى الشغل الشاغل ولا يأتي ذلك إلا حين يحذف رب العالمين من معادلات الحياة المادية. فالامام (عليه السلام) يضع معادلة نفسية جديدة يمكن اعتبارها نسخة شافية لأدواء الأدميين ممن تحشر هموم الحياة المادية نفوسهم وعقولهم. فاذا كان أهلك من اولياء الله وأحبّاه فكيف يمكن للولي والمحب أن يترك من يواليه ويحبه أو يضيعه ويدعه فريسة لهموم الحياة وويلاتها! اما إذا كانوا من اعداء الله فلا يقوي أحد أن يستجلب لهم السعادة ويوقّر لهم الدعوة والراحة حتى ولو أهلك نفسه في سبيل ذلك. يمثل كلام الامام إذاً جوهر الأدب الاسلامي وهو ادب « يتأسس على العقيدة الاسلامية وما تتضمنه من تصور للوجود ويسعى لتمثلها في ما يصدر عنه سواء على مستوى القضايا والاهتمامات أو على مستوى الشكل واللغة والقيم الجمالية عموماً»^٣.

وأخيراً نقول أنّ هناك مجال واسع لطرح و مناقشة ابعاد «إنتاج الدلالة اللغوية» لا في نهج البلاغة فحسب وإنما في النصوص الاسلامية برمتها، حيث يمثلها أدب الاعجاز في القرآن وأدب الكمال في أقوال العترة الطاهرة.

١ . عون، نسيم، ٢٠٠٥: ١٦٠.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة رقم: ٣٥.

٣ . الرويلي ميجان والبازي سعد، ٢٠٠٧: ٢٥.

أهل البيت (عليهم السلام) في نهج البلاغة قراءة تأويلية

الأستاذ الدكتور: حاكم حبيب الكريطي (جامعة الكوفة / كلية الآداب)

لا نريد ابتداءً أن نبين حدود دلالة أهل البيت (عليهم السلام)، فقد فقد تكفلت مصادر المسلمين ببيان ذلك، ولكننا نريد أن نستكشف صفات أهل البيت (عليهم السلام) من أقوال الإمام علي (عليه السلام)، وخطبه ورسائله في نهج البلاغة، على الرغم من أن توصيفه - في الغالب - في سياقات لا يراد منها ذلك فقط، وإنما يأتي ذلك استكمالاً لأفكار يودعها في أحاديثه، ثم يأتي ذكر أهل البيت (عليهم السلام) بحسب ما يقتضيه المقام.

وعلى الرغم من ارتباط أغلب النصوص في نهج البلاغة بمناسبات معينة نص على ذكرها الشريف الرضي جامع النهج، فإن معالجات الإمام (عليه السلام)، تأتي للحديث عن المناسبة الأتية في وقتها، ولما يصلح لغيرها في عصره وفي المستقبل، وهذا واحد من أسرار نص الإمام في النهج، وعلى السامع في عصره، وعلى الراوي والقارئ في العصور اللاحقة، أن يأخذ منها ما تعينه معرفته على استنباطه، لأن النص «ليس بناء قواعدياً ودلالياً معيناً، وإنما هو يستند أيضاً إلى فعاليات عملية مرتبطة بالعوامل الاجتماعية».

إن نص نهج البلاغة يفتح على دلالات لا تنتهي، وتتعدد بتعدد الناظرين فيه، والمتأملين في ألفاظه وعباراته، ولا أدل على ذلك من كثرة الدراسات التي دارت حوله، وهي تختلف عن بعضها البعض باختلاف رؤية كل كاتب، وثقافته علمه واهتمامه وتوجهاته، وإلى الآن، ما يزال نص نهج البلاغة، غصاً طرياً مكتنزاً بالمعاني، معشياً مثمراً، يعطي ثمره مفتوحاً أمام العقل الذي يريد الانفتاح عليه، بما يمتلكه (أي العقل) من مؤهلات لغوية وعلمية وفكرية، بعيداً عن الهوى والميل والعاطفة.

فلغة نهج البلاغة على وفق هذه الرؤية، تمثل فكر الإمام (عليه السلام)، وفي الوقت نفسه، تمثل الأداة التي تنقل هذا الفكر فهي (المحتوى والأداة).

واستناداً إلى هذا، فإننا سنقف عند المفردات والتراكيب كثيراً، ونحن نقرأ النص قراءة تأويلية، أغرانا بها أكتناز أقوال الإمام بدلالات لا تعطي نفسها إلا بعد النظر المتأن في النص، وتأويله على وفق المعطيات اللغوية والاجتماعية والفكرية التي تحيط به.

ومن هنا فإن التدبر التأويلي في النص، سيعيننا على التقاط العلاقات المدهشة بين الألفاظ التي تشترك وتتعلق مع بعضها اشتراكاً دلالياً عجبياً، بما أسبغ عليها الإمام (عليه السلام) من حمولات جمالية ودلالية، وهذا ما بهر من سمعها ومن قرأها من العرب، وهذا ما بهر الشريف الرضي، الذي حس بهذا كله، بوصفه شاعراً كبيراً وأديباً بارعاً، تحسس مواطن الجمال في شعره، ووجد ضالته الجمالية والفكرية في كلام الإمام (عليه السلام) فسماه (نهج البلاغة).

إن ما نريده في بحثنا التأويلي هذا عن أهل البيت (عليهم السلام) في نهج البلاغة، الوقوف المتأن على كلام الإمام (عليه السلام) الذي يذكر فيه أهل البيت، لنستخرج بعضاً من صفاتهم، مستعنيين بما يعطيه المعجم العربي من دلالات للألفاظ التي تتحرك في حقول دلالية متقاربة، ثم النظر الفاحص في طبيعة علاقات الألفاظ مع بعضها، وما ينتج هذا النظر من دلالات ومعان ستكون تشكيلاً عقلياً، ربما يكون مساراً لقراءات أخرى، ثم عناوين أخرى - إن شاء الله تعالى - إن البلاغة التي تجللت بها أقوال الإمام (عليه السلام) وخطبه ورسائله، أظهرت حسناً وجمالاً، لم يألفه العرب في لغتهم باستثناء - لغة القرآن الكريم ولغة الحديث النبوي الشريف - ووجدوا فيها نمطاً زاهاً من الكلام، يحمل ثراء معرفياً في الاتجاهات كلها، ويمكن أن نضع حسن بلاغة الإمام (عليه السلام) تحت ركنين:

أولاً: - حسن حسي ومعرفي، ندركه من الوهلة الأولى بحواسنا ومشاعرنا، ونتجاوب معه نفسياً، فنشعر بجمال المعرفة وبقيمتها من جهة أخرى

ثانياً: - حسن عقلي: وهذا النمط يكشفه لنا استبطان النصوص وقراءة ما يختبئ خلفها من دلالات، تنتجها حركية النص لأنه حي يصلح للعصور كلها-كما أشرنا-، وهذا النصف هو الذي يعيننا في بحثنا هذا.

بقي أن نشير إلى قضية أخرى؛ هي أن هذا التوجه من القراءات التأويلية، قد يقود إلى الانزلاق عن جادة الصواب، والذهاب يمينا أو شمالا عن معطيات النص، وهذا ما سنتحاشاه- إن شاء الله تعالى- ونلازم أنفسنا بتبني المعاني التي تقدمها لغة النص مع ما يتصل بها من مرجعيات مختلفة-يمكن أن يشير إليها الإمام(عليه السلام) وفي ضوء ما يقدمه المعجم من قراءات لمعاني المفردات. وهذا منهج مألوف في القراءات التأويلية.

يقول الإمام(عليه السلام) عن أهل البيت: «هم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق». جعل الإمام(عليه السلام) أهل البيت-في هذا القول أزمة للحق، والأزمة في اللغة: جمع زمام، والزم: خبط يشد في خشاش الناقة، ثم يشد في طرفه المفقود، فيجعل الناقة طوعه، تدور معه حيث دار، فالحق إذا يدور مع زمامه الممسك به-وهو أهل البيت-حيث داروا، والإمام(عليه السلام) يشير هنا إلى نفسه-ومن خلال ذات نفسه إلى أهل البيت، وكأنه يريد أن يذكر من نسي من المسلمين بقول النبي(صلى الله عليه وآله): «الحق مع علي يدور معه حيث دار».

وهذا التشكيل الجمالي في التعبير، جعل الحق وهو غاية يسعى إليها المؤمنون، مقادا إلى أهل البيت (عليهم السلام) يتبعهم حيث كانوا، قيادة سيطرة وتوجيه، فإذا تحركت الناقة وأرادت أن تنقل من زمامها، قد تخرم حركتها أنفها، فيصاب بالعطب، والناس إذا خالفوا أهل البيت يصابون بالأذى.

ومن هنا يتبين لنا دقة التعبير في جعل جمال النص وعقل المدرك ينهضان بمهمة توجيه النص إلى ما يريده الإمام (عليه السلام).

أما قوله(أعلام الدين)، فالعلم«شيء ينصب بالغلوات تهدي به الضالعة»، فأهل البيت إذا منار هداية، نصبهم الله تعالى لتهتدي بهم الناس، في مكان يحتاج إليهم به، وقد يراد بالأعلام«الراية التي يجمع إليها الجند».

واجتماع الجنود إلى الراية يشعرهم بالاطمئنان، لقربهم من أمرائهم الذي يرسمون لهم طرق الاشتباك مع الخصوم، ويجعلونهم قادرين على غلبتهم، ويوفرون لهم دريئة تحفظ حياتهم.

وهذا المعنى يكشف لنا أول خصم يلاقيه الإنسان، وهو نفسه، فهو في قتال دائم معها(هو جندي في معارك متلاحقة مع نفسه)فإذا النجاة، أعلام الدين، أهل البيت (عليهم السلام).

وإذا كان مراد الإمام(عليه السلام) بالأعلام الجبال، فهذا يعني أن أهل البيت أوتاد للدين، كما الجبال أوتاد للأرض، قال تعالى «ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا»، يحفظونه(أي الدين)، ويحفظون من يتبعهم من التآرجح أو الميل، فيكون الدين ثابتا بوجودهم، كما أن الأرض ثابتة بالجبال، ولا ولاها لمادت بأهلها.

ويساند هذا القول قول آخر للإمام(عليه السلام) عن أهل البيت«...وجبال دينه»، فيتعاقد القولان لبيان رفعة أهل البيت وسموهم.

وثمة دلالة أخرى في العلم: وهي: رسم الثوب، يقال علمه: رقمه في أطرافه، جعل فيه علامة وجعل له علما.

فأهل البيت: هم رسوم الدين، هم علامات الدين التي تجعله واضحا بينا، بعد أن اختلطت أموره، وراح المخالفون للإمام يضعون علامات لدينهم.

ويبقى من نص الإمام (عليه السلام) قوله «السنة الصدق»، وهذا التعبير من التعبيرات القرآنية، ورد في قوله تعالى «واجعل لي لسان صدق في الآخرين»، ولسان الصدق لا ينطق إلا صدقاً يقول ابن أبي الحديد «جعلهم كأنهم ألسنة صدق، لا يصدر عنها قول كاذب أصلاً، بل هي كالمطبوعة على الصدق». وكأنهم خلُقوا ليكونوا كذلك.

ويقول الإمام (عليه السلام) في موضع آخر من النهج «هم أساس الدين، وعماد اليقين، اليهم يرجع الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة».

فأساس الدين هنا مأخوذ من قولهم: الأساس: أصل البناء، وهو جمع أس، فيكون أهل البيت (عليهم السلام) أصلاً للدين، عليه يعتمد بناؤه، ومنهم تتفرع فروع، وبقوتهم تتماسك قوته واليهم تلتفت مرجعيته.

وأما ان يكون الأساس مأخوذاً من قولهم: أس الانسان: قلبه لانه اول متكوّن في الرحم، فهم قلب الدين الذي تكوّن اولاً، وهو اصل الحياة، الذي ان نُزِعَ من موضعه كانت النهاية.

أما (عماد اليقين) الذي يريده الامام (عليه السلام) فهو مرتبط بالعبارة السابقة (اساس الدين)، لأنّ الآراء - في زمن الامام - تباينت، فتفرقت القلوب، وصار المسلم محتاجاً الى من يبعث الطمأنينة في صدره، وهنا يظهر أثر أهل البيت، اذ سيدد فيهم المسلمون عماداً ليقينهم، يُبعدهم عن التشذّر والتشتت.

«اليهم يفئ الغالي، وبهم يلحق التالي»: جعل الامام (عليه السلام) أهل البيت هنا كالمقرب الذي يسير في الفلاة، والمقرب جماعة الخيل والفرسان زهاء ثلثمائة.

فالذي يغلو في سيره ويتقدم على المقرب (أهل البيت) يرجع اليهم اذا خاف العدو واذا خشى التيه والهالك لبعده عن (مقربه).

أما من تخلف عن (المقرب)، وصار تالياً له، فسيلحق به «اذا أشفق من أن يتخطف»، فالافتراق عن أهل البيت مهلكة وضياح.

وأهل البيت من جهتهم - يطمعون في لم شعث المسلمين (الغالي والتالي) على السواء، فاذا تيسرت لهم وسيلة إلى ذلك تمسكوا بها وأمسكوا عما سواها، يقول الامام (عليه السلام) «... فاذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا وتدانى بها إلى البقية فيما بيننا، رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها».

أما قوله «خصائص حق الولاية»، فنقول الآتي: -

إنّ هذه القضية في مقدمة القضايا التي قادت المسلمين إلى الفرقة والتناحر والتشتت، والسعي وراء سلطان الدنيا، والجفاء لخلود الآخرة، وسيكون مجدداً تماماً أن نقف عند خصائص حق الولاية التي يشير اليها الامام (عليه السلام) هنا.

لنتأّن إذن قبل الحكم في جزئيات هذه القضية، ونضع أيدينا على مقاربة معرفية، تتمثل في أنّ (حق الولاية) لله سبحانه وتعالى وللرسول (صلى الله عليه وآله) ولأولي الأمر، لقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً» ولا تكتمل هذه المقاربة التي أشرنا اليها الا بمعرفة أولي الأمر.

تحمل الآية الكريمة أمراً من الله تعالى للمؤمنين باطاعة الله وباطاعة الرسول وأولي الأمر منهم. فعلياً اذن أن نستنبط دلالة (أولي الأمر) من سياق الآية أولاً، مع استشارة المفسرين لنتثبت مما نقول، بغية الوصول إلى الفهم المقنع الذي سيعيننا على معرفة (خصائص حق الولاية).

انقسمت الطاعة في الآية الكريمة على طاعتين: طاعة الله تعالى وطاعة الرسول (صلى الله عليه وآله) وأولي الأمر، بمعنى ان طاعة اولي الأمر جزء من طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله)، وبدلالة عجز الآية المباركة، اذ يُرد التنازع في أي شئ إلى الله والى الرسول، وكأن الإشارة الاولى لـ(أولي الأمر) أغنت عن الثانية، فلم يذكر (أولو الأمر) مع الرسول لأنهم جزء منه بدلالة صور الآية، وهذا اسلوب معهود في القرآن الكريم.

ومن هنا فلا يمكن أن يكون (ولي الأمر) مطاعاً الا اذا سار على نهج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في القول والفعل، وهذا قد لا ينطبق على السلاطين والأمراء أو أهل العلم الذين أشار اليهم المفسرون، وعدوهم مقاصد لدلالة (أولي الأمر) في الآية الكريمة.

وتوجيه المفسرين هذا يخلو من أي ضابط معرفي، وهو كلام عام، يجعل (ولاة الأمور) لا حصر لعددهم بين المسلمين في الأزمان المختلفة، ناهيك عن أن السير على منهج النبي (صلى الله عليه وآله) في القول والفعل، صار ركيزة خلاف بين المسلمين في العصور كلها، فما من فرقة من

المسلمين الا وترى نفسها انها الأقرب إلى هذا الذي نقوله. وهنا نقول اننا أردنا البيان فجاءنا المفسرون بالغموض.

ولننظر الآن في آية اخرى في سورة النساء نفسها ورد فيها ذكر (أولي الأمر): «... ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم العلم الذين يستنبطونه منهم»

فأولو الأمر هنا - وبحسب السياق - هم الذين يقدرّون على استنباط المعنى، ومن يقدر على ذلك يُعطي للقرآن أحسن تأويل بحسب الآية.

ان الاستنباط المشار اليه الذي لا يقدر عليه الا الرسول (صلى الله عليه وآله) وأولو الأمر، وهذا ما يقدمه النص الكريم، سيكون هو الأصل في خصائص الولاية التي أشار اليها الامام (عليه السلام) في قوله السابق.

وإذا اردنا أن نعيد صياغة الفكرة السابقة بعبارة اخرى نقول: - ان ولي الأمر الذي تتجسد فيه خصائص الولاية، هو من يعرف دلالات القرآن الكريم كلها، ويستنبط منها ما يغني المسلمين في حياتهم.

ولما كان القرآن الكريم تبياناً لكل شيء «ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء»، فان ولي الأمر هو الذي يعرف الوجود كله (بعد الرسول) (صلى الله عليه وآله)، لأن كل الوجود هو (كل شيء) الوارد في الآية المباركة.

ومن هنا فان القصور العقلي ومن ثم القصور المعرفي الذي يترتب عليه، يُبعد المسلم الحقيقي عن التفكير في ان يكون ولياً للأمر على وفق هذه الرؤية، وليس رؤية الولاية والسلطان والجاه والفقه والامر.

ويدع الأمر يذهب إلى أهله الحقيقيين، وهم أهل البيت (عليهم السلام) بحسب نص الامام. فهم الذين يمتلكون (حق الولاية)، ومن هنا توافق وصف الامام لأهل البيت (عليهم السلام) مع وصف القرآن الكريم لـ (أولي الأمر).

وإذا اردنا أن نتبين من (أولي الأمر) في الحديث النبوي الشريف، لنتمنّ ما أفرزته لنا هذه القراءة لنص نهج البلاغة، فسنجد نصوصاً صريحة تدل على ما نريد، فقد ورد في الحديث المروي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): انّ أولي الأمر في الآية السابقة هم «الأئمة من آل محمد (صلى الله عليه وآله)»، وقد اعتمد على هذا الحديث جمع من مفسري القرآن الكريم .

ومن هنا فإن ما قرأناه يقوي رواية الحديث وتوجيه المفسرين. ولعل عودة سريعة إلى اشارة أوردها القرطبي في تفسيره تكشف لنا ان الذي يقدر على استنباط المعنى هو الامام علي (عليه السلام) يقول «وقد استنبط علي رضي الله عنه مدة أقل الحمل - وهو ستة أشهر - من قوله تعالى (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، وقوله (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين)، فاذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهراً بقيت ستة أشهر».

بقي من النص قوله (عليه السلام) «وفيهم الوصية والوراثة».

يشير الامام (عليه السلام) هنا إلى وصية النبي (صلى الله عليه وآله) اليه، فكان وصيّه بحق، وشاع هذا اللقب، حتى عُرف به الامام (عليه السلام)، فاذا قيل الوصي، لا ينصرف الذهن الا اليه.

يقول ابن أبي الحديد «أما الوصية فلا ريب عندنا، انّ علياً (عليه السلام) كان وصي رسول الله، وان خالف في ذلك من هو منسوب عندنا إلى العناد» .

ووصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تعني شؤون الدين والدنيا والعمل للأخرة. ومن جملة ذلك (النص والخلافة)، ولكن ابن أبي الحديد يرى ان المراد بالوصية شيء أشرف وأجل من هذا كله .

ولعله - هنا - يستند إلى قول آخر للامام (عليه السلام) اذ يقول «... بل اندمجت على مكنون علم لو بحث به اضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة» .

ومكنون العلم المشار اليه هنا يتصل بالوصية التي تلقاها من النبي (صلى الله عليه وآله)، والتي لو كشف عنها لاضطرب سامعوه اضطراب الحبل في البئر البعيدة القعر، هلعاً وخوفاً وخشية وشفقة على أنفسهم، مما وصل اليه منهم من تقصير أو أذى.

ويقول الامام (عليه السلام) في موضع آخر من النهج عن أهل البيت (عليهم السلام) « فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، ان نطقوا صدقوا وان صمتوا لم يسبقوا ».

ومعنى (كرائم القرآن) آياته. قال تعالى «انه لقرآن كريم»، والمراد هنا من الكرائم واحد من معنيين أو الاثنين معاً:

الأول: ما ذهب اليه ابن أبي الحديد وجمع من القدماء، وتابعهم الشيخ محمد عبده. وهو ان المراد بهذا الآيات الكريكات التي نزلت في أهل البيت (عليهم السلام).

والقرآن كله كريم، وهذه الآيات هي كرائم من كرائم.

الثاني: وفيه المعنى الاول، وتتضم اليه دلالة اخرى، توازي الدلالة الاولى، وتنطوي عليها بوصفها الحاضنة الكبرى، وهذه الدلالة تكمن في ان (كرائم القرآن) يجسدها أهل البيت في عقولهم ومعارفهم وسلوكهم واحوالهم، فهم «القرآن الناطق والثقل الصادق، لأن القرآن لا ينطق بلسان، ولا يد له من ترجمان»، وهم الذين يترجمونه بما وهبهم الله تعالى.

أما قوله (كنوز الرحمن)، فالكنز في اللغة «المال المدفون تحت الأرض وكل كثير مجموع يتنافس فيه كنز»، والكنز فيه من النفاسة ما يجعله محلاً للتنافس، وما دام أهل البيت (عليهم السلام) بهذا الوصف فهم كنوز الرحمن، والله سبحانه وتعالى يدخر كنوزه لعباده.

وقد يُفسر الكنز بالعلم والصحف - كما فسر ابن عباس كنز أهل الكهف في قوله تعالى «وكان تحته كنز لهما» وهذا التوجيه للكنز يتماهى مع ما عُرف عن علم أهل البيت (عليهم السلام) وصحفهم. فعلمهم أشهر من أن يُشار اليه، وصحفهم وما فيها يمكن أن تكون (صحيفة فاطمة) (عليها السلام)، تصديقاً لها. والسياق يرجح هذا التوجيه، بمعونة المناسبة التي تنتظمه.

ومن جملة علم أهل البيت (عليهم السلام) معرفتهم بما في (كرائم القرآن) من معانٍ واسرار. ويمكن أن نلاحظ شيئاً من هذا في هذه الرواية، التي تقول: ان الامام (عليه السلام) وصف جابراً بن عبد الله الأنصاري بالعلم، فقيل له: أنصف جابراً بالعلم، وأنت أنت، فقال: انه كان يعرف تفسير قوله تعالى «ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد».

فتفسير آية واحدة، منح مفسرها العلم، بشهادة أمير المؤمنين (عليه السلام) فما بالك إذن بمن عنده العلم الذي كتبه عن أصحابه، رافة بهم أو اشفاقاً عليهم - كما مر بنا -

ورب معترض يقول: ان القرآن نزل بلغة العرب، ومن يتقن هذه اللغة ويعرف أسرار التعبير بها، قد يقدر على تفسير القرآن.

ونجيب هنا عن هذا الاعتراض بالقول: ان من يمتلك هذه الصفات قد يفهم بعض معاني القرآن، وهي المعاني الظاهرة. يقول صاحب البرهان: «... وانما يفهم بعض معانيه، ويطلع على أسرارهِ ومبانيهِ، من قوي نظره، واتسع مجاله في الفكر وتدبره، وامتد باعه ورقته طباعه، وامتد في فنون الأدب وأحاط بلغة العرب».

أما المعنى الباطن فيتعذر الوصول اليه، الا ببيان نبوي، وهذا ما حصل عليه الامام (عليه السلام) من النبي (صلى الله عليه وآله) فهو وصيّه وباب مدينة علمه - كما سيرد - ومن هنا يمكن أن نفهم تماماً قول السيوطي في الاتقان.

عن الامام (عليه السلام) «ان القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف الا وله ظهر وبطن، وان علي بن ابي طالب عنده منه الظاهر والباطن».

وثمة نص آخر ورد في النهج، يتصل بهذه النصوص، ويتعاقب معها في بيان لطائف كرائم (أهل البيت)، وبيان علمهم، ورسوخهم فيه.

يقول الامام (عليه السلام): «اين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا». يستفهم الامام (عليه السلام) استقهماً انكارياً، عن اولئك الذين يدعون أنهم راسخون في العلم دون أهل البيت (عليهم السلام). فكيف ادّعوا ذلك؟

ان الاجابة عن هذا السؤال تستدعي العودة إلى الآية الكريمة التي ورد فيها ذكر (الراسخون في العلم). وهي الآية السابعة من سورة آل عمران.

قال تعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب، فيه آيات محكمات هنّ ام الكتاب واخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم، يقولون أمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب» .

لقد اختلف المسلمون في قوله تعالى (والراسخون في العلم)، فقالت طائفة هو معطوف على اسم الجلالة، فيكون تأويل القرآن من علم الله تعالى وعلم (الراسخون في العلم)، وتكون (يقولون) حال.

أما الطائفة الاخرى من المسلمين، فنقول ان (والراسخون في العلم) الواو للاستئناف و(الراسخون في العلم) مبتدأ، خبره (يقولون) .

وقول الامام (عليه السلام)، يمتن الرأي الأول ويقويه، ويضعف الرأي الثاني، فضلاً عن الضعف الذي يتسرب من المعنى المترشح للآية، فعلى وفق هذا يقول الراسخون في العلم: أمنا به كل من عند ربنا، وهذا «قول عامة المسلمين، فأنتهم يعتقدون بأن القرآن كله من عند الله تعالى، بلا فرق بين عالمهم وجاهلهم وأهل البادية والسوق منهم، وسياق الآية سياق مدح... فيختص بقوم خاص ولا يعم كل من قرأ القرآن».

وفي المعجم الراسخ في العلم: الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً وكل ثابت راسخ ومنه الراسخون في العلم، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الراسخ في العلم والداخل فيه دخولاً ثابتاً، ومن تعلم منه (وهم أهل البيت) هم أيضاً راسخون في العلم.

وهنا لا أرى مسوغاً للنظر في تفسير ابن الاعرابي للراسخين في العلم. اذ عدّهم (الحفاظ المذاكرون).

فنص الامام (عليه السلام) يحتم علينا أن نوجه الاعراب بحسب المعنى، ومقولة (الاعراب فرع المعنى) تزداد لمعاناً هنا، وهي أيضاً تجبرنا على الأخذ بالقبول: ان التأويل من اختصاص الله تعالى، و(الراسخون في العلم)، وبصياغة اخرى: هو من اختصاص الله تعالى ومن ثم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن ثم أهل البيت (عليهم السلام).

والآن ظهر كذب من يدّعي انه راسخ بالعلم دون أهل البيت – بحسب نص الامام (عليه السلام) وظهر بغيه: والبغي: الاستطالة على الناس، والبغي: الظلم والفساد، فهذا المدعي كاذب ومعتد على أهل البيت وباغ وظالم، لأنه قد يوهم بعض المسلمين بدعواه ويفسّر القرآن على هواه، فتجتمع فيه هذه الصفات كلها.

وبعد هذه القراءة التي اعتمد التأويل سبيلاً لها، في بيان صورة أهل البيت (عليهم السلام) في نهج البلاغة نخلص الى بعض النتائج التي توصل اليها البحث.

اولاً: ان قراءة نهج البلاغة قراءة تأويلية، كشفت لنا عن حمولات غنية من المضامين الفكرية والجمالية والتربوية، لم يلتفت اليها من قبل – فيما اظن-.

ثانياً: انّ دلالات النصّ في نهج البلاغة تفتح على دلالات قد لاتنتهي، والتأمل كفيل بالكشف عن بعض تلك الدلالات التي تثري المعرفة الانسانية.

ثالثاً: يمكن ان تصحح بعض الاحاديث النبوية، استناداً الى ما جاء في اقوال الامام (عليه السلام) وخطبه وحكمه.

رابعاً: قد يصح ان ينظر في بعض آراء المفسرين، استناداً الى نص النهج في المواطن التي ذكرها الامام (عليه السلام).

وفي الختام عسى الله تعالى ان ينفع بهذا البحث من يريد ان يتلمس بعضاً من شذرات اقوال الامام علي (عليه السلام) .

تقنيات الحجاج في نهج البلاغة

المدرس الدكتور: مؤيد آل صوينت (كلية الآداب- الجامعة المستنصرية)

شهدت اللسانيات ونظريات تحليل الخطاب والتصورات الحجاجية تعريفات متنوعة "للحجاج" منظوراً إليه بسماته الموضوعية العامة أو البنى اللغوية المميزة أو علاقته بالبلاغة وهل هي علاقة امتداد أم علاقة تقاطع، أو الوظائف الاتصالية والايصالية أو الأنساق المكونة له. ففي الوقت الذي تعد فيه الاستمالة أو المولاة Adheveuce هي المعيار الأهم الذي بنيت عليه تعريفات متعددة منها تعريف (ريك) Rieke و(سيلارز) Sillars إذ يعرفان الحجاج بأنه (عملية عرض دعاوى تتضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة بغية الحصول على المولاة لأصل تلك الدعاوى) تبرز تعريفات أخرى الحجاج فعلاً لغوياً أو عملية اتصالية أو جنساً من خطاب تفاعلي مع إبراز أهم مكوناته، على نحو ما نجد في تعريف (ماس) Maas و(شيفرين) Debavah و(فينجر) Viehweger^١ وأورد (بيرلمان وتيتكا) تعريفات متعددة للحجاج في مواضع مختلفة من كتابهما أهمها قولهما: موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم، ويربطان في موضع آخر بين الحجاج والغاية فيرقتان: غاية كل حجاج أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها من آراء أو أن تزيد في درجة تلك الإذعان، فانجح الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب انجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق -على الأقل- في جعل السامعين مهينين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة. ويستند مفهوم الحجاج عند (بيرلمان وتيتكا) - فيما هو ظاهر التعريفين- إلى صناعة الجدل من جهة وصناعة الخطابة من جهة أخرى بكيفية تجعل الحجاج شيئاً ثالثاً لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة، لنقل معهما انه (خطابة جديدة) فأما اثر الجدل من حيث هو فن يتوسل المشهورات أو المسلمات لإلزام الخصم فيظهر من حديثها عن التأثير الذهني في المتلقي، وعن تسليمه بما يقدم له وإذعانه لما يعرض عليه من خلال إلحاحهما على فكرة (توجيه العمل) والإعداد له والدفع إليه. يقول (روبول) في معرض التمييز بين الجدل والخطابة الأرسطيين: الجدل لعبة نظرية، أما الخطابة فليست لعبة، إنها وسيلة عمل اجتماعي.

تكمن قيمة تعريفي (بيرلمان وتيتكا) للحجاج في دمج ثنائية العقل/ العاطفة في العمل الحجاجي، فعندهما -كما هو واضح من التعريف الثاني- أن العمل الحاصل بوساطة الحجاج على صعيد العقل وهو عمل التأثير النظري والإذعان والتسليم (وهو غاية الجدل عادة، مؤدٍ إلى العمل السلوكي) الذي كانت من جملة مصادرة في منظور الخطابة العاطفة الملحمية والمشاعر الجياشة ومعنى ذلك أن العمل المترتب على الحجاج ليس متوسلاً إليه بالمغالطة والتلاعب بالأهواء والمناورة، بل هو عمل هياً له العقل والتدبر والنظر الأمر الذي يتضح من تقسيم وظائف الحجاج إلى: الإقناع الفكري الخالص أولاً، والإعداد لقبول أطروحة ما ثانياً، والدفع إلى العمل ثالثاً^٢. والحجاج باعتباره حرية وحواراً عقليين، لا يمكن الاستغناء عن الأطر المكونة له والمحيطه به لاسيما الاستدلال والخطابة، وان كان في جوهرة اقرب إلى هذه الأخيرة، لأن الحجاج لا يكون إلا في الأمور التي تثير الشك وتتطلب جهداً فكرياً وعقلياً لتدقيقها وكشف لبسها، ولعل هذا سر جمع بيرلمان في نظرية بين الخطابة والجدل الأرسطيين.

التقنيات الحجاجية:

تتطلب العملية الحجاجية من اجل ترسيخ الخطاب في جمهور المتلقين جملة من الآليات وتستدعي جمعاً من الوسائط الإقناعية تأخذ سمة التثبيت والاستقرار، بما أن التقنيات الحجاجية كيانات مجردة

١ . ينظر: النص الحجاجي العربي (بحث) ص ٤٣.

٢ . ينظر: الحجاج التصورات والتقنيات (بحث) ص ٥.

يشغلها المحاج عمله من القيم والحقائق حتى تصبح فاعلة في الخطاب موجهة حركته، تتجلى قصيدتها في الأفعال الحجابية التي ينجز عنها تبديل عقائد الجمهور وتوجيه تصورات العفدية الرمزية والانطولوجية. ويقود اختبار المعطيات والحجج والمقدمات وإحضارها في مسار الخطاب إضافة إلى تجويد عرضها وتحسين بسطها، إلى جعل الخطاب مقنعاً، فاعلاً، يبذل ويغير، يعلي ويحط، يشرع ويدحض ويعتمد الخطاب في الحجاج على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطواعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحق بخطابه، ونود أن نذكر هنا أن الفصل بين اطر الحجاج وتقنياته لا يعدو ان يكون سوى فصل إجرائي للغاية منه تمكين المتلقي من الوقوف على مفهوم الحجاج وطرائق التعبير المكونة له.

وقد نظم من اشتغل بالحجاج من المنظرين تقنيات الحجاج وفق طريقتين من طرائق

الربط:

١- الطرائق الاتصالية *Procedes de Liason*- والمقصود بها الطرائق التي تقرب بين العناصر المتباينة بدءاً وفي الأصل، وتتيح إقامة ضرب من التضامن بينها لغاية هيكلتها أي إبرازها في هيكلية أو بنية واضحة لغاية تقويم احد هذه العناصر بوساطة الآخر تقويماً ايجابياً أو سلبياً.

٢- الطرائق الانفصالية *La dissociation des motions*- القائمة على الفصل بين المفاهيم المعطيات وهو ما ينجم عنه توليد حقائق جديدة ينشئها المحاج بمفعول ما أجراه على تلك المعطيات وما مارسه على تلك القيم من فصل تتحكم مقولتنا الظاهر *apparence* والحقيقة *Realite*.

أولاً: الطرائق الاتصالية: وتنقسم الى عدة حجج، أهمها:

١- الحجج شبه المنطقية: التي تعتمد في قوتها الاقناعية على بعض البنى المنطقية مثل التناقض، والتماثل التام أو الجزئي وقانون التعدية، وتوظف الحجج شبه المنطقية مضموني التناقض وعدم الاتفاق، فالتعارض هو اجتماع حكيم متناقضين في فرضية أو خطاب ما، والتناقض غالباً ما يكون جلياً يسهل كشفه، أما كشف التعارض فمثير للسخرية، لذا اعتبر (بيرلمان) السخرية أو الهزأ من أهم الأسلحة الحجابية.

أما التماثل التام فمداره على التعريف الذي يكون فيه المعرف والمعرف متماثلين لفظاً، الأمر الذي يجعلنا نعتبر اللفظ الثاني محمولاً على المجاز، حتى لا تكون العبارة الثانية حشواً أو تحصيل حاصل، ويضرب الحجاجيون مثلاً لهذه الصيغة القائمة على التماثل بالمثل المعروف في قولنا (المرأة هي المرأة) مع التأكيد أن هذه الصيغ لا تكتسب قيمتها الحجابية إلا في مقامات خاصة. وتقوم حجج التعدية على استنتاج علاقات انطلاقاً من توظيف قيمة عنصر ثالث يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني، ويضرب لذلك مثال (عدو عدوي صديقي) فالطابع شبه المنطقي لهذه الحكمة يدعم ما يمكن ان يستنتج منها وهو: أن صديق عدوي عدوي.

أما الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، فيقوم الحجاج فيها على إدماج الجزء في الكل على اعتبار أن الأول مندمج في الثاني، ويكون هذا الاندماج والارتباط مأخوذ من وجهة نظر كمية.

٢- الحجج المؤسسة على بنية الواقع: وهي حجج تستند إلى الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها، وأحكام يسعى الخطباء التي تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلحاً بها، وذلك يجعل الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي الى كل واحد يجمع بينها، بحيث لا يمكن التسليم بأحدها من غير أن يسلم بالآخر، ومن هنا وصفها لكونها حججاً اتصالية أو قائمة على الاتصال، ويمثل الحجاجيون لهذا النوع بوجوه الاتصال التتابعي بوصفها تضم مظاهر الاتصال السببي كالربط بين بعض الأحداث المتتابعة بوساطة علاقات سببية أو استخلاص نتيجة

ما بسبب حصول حدث أدى إليها، أو التكهن بما سبق لو أن الحدث المسبب قد حصل، ويمثلون لذلك على الترتيب ب: اجتهد فنجح - نجح لأنه اجتهد هو يجتهد فسينجح.

والى وجوه الاتصال التتابعي تنتمي حجج التبرير وحجج الاتجاه. أما بخصوص حجج السلطة، فقد اتفقت الاتجاهات الحجاجية على أن النسبة الكبرى من قيمته إنما يكتسبها من سلطة قائلة ومكانته وقيمه، فالعادة في الحجاج أن تكون الحجة بالسلطة الحجة الوحيدة فيه، وتأتي هذه الحجة مكملة لحجاج يكون غنياً يحجج أخرى غير حجج السلطة، وكثيراً ما نعلم إلى الثناء على هذه السلطة قبل استعمالها حجة في كلامنا، لكي نكسبها مصداقية أكبر. أما العلاقة الرمزية فتقوم على التلازم بين أطرافه، وهو تلازم قائم على علاقتي المشاركة والتبرير لا العلاقة الاعباطية. ويشار في هذا المجال إلى أن استعمال هذا النوع بالذات من العلاقات الحجاجية لا يمكن توظيفه في أي مقام، لان إدراك العلاقة بين أطراف لرمز يمثل لب الفكرة الحجاجية، في حين أن هذه العلاقة لا يمكن أن يعرفها إلا أفراد المجتمع الذي صاغ ذلك الرمز، الأمر الذي يؤكد أن للرموز خصائصها الثقافية الحضارية البالغة الخصوصية، مثلما أن بعدها الجوهر بعد لا عقلاني.

٣- الحجج المؤسسة لبنية الواقع. وتقوم على مستويين أساسيين: أولهما: تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة كالمثل Lexemple الذي يؤتى به لتأكيد الفكرة المطروحة، ويلحق بالمثل الاستثمار بالنصوص ذات السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القادة الخالدين في نظر الجماعة المقصودة لان قيمة الشخص المعترف بها سلفاً من قبل السامعين يمكن اعتبارها مقدمة حجاجية مهمة توظف في تحقيق العديد من النتائج، ومن هنا تكون مهمة المثل برهانية في حين تكون مهمة الاستشهاد توضيحية.

أما ثانيهما فيقوم على استخدام التمثيل Anatyie استخداماً حجاجياً، لأنه في الحقيقة غير قائم على علاقة تشابه بل هو (تشابه علاقة) فضلاً عن وجه الشبه فيه عقلياً هو أمر يمنح المخاطب متعة كبيرة وتسليماً بالفرضيات المقدمة وذلك يكشف دقة وجه الشبه وطرافة الاستدلال بالتمثيل، هذا إضافة إلى أن التوظيف الجيد للتمثيل في بنية حجاجية ما، من شأنه أن يضيف على مجمل عناصرها - حتى تلك غير الداخلة في بنية التمثيل - دلالة كبيرة لم يكن لها في حالتها الانفرادية، وينبه (بيرلمان) إلى أن التمثيل في الحجاج مجال الإبداع، يطلب من التمثيل في مجال الحجاج أن يلتزم وجه معين وإلا فقد طاقته الاقتناعية.

ثانياً: الطرائق الانفصالية في الحجاج:-

لا يقع هذا الفصل العناصر التي تُولف وحدة واحدة يتم تجزئتها لغايات حجاجية، ولما كانت الوسائل اللغوية في كل نص حجاجي هي سداه ولحمته، أصبحت اللغة في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعبر عنها وإقناعهم بصدقيتها عبر الاستناد إلى أنواع مختلفة من البنى منها بنية التكرار التي تضم - تكرر - الشكل تكرر المضمون. وبنية التوازي ونقصه به الربط بين عناصر متساوية في الحال، عنصر سابق وعنصر آخر متصل به أو لاحق. كل من هذين العنصرين حر، أي له كيانه الوظيفي الكامل^١.

يبدو (نهج البلاغة) متناً حجاجياً بامتياز، يظهر الفحص لأعطاف المدونة العلوية قصدية واضحة للتأثير بالجمهور على نوعيه: الخاص والكوني وستحاول هذه الورقة البحثية الكشف عن بعض التقنيات الحجاجية المبنوثة في جواب الأمام علي (عليه السلام) لمعاوية في كتاب بعثه إليه وصفه لشريف الرضي بأنه من محاسن الكتب.

أولاً: الحجاج بالتدعيم: ويقصد به إثبات المرسل صحة رأيه وصواب معتقده بإزاء رأي الآخر أو معتقده بوسيلة (التدعيم) وهو على وجوه:

١ . ينظر: التحجج (٨)، الحجاج في البلاغة المعاصرة ص ١٢٧ وما بعدها.

١- موقف الحجاج الأكثر شيوعاً في المدونات العربية هو تقديم إفادة Stalemate تحظى بموالاتة المخاطب وربما طور المخاطب بسؤال أو بدعوى مفادة، وفي المتن النهجي المفحوص نفني للملفوظ المدعم أو الدليل أنماطا شتى من أهما:

أ- الآيات القرآنية: إذا تأملنا قوله (عليه السلام) (فإسلامنا قد سمع، وجاهلينا لا تدفع وكتاب الله يجمع لنا ما شرعنا وهو قوله ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٥٧). وقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^١. نجد أن العملية الحجاجية بنيت على النحو الآتي:

مقدمات ← تدعيم

وفي قوله (عليه السلام) (وقد عرفت مواقع نصالها في أخيك، وخالك وجدك واهلك ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ ﴾^٢ نجد النص الحجاجي جسّد على النحو الآتي:

مقدمات ← تدعيم

دعوى احتياط

ويتنزل الحجاج بالنص القرآني في مدار حجة السلطة يحتج به ويعتقد بقداسته الأمر الذي جعل الشاهد القرآني فاصلاً بين الحق والزعم، هذه الوظيفة تزيد كلام الأمام (عليه السلام) والوسم الاقتناعي تمكناً ينفعل به الجمهور فيضاعف اعتقاده (وهذه الوظيفة ضرورة من ضرورات الحجاج الفاعل لأن الحجاج في أصل مفهومه دائر على هذه الوظيفة)^٣.

٢- تدعيم الحجاج بالشعر: يعد الشعر عند العرب الصوت المعبر عن كيانهم، والنسق الثقافي الحاضن لغيره من الإنسان، فهو وجه من مصادر الاحتجاج تثبت به القواعد ويرشح عنه ما يرفد حركة التأويل ويقوي اسنادها ويترقد الشعر في نهج البلاغة عامة وفي هذه الخطبة بالخصوص معلماً بارزاً للعملية الحجاجية لما له على المتلقي العربي من تأثير، وفعل نوع من الانسجام بين الأمام (عليه السلام) محاجاً ومدافعاً عن أطروحاته ورؤاه ومقاصده، وبين الجمهور متلقياً للخطاب منفعلاً به.

ففي قوله (عليه السلام) (فزعمت إني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت فان يكن ذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر لك).

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
نجد الخطاطة الحجاجية كما يلي:

دعوى ← نتيجة

تدعيم احتياط

وقوله (عليه السلام): (وما كنت لاعتذر من اني انقم عليه إحداثا، فان كان الذنب إليه إرشادي وهداتي له، فرب ملوم لا ذنب له:

(وقد يستفيد الظنة المنتصح).

وقوله (عليه السلام): وذكرته انه ليس لي ولأصحابي إلا السيف، فلقد اضحكت بعد استعبار، متى الفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيوف مخوفين.

(لبت قليلاً يلحق الهيجا حمل).

١ . آل عمران: ٦٨.

٢ . هود: ٨٣.

٣ . الحجاج وآفاق التأويل ص ١٧٥.

فالإتيان بالشعر ملاسماً الخطاب يعطيه درجة عالية من الفعل الحجاجي فضلاً عن التأثير في مخيال المتلقي، لذا جاء في هذه الرسالة (ركناً ودعامة تعانين كما وتحدث فعلاً، إذ لا يكاد مقام من مقامات الاحتجاج يكون تصويماً لرأي أو نفياً لتصور أو تعميماً لرؤية إلا ويطلب فيها الشعر قاعدة تدعم أو مبدأ يقوم)¹.

٣- المثل: يقوم المثل في العملية الحجاجية مقام الاستقراء في المنطق، أو المثل هو استقراء بلاغي. فالمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدماتها ويراد استنتاج احديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها، والواقع (أن المثل يعتبر دعامة كبرى من دعائم خطاب الإقناع والتأثير، إذا أخذناه بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه والاستعارة)² ونجد في رسالة الإمام (عليه السلام) أمثلة متنوعة لتدعيم الحجاج عند المتلقي كقوله (إذ طففت تخبرنا ببلاء الله عندنا، ونعمته في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده إلى النضال)³ ويؤتى بالمثل Lexemple في حالة انعدام المقدمات وتستبطن المحاجة به وجود خلاف أو نزاع في شأن قضية محدودة، فيصار إلى المثل لدعمها أو لدحضها.

٢- التدعيم بالمصادقية: والمصادقية عامل مهم في الحجاج في ضوء تحديد ريك وسيلارز لأنواع المصادقية، ويمكن توصيف النص الحجاجي بجملة سمات وهي:

أ- فلما يلجأ الباث إلى المصادقية المباشرة، ذلك انه قلماً يقدم عن نفسه إفادات مباشرة قصد زيادة قابليته للتصديق وينصرف همه - في المقام الأول- إلى التماس العلل المقنعة.

ب- اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصادقية الثانوية (وهي التي تتأتى من ربط مصادقية شخص آخر بالحجاج) أقوى كثيراً من اعتماده على المصادقية المباشرة. ويرجع هذا إلى تجانف كاتب الحجاج العربي عن تقديم نفسه، تاركاً ذلك لفحوى الخطاب وفهم المخاطب⁴.

ويظهر مثل هذا النوع من الحجاج في مدونته (عليه السلام) (إن قوماً استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين والأنصار ولكل فضل، حتى إذا استشهد شهيدنا، قيل: سيد الشهداء وخصه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه.

وقوله (عليه السلام) في موضع آخر: فإسلامنا قد سمع وجاهلينا لا تدفع.. فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة. فالحجاج في هذه النصوص ينضوي تحت التدعيم بالمصادقية عبر استحضار الأنساق الثانوية خلف الملفوظ وهي انساق فاعلة في الثقافة الإسلامية، نظراً لما يصل هذا الأنساق بأسبقية النص اللسانية والتداولية فيصبح الحجاج متجاوزاً العبارة ليغرس في الخطاب بشكل مدمج.

٣- التدعيم بالقيمة: والقيمة مفهوم مركزي يستخرج مما يقوله الناس، وقد تضمّن، ولكن تضمينها يقع في حالات كثيرة جداً، تحدد النظرية الحجاجية المعاصرة للقيمة نمطين اثنين: القيمة الوسيلة *instrumenta value* والقيمة الغاية *terminul value* الأولى تضع إفادة عما هو ذو قيمة والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتغياهم المتكلم⁵ والمتتبع لخطاب الإمام علي (عليه السلام) يجد ميل خطابه إلى القيمة الغاية ميلاً أقوى تأثيراً في الحصول على مستوى من الموالاتة *adherence* يجعل المستقبلين يغيرون سلوكهم، ففي قوله (عليه السلام): (فدع عنك من مالت به الرمية فإننا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا، لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومك، إن خلطانكم بأنفسنا) وقوله (عليه السلام) (وما على المسلم من غضاضة في إن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه حجتني إلى غيرك قصدها) نلاحظ على الكلام المذكور اثر المقام وتوظيفه حجاجياً عبر (القيمة) فللمقام والسياق اثر جليل في توجيه مسارات

١. م.ن، ص ١٦٩.

٢. في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ١٥.

٣. هجر: مدينة في البحرين كثيرة النخل. والمسدد: معلم رمي السهام. والنضال: المراماة أي كمن يدعو أستاذه في فن الرمي إلى المناضلة. وهما مثلان لنقل الشيء إلى معدنه والمتعالم على معلميه.

٤. ينظر: النص الحجاجي العربي ص ٥٤.

٥. ينظر: م.ن، ص ٥٣.

القول الحجاجي وتلويحه بصيغة معينة، ونجد لهذا الأمر صدى في كلام (صوله) وهو يعرض أفكار بيرلمان وتبينكا في الحجاج، إذ يقول (ومهما يكن من أمر، فإن في عرض المعطيات، ينبغي أن يكون المقال مطابقاً للمقام من أجل حجاج ناجح).^١

وتتنزل القيم في الحجاج مرتبة سامقة فهو يدور حولها ويهديها بتوجهه وحين يرسم الحجاج مقدمات فما له تثبيت قيم تنرخ عند جمهور المتلقي.

ثانياً: القياس المضمر Enthymeme احد أنواع القياس المنطقي، معيار القياس المضمر انه قياس محذوف المقدمة، وهي المقدمة الكبرى.. ويبدو القياس المضمر في مثل هذه الحالة آلية منطقية للوصول إلى نتيجة أو غرض يشبه ما يسمى بالتعريض للبقيا، آلية في الخطاب يمثل لها القدما بتعريض الله بأوصاف المنافقين وإمساكه تسميتهم إبقاء عليهم، ويستوجب القياس المضمر حضوراً يقظاً للقارئ مع النص يستنبط له من سياق الحجاج مقدمته المحذوفة ويمكن الوقوف عند بعض النماذج الموثقة في كلام الإمام (عليه السلام) المتغياً بها حجاجاً اقناعياً بوساطة القياس المضمر قوله (عليه السلام) (قد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طففت تخيرنا ببلاء الله عندنا، ونعمته علينا في نبينا، فكننت في ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعي مسدده إلى النضال) وقوله (وما أنت والفاضل والمفضل والسائس والمسوس وما للطلاق وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟! هيهات لقد حنّ قرح ليس منها، وطق يحكم فيها من عليه الحكم لها) فكشف التعارض في حجج الخصوم، يبدأ بجعل دواعيهم وخطاباتهم (التأويلات، الأخبار) متناقضة منطقياً وتداولياً فينتج عن ذلك نوع من اشتداد التواطؤ المعرفي التصوري بين الامام صانعاً للخطاب والجمهور متلقياً له منفعلاً به.

ومأتى حجية هذا الإجراء الحجاجي من توسله ببنية منطقية يستنبطها جواب الإمام (عليه السلام) ويدعو المتلقي بالاختضاء إلى الإيمان بها (فيحصل بذلك ضرب من التناظر بين طريقة عرض تناقض الدعوى وعدم اتفاق التخريج وكفاءات الجمهور المقررة في تقدير الأشياء وتغيير الأحكام التي عادة ما تنشأ انشداداً وثيقاً وترتبط ارتباطاً محكماً بالقضايا التي يكون نظام البرهنة فيها مرتدياً لبوساً منطقياً تتناظر فيه وقائع الصدر والمقدمات مع حالات الخواتم والغايات).

بنية التوازي:

التوازي Parataxis ربط بين عناصر متساوية في الحال عنصر سابق وعنصر آخر متصل به أو لاحق. كل من هذين العنصرين حر، أي له كيانه الوظيفي الكامل، ونمّيز هنا بين التوازي على النحو السابق والتركييب Hypotax، فالتركييب ربط بين عناصر غير متساوية الحالة، فهناك العنصر المتحكم، وهو عنصر حر، والعنصر المتحكم فيه، وهو غير حر. وكل منطوق خليط من السلاسل المتوازية والمترابطة مثال ذلك:

- سأفعل إن استطعت ولكنني لن افعل
١ (أ) (ب) ٢

نرى هنا علاقة توازي بين "سأفعل إن استطعت" و"لكنني لن افعل" وتبين هذه العلاقة هكذا ١

ونرى ايضاً علاقة تراكب بين "سأفعل" و"إن استطعت" وتبين هذه العلاقة أ ب٢ .
وتحدد بنية التوازي في علاقتين رئيسيتين:

١ - علاقة التمديد، ويمكن إن نمثل لها بقوله (عليه السلام): (او لا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله، ولكل فضل حتى إذا فعل بواحداهم ما فعل بواحدنا)، قيل: "الطيّار في الجنة وذو الجناحين".

١ . الحجاج في القرآن، ص ٣١٩.

٢ . ينظر: النص الحجاجي، ٦٥.

٢- علاقة التصميم: يمثل لها بقوله (عليه السلام): وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً في يقينه، وهذه حجتى إلى غيرك قصدها، ولكنى أطلقت لك منها بقدر ما سئح من ذكرها.

أفعال الكلام:

يرى (فان ايميرن وجرو تندورست) ان الأفعال الكلامية تسهم بادوار متنوعة في الحجاج إذ يضطلع كل منها بدور محدد في الحجاج بين طرفي الخطاب وتترتب الأفعال حسب مقدار الاستعمال، فالمرسل يستعمل اغلب أصناف الفعل التقريرى، إن لم يكن كلها ليعبر عن وجهة نظره وليحدد موقفه من نقطة الخلاف، كما يستعمله للمواصله في حجاجه من طريق التأكيد أو الادعاء وكذلك لتأسيس نتيجة. وقد تضمنت جوابيته (عليه السلام) الكثير من الأفعال الكلامية التي تقوم بدور حجاجي للتأثير في جمهور المتلقين وإقناعهم، ففي قول (عليه السلام) (وما أنت والفاضل والمفضل والسائس والمسوس، وما للطلاق وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين والأنصار) فهنا الفعل الكلامي (التعجب) يصنف ضمن المعبرّات (الافصاحات) وهي مجموعة منوعة تدور حول التوجهات والسلوك الاجتماعي لاسيما تجاه الوقائع الخاصة التي تمثل مضمون القول التي يجري توظيفها في تضاعيف الملفوظ لتقوم بأثر حجاجي معين.

أما قول (عليه السلام) (الا تربّع زايها الإنسان على ظلعك وتعرف قصور ذرعك) نجد الفعل الكلامي ينتمي إلى فئة "التوجيهات"، والغرض منها حمل المخاطب بدرجات مختلفة على أداء عمل معين.

ويُدرج كلامه (عليه السلام) حجاجياً ضمن مفهوم المعارضة، فمعلوم أن ما يعرضه المعلل يتضمن دعوى وتعليلاً، وبناء على ذلك فان المعارضة قد تنصب على القسم الأول أي الدعوى، وقد تنصب على القسم الثاني أي التعليل، فإذا انصرفت المعارضة إلى الدعوى في ذاتها "كانت معارضة في الدعوى، اما إذا انصرفت إلى عمدتها التعليلية فإنها تكون معارضة في الدليل او معارضة في العلة"^١ والحجاج عند أمير المؤمنين (عليه السلام) ينتمي إلى النوع الأول، أي المعارضة في الدعوى.

أما الفعل الكلامي المتضمن في قوله (عليه السلام) "فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتلة؟ أمنّ بذل له نصرته فاستقده واستكفه فيصنف ضمن فئة أفعال الكلام غير المباشرة ويرتبط الفعل الانجازي غير المباشر بوصفه فعلاً كلامياً، ارتباطاً وثيقاً بمقاصد المتكلم، ويحقق المتكلمون بمساعدة اللغة ما يرمونه من تأثير وقصود، إذ نعرف في اللغة بين ما يقال وما يقصد "فيتعلق المعنى في المقام الأول بالجانب الانجازي للفعل الكلامي"^٢ فالتركيب الاستفهامي في كلامه (عليه السلام) فيدرج ضمن الحجاج بالاستفهام ويولي (بيرلمان) ادواراً حجاجية لا يستهان بها للموجه الاستفهامي لما له من أهمية بلاغية يرشح منها فعل حجاجي عند جمهور المتلقين "فالسؤال يفترض موضوعاً ما، وانطلاقاً منه يتوقع ان ثمة اتفاقاً حول وجود هذا الموضوع، كما ان الإجابة على سؤال ما تعني التأكيد على هذا الاتفاق الضمني"^٣ وهو ما يمكن تلمسه من غرض إبطال دعوى معاوية في نصره عثمان.

الصفة تعد الصفة من الأدوات التي تمثل حجة للمرسل في خطابه، وذلك باطلاقه لنعته معين في سبيل إقناع المرسل إليه، وبهذا فان الصفة تمثل أداة في الفعل الحجاجي وعلامة عليه، فلا يقتصر المرسل على توظيف معناها المعجمي او تأويله، بل يبتغي التقويم والتصنيف واقتراح النتائج التي يرد حصولها او فرضها.

وهذا ما يعطيها الطواعية والمرونة التي هي من صلب خصائص الخطاب الطبيعي في الممارسة الحجاجية، ليمارس المرسل أكثر من فعل واحد، بالتصنيف وتوجيه انتباه المرسل اليه الى ما يريد أن يقنعه في حجاجه، وقد وجدنا مثل هذا الفعل الحجاجي في قول (عليه السلام): منا النبي

١ . الحجاج والمغالطة، ص ٩٨.

٢ . الخطاب القرآني، ص ١٢٢.

٣ . الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص ١١٧.

ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنا سيد شباب أهل الجنة، ومنكم صبية النار ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم. فالتدبر في النص المزبور يجد أن استعمال الصفات جاء لغرض حجاجي بحت، فاختيار النعوت والصفات ملائمة للحجاج "فالصفات تنهض بدور حجاجي مهم يتمثل في كون الصفة إذ نختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع ويبدو هذا خاصة حين نجد صفتين متناظرتين ولكنهما متعارضتان".^١

المصادر والمراجع

- ١- استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- ٢- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه تنسيق حمو النقاري، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- ٣- الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- ٤- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية عبد الله صوله، دار الفارابي، ط٢، ٢٠٠٧م.
- ٥- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات) د. علي الشبعان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
- ٦- الحجاج والمغالطة، رشيد الراضي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠١٠م.
- ٧- النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع (بحث) محمد العبد، فصول، العدد ٦٠، صيف، خريف ٢٠٠٢م.
- ٨- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، دت.

الملاحق

ومن كتاب له (عليه السلام) الى معاوية جواباً، وهو من محاسن الكتب: اما بعد، فقد اتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لدينه، وتأبيده اياه بمن ايده من اصحابه، فلقد خبا لنا الدهر منك عجباً اذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا، ونعمته علينا في نبينا، فكننت في ذلك كناقل التمر الى هجر، او داعي مسدده الى النضال. وزعمت ان افضل الناس في الاسلام فلان وفلان، فذكرت امرأ ان تم اعزلك كله، وان نقص لم يلحقك ثلمته (ثلمه)، وما انت والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس؟ وما للطلاق وابناء الطلقاء، والتمييز بين المهاجرين الاولين، وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟ هيهات لقد حن قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. الا تربع ايها الانسان على ظلعك، وتعرف قصور ذرعك؟ وتتأخر حيث اخرك القدر، فما عليك غلبة المغلوب، ولا لك ظفر الظافر؟!

وانك لذهاب في التيه، رواج عن القصد، الا ترى -غير مخبر لك، ولكن بنعمة الله احدث- ان قوماً استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين (والانصار) ولكل فضل، حتى اذا استشهد شهيدنا، قيل: "سيد الشهداء"، وخصه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه؟ او لا ترى ان قوماً قطعت ايديهم في سبيل الله، ولكن فضل حتى اذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم، قيل: "الطيّار في الجنة وذو الجناحين" ولولا ما نهى اله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاك فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها اذان السامعين، فدع عنك من مالت به الرمية فانا صنائع ربنا، والنالس بعد صنائع لنا، لم يمنعا قديم عزنا ولا عادي طولنا عل

١ . الحجاج في القرآن، ص ٣١٦.

قومك، ان خلطناكم بنفسنا، فنكحنا وانكحنا، فعل الاكفاء ولستم هناك، واني يكون ذلك كذلك ومنا النبي، ومنكم المكذب، ومنا اسد الله ومنكم اسد الاحلاف، ومنا سيد شباب اهل الجنة، ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم. فاسلامنا قد سمع، وجاهليتنا لا تدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا وهو قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ لِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنحن مرة اولى بالقرابة، وتارة اولى بالطاعة.

ولما احتج المهاجرون على الانصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجوا عليهم، فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وان يكن بغيره فالانصار على دعواهم. وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فان يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر اليك. (وتلك شكاة ظاهر عنك عارها).

وقلت: "اني كنت اقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى اباع" ولعمر الله! لقد اردت ان تدم فمدحت، وان تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه حجتى الى غيرك قصدها، ولكني اطلقت لك منها بقدر ما سنع من ذكرها.

ثم ذكرت ما كان من امري وامر عثمان، فلك ان تجاب عن هذه لرحمك منه، فأينا كان اعدى له واهدى الى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقده واستكفه، أمن استنصره فترأخى عنه وبث المنون اليه حتى اتى قدره عليه؟ كلا والله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وما كنت لا اعتذر من اني كنت انقم عليه احداثاً، فان كان الذنب اليه ارشادي وهدايتي له، فرب ملوم لا ذنب له. (وقد يستفيد الظنة المتصح).

وما اردت الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت. وذكرت انه ليس لي ولأصحابي الا السيف، فلقد اضحكت بعد استعبار، متى بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين، وبالسيوف مخوفين. (لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل).

فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وانا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والانصار، والتابعين لهم باحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سراويل الموت، احب اللقاء اليهم لقاء ربهم، قد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في اخيك، وخالك، وجدك، واهلك، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾.

توظيف (إنمًا) في خطب نهج البلاغة ودلالاتها التربوية

فاطمة اكبري زاده

الملخص

يوحي الكلام والصور التعبيرية، الايحاءات والدلالات المختلفة الكثيرة والمتباعدة لاسيما الصور التعبيرية البليغة السائدة في نهج البلاغة. فالبلغ لا يتكلم ولا يؤلف ولا يركب الصور التعبيرية إلا للدلالة الخاصة وللإصابة إلى الغرض المطلوب عند المتلقي؛ فاستخدام الأساليب البيانية يكون على أساس الأغراض المنوية التي يسعى لإيصالها إلى المخاطب. من الأساليب المتبعة في كلام الإمام على (عليه السلام) في خطب نهج البلاغة أسلوب القصر والذي يدل على الحصر والإختصاص والتأكيد. ومن أساليبه المختلفة، أسلوب (إنمًا) والذي استخدم ست وخمسون مرة في موضوعات الخطب المختلفة للدلالات الحصرية المؤثرة التربوية المرشدة، فينبغي التركيز على هذا الحجم المثير للإنتباه واستخراج المدلولات وإيحاءاتها المستترة منها. دراسة أسلوب القصر (إنمًا)، بما فيه من الخصائص والسمات التعبيرية للتأكيد والإختصاص يرشدنا إلى النقاط المهمة عند الإمام على (عليه السلام) في كلامه وبما أن هذا الأسلوب، أسلوب التقرير والتنبية والتعريض فهو يبين المؤكدات من المسائل التربوية الهادية المشيرة في كلام الإمام (عليه السلام)؛ ودراسته يسهل الطريق أمامنا لفهم خصائص الجوانب المختلفة من حياة الإنسان.

المقدمة

الكلام يتركب من الصورة والمضمون وخالق الكلام يستخدم الصور التعبيرية للدلالة على المعنى المراد. نهج البلاغة كتاب جامع، وأثر فريد، الذي يجمع بين السياق والمضمون، وبين المحتوى والأسلوب. وكما يدل عنوان الكتاب - نهج البلاغة - بلاغة الجمل والفقرات تلمع في طيات الكتاب وتؤثر على الوجدان وتجذب القلوب للدلالة على المعاني والمضامين المختلفة، ومنها المضامين التربوية والتي تكون ذات أهمية كثيرة في حياة الإنسان ودراستها تفتح الطريق أمام طلاب الهداية والرشاد. والمقال يحاول الجمع بين هذين الجانبين (الأسلوب والمضمون)، أي دراسة الأسلوب البلاغي والمضمون التربوي وبصورة أدق، أسلوب الحصر والقصر ودلالاته على المضامين التربوية لتصوير جانبها من جانب البلاغة الواضحة في كلام سماحة الإمام (عليه السلام). أسلوب القصر أو الحصر يطرح ضمن البحوث البلاغية في قسم المعاني من البلاغة العربية وهذا الأسلوب بكل أدواتها يدل على الحصر والتخصيص ويؤدي معنى الإختصاص بالأدوات والأساليب المختلفة. القصر يدل على الحصر والحصر يجعل الجملة الواحدة مقام الجملتين مع الإيجاز، حيث يمكن الكلام ويقرره في الذهن وينفي عن الفكر أي شك وإنكار، فهو أسلوب الإيجاز مع التأكيد وإثبات الحكم المخاطب. استخدم أسلوب القصر مئتان وأربع وأربعون مرة في خطب نهج البلاغة حيث يعد أسلوب القصر ب(النفي والإستثناء) و(إنمًا) أكثر الأساليب القصرية إستخداماً في خطب نهج البلاغة؛ فأسلوب القصر ب(إنمًا) قد جاء ست وخمسون مرة في الخطب.

وهو يتميز بأنه ينطلق للمخاطب العالم بالحكم للتنبية أو التذكير والتعريض فلذلك يمكن اعتباره أسلوب تربوي.

الحياة البشرية، حسب علاقة الإنسان بذاته وعلاقته بما يحيطه من الخارج، يمكن أن تنقسم إلى القسمين: الحياة الداخلية والحياة الخارجية فالاهداف التربوية بكل أبعادها الثلاثة، البعد المعرفي والبعد العاطفي و البعد العملي أو السلوكي ينبغي أن يشمل نطاق علاقة الإنسان بذاته (الحياة الداخلية)؛ ونطاق علاقة الإنسان بالمحيط (الحياة الخارجية).
إهتم المقال على إستخراج الدلالات التربوية الخاصة المتعلقة بالحياة الداخلية والخارجية والتي قد أشار إليها الإمام (عليه السلام) بأسلوب (إنمّا) في الخطب للإرشاد والهداية.

القصر في البلاغة العربية

القصر

«بنية القصر، تعتبر إحدى البنى الرئيسية التي تكون أداة تعبيرية في تخصيص شئ بشئ بطريق مخصوص. القصر يمارس مهمة الانتاجية في منطقة الإسناد وما يتعلق بها من فضلات وهذه المهمة الإنتاجية تجمع بين الوظيفتين على صعيد واحد، هما: الإثبات والنفي. إثبات الحكم المذكور ونفيه عما عداه»^١.

تعريف القصر

القصر في اللغة بمعنى الحبس، «قصر الشئ على كذا: لم يتجاوز به غيره»^٢ و«قوله تعالى: حور مقصورات في الخيام، أي محبوسات في خيام من الدرّ، مخدّرات على أزواجهنّ من الجنّات»^٣.

والقصر في الإصطلاح البلاغي: تخصيص شئ لشئ بطريق المخصوص وهو لا يقع بين الشئين إلا بشرط وجود نسبة إسنادية أو التعلقية بينهما.
ويطلق على الشئ المخصص (مقصوراً) أو (محصوراً) في الإصطلاح البلاغي ويطلق على الشئ المخصّص به (مقصوراً عليه) أو (محصوراً عليه)، ويسمى المقصور والمقصور عليه طرفي القصر.^٤

أنواع القصر

ينقسم القصر باعتبارات المختلفة إلى أقسام عدة.
فالقصر باعتبار نفس الأمر ينقسم إلى القصر الحقيقي والقصر الإضافي.
والقصر الحقيقي، تخصيص الشئ بالشئ حسب الإضافة بأن لا يتجاوزه إلى ذلك الشئ؛ وإن أمكن أن يتجاوزه إلى شئ آخر فيسمى القصر الإضافي لأن تخصيصه بالمذكور ليس على الإطلاق بل بالإضافة إلى معين آخر.^٥
يتدخل في القصر الإضافي العقل والذكاء والنبهة ودراسة نفسية المخاطب فينقسم على أساس حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام: القصر القلب، القصر الأفراد، القصر التعيين.
يسمى القصر القلب قلباً، لقلب حكم المخاطب ويقصد منه إفهام المخاطب خلاف ما يعتقد.

١ . (البلاغة العربية، ٢٦١-٢٦٠).

٢ . (المنجد، ص ٦٣٣).

٣ . (تاج العروس، ج ٣، ص ٤٩٤).

٤ . (مفتاح العلوم، ص ٤٠٠؛ مختصر المعاني، ص ١٤٥؛ الإيضاح في العلوم البلاغة، صص ١٣٢-١٣١).

٥ . (المطول في شرح تلخيص المفتاح، صص ٢٠٥-٢٠٤، شرح مختصر المعاني، صص ١٣٢-١٣١، الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٢٣).

ويقصد من القصر الإفراد، إثبات وتأكيد على وجه واحد مما يعتقد المخاطب فيه الشركة؛ ويقصد من القصر التعيين، إثبات ما يكون المخاطب متردداً فيه بين ثبوت المقصور عليه وغيره للمقصور.^١

القصر باعتبار الطرفين ينقسم إلى القسمين: قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة على الموصوف. المراد بالصفة هنا، الصفة المعنوية أي المعنى القائم بالغير وليس ما يعنيه النحويون أي التابع الذي يدل على معنى في متبوعه.^٢

للقصر أداة مختلفة وطرق وأساليب عدة، فمن أهم هذه الطرق: العطف، النفي والإستثناء، إنمّا، تقديم ما حقه التأخير.

هذا المقال لا يتدخل في كل هذه الطرق ويقتصر على طريق (إنمّا) فهذا نشير إلى بعض خصائصه والتي تفيدنا في تحليل نهج البلاغة.

خصائص (إنمّا)

(إنمّا) تأتي إثباتاً لما يذكر بعدها ونفياً لما سواها ويفهم منها إثبات الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة. في أسلوب القصر ب(إنمّا) دائماً يؤخر المقصور عليه على المقصور ويأتي في نهاية الكلام.

«بنية القصر ب(إنمّا) تعتمد على الجمع بين المنطوق والمفهوم في مثل قول(إنمّا محمد قائم) فإثبات القيام لمحمد جاء من المنطوق ونفي غير القيام جاء من المفهوم».^٣

وفي القصر الاضافي «يفرق عبد القاهر بين (ما وإلا) و(إنمّا)، فيجعل (ما وإلا) صالحة لما نسميه قصر القلب وقصر الأفراد وأما(إنمّا) فهي لقصر القلب وحده ويجعل من المتكلف جعلها لقصر الأفراد».^٤

تستعمل (إنمّا) حينما يكون المخاطب عالماً بالحكم؛ فيجئ هذا الأسلوب للتقرير وإثبات وتأكيد علم المخاطب وقد تستعمل للخبر المجهول تنزيلاً له منزلة المعلوم لتأكيد على وضوح وإبانة الحكم الذي لا ينبغي أن ينكره المخاطب. وأحسن مواقع(إنمّا)، هو التعريض.^٥

فيمكن القول بأنّ القصر ب(إنمّا) يدل على دلالات ترشيديّة في ترفيع مستوى علم المخاطب أو تنبيهه على الحقائق الهامة التي لا ينبغي الغفلة عنها.

القصر في نهج البلاغة والدلالات التربوية

(قسّمت حياة الإنسان إلى البعدين: الإفرادي والجماعي .

نطاق حياة الإنسان إمّا داخلي وإمّا خارجي، فالإنسان إمّا يتوجّه إلى ذاته وإمّا يتوجّه إلى الخارج وما يرتبط به ويريد تنظيم علاقته به.

فالأهداف التربوية والأبعاد المعرفية لا يبد أن يشمل كلا البعدين من أبعاد حياة الإنسان: علاقة الإنسان بذاته وعلاقته بخارج الذات أي الناس والكون الخارجي(الدنيا)، والخالق.

من منظار الإمام (عليه السلام)، معرفة الذات وخصائص المرء، وأيضا معرفة العالم وما يحيط بالإنسان (من الخارج) يعدّان العنصران الرئيسيان لهداية الإنسان ورشاده إلى طريق الصواب.

فأبعاد الأهداف التربوية في البعد المعرفي والبعد العاطفي والبعد العملي أو السلوكي لا يبد يشمل الجانبين: نطاق علاقة الإنسان بذاته (الحياة الداخلية)؛ ونطاق علاقة الإنسان بالمحيط (الحياة الخارجية) وعلاقته بالخالق وعلاقته بالدنيا ومن فيها).^١

١ . (مفتاح العلوم، صص ٤٠٢-٤٠٠؛ المطول في شرح تلخيص المفتاح، صص ٢١٠-٢٠٧؛ الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٢٨؛ البحث البلاغي عند العرب، ص ١٥٦).

٢ . (البلاغة العربية، ص ١٧٥، دراسة ونقد في مسائل بلاغية هامة، صص ١٥١-١٥٠).

٣ . (البلاغة العربية ص ٢٧٣).

٤ . (عبدالقادر الجرجاني وجهوده البلاغية، ص ١٨٢).

٥ . (نهاية الإجازة في دراية العجاز، ص ٣٦١-٣٦٢؛ مفتاح العلوم، ٤٠٧-٤٠٥؛ البحث البلاغي عند العرب، ١٥٣-١٥٠).

معرفة الشيء، القدم الأول للدخول في نطاق ذلك الشيء والمقدمة الأساسية لفهم المدلول، فالعاطفة التي تتبع من المعرفة تثير الوجدان وتحرك الهمة نحو العمل والسلوك.

يمكن أن تستخرج بعض هذه الأبعاد الثلاثة في دلالات أسلوب القصر ب(إنما) التربوية.

أ: الأهداف التربوية في نطاق الذات (نطاق الحياة الداخلية)

بعض ما ضمن من المعاني في التعبيرات القصيرية (إنما) يمكن أن يشمل نطاق الحياة الداخلية في الأبعاد التربوية الثلاثة:

١ - البعد المعرفي

من الأهداف التربوية التي يمكن استخراجها من الدلالات الحصرية في نطاق البعد المعرفي من الحياة الداخلية:

١-١ معرفة الذات

معرفة الذات مقدمة أساسية لمعرفة الخالق؛ والإنسان الذي يعرف مقدرات ومقومات الذات يستطيع أن يتخذ القرارات الهامة لتنظيم كيفية حياته ومعاشه.

فإنما أنا وأنتم عبادي مملوكون لرب لا رب غيري.^٢

ينحصر الإمام(عليه السلام) الموصوف على الصفة الواحدة فقط، قصر الموصوف على الصفة . ويعرف نفسه والمخاطبين(العام) بأنهم عباد الله فقط وكل الشيء في ملك الله وتحت إرادته واوصاف الإنسان ينحصر في كونه عبداً لله لا غيره.

٢ - البعد العاطفي

من الأهداف التربوية الأساسية ترقية خصائص الإنسان وتحسين الصفات وإثارة عاطفة تشعر ضرورتها.

٢-١ - البصيرة والتجربة

تعميق البصيرة من أهداف أساسية في نظام التربية. قيمة الرجل على مقدار تجربته.^٣

فلينتفع إمرؤ بنفسه فإنما البصير من سمع فتفكر ونظر وأبصر وإنتفع بالعبر.^٤

في بدء الخطبة(رقم ١٥٣) يوصي الإمام(عليه السلام) بالبصيرة ويذكر خصائص البصير بصفات حصرية وينحصر المبتدا في الخبر، قصر الموصوف على الصفة.

يشير إلى طرق للإنتفاع فيما يخص أهل البصائر، «فللبصير ثلاثة طرق: فالأول: أن يتفكر فيما يسمعه من كلام الله ورسوله والمواعظ البالغة والثاني: أن ينظر بعين حسّه وبصيرته فيتوخي المقاصد النافعة فيبصرها ويدرك بعقله منها العبر والثالث: الإنتفاع بالعبر والعمل وفق العلم والإدراك».^٥

إهتمام بتهديب النفس وتأديبه لتحسين الصفات والخصائص من العواطف الهامة في نطاق الأهداف التربوية والذي ينقاد النفس ويرشده.

٣ - البعد العملي

معرفة النفس وتقوية العواطف الإنسانية تبرز في ساحة العمل ويعرض وجوده على منصة الظهور .

٣-١ - التقوي

إنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله .^٦

١ . (ابعاد وقلمرو اهداف تربيتي، صص ١٨٩-١٩٨).

٢ . (خ ٢١٦).

٣ . (غرر الحكم، ص ٤٢٤).

٤ . (خ ١٥٣).

٥ . (شرح ابن ميثم ، ج ٣، ص ٢٤١ ، خ ١٥٢).

٦ . (خ ٢١٠).

الانسان حسب ذاته راغب في تحصيل المال وكسب القدرة ويحب الإلتذاذ من متاع الدنيا إلا الذين يراقبون أنفسهم ويأنبونها في التجنب عن غير مرضات الله، فقصر (الناس) على (مع الملوك و الدنيا) قصر المبتدا على متعلق الخبر، قصر الموصوف على الصفة.
هذا القصر الإضافي ينتقض ب(إلا) ويستثنى من يمتلك عنان نفسه من هذا الحكم المطلق.
فالذين يعرف أنفسهم كعباد الله، يراقبون أنفسهم من الخطاء والذنوب ويخضعون أمام الله، يخرجوا من هذا الحصر ويكسرون إطار الخصائص الحصرية للصفات الدنية للإنسان ويفضلون العصمة والتقوى.

ب: الأهداف التربوية في نطاق الذات الجماعي (نطاق الحياة الخارجية)
مما هو مثير للإنتباه، أن الإمام (عليه السلام) يستخدم أكثر القصر ب(إنما) في النطاق الحياة الجماعية وإطار علاقة الإنسان بخارج ذاته وربما هذا يدل على أهمية هذا القسم ولزوم الإطلاع عليه.
النطاق الخارجي لحياة الانسان ينقسم إلى أقسام: العلاقة بالخالق، العلاقة بالإمام وبالناس، العلاقة بالدنيا.

١ - العلاقة بالخالق

١-١ - البعد المعرفي

١-١-١ - معرفة الخالق

فإنما يدرك بالصفات ذو الهيئات و الأدوات^١.

من طرق معرفة الله، التعمق في الخلق والدقة في تفاصيل الموجودات.
إن الله لا يدرك بالصفات لعدم ادراكه بالحواس فالإدراك بالصفات ينحصر في المخلوقات، قصر الصفة على الموصوف.
فيمكن معرفة الكائنات والمخلوقات من خلال إدراك الخصائص والسمات، معرفة الله يتحقق بمعرفة المخلوقات .
إنما كلامه سبحانه فعل منه إنشائه ومثله^٢.

فعل الله، إنشائه والخلق و ليس فعله كالمخلوقات «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»^٣. ويقصر كلام الله على الفعل فقط، قصر حقيقيا.

١-٢ - البعد العاطفي

١-٢-١ - عظمة الخالق

إنما تحد الأدوات أنفسها وتشير الآلات إلى نظائرها^٤.

يشير الإمام(عليه السلام) إلى أوصاف الله«فاعل لا باضطراب آلة مقدر لا بجول فكرة غني لا بإستفادة» ويذكر أن الله لا يعرف بالأدوات والآلات لأنها محدود ومنحصر بالأوصاف الطبيعية التي يجعل الله لها، إنها تحد أنفسها فقط وتشير إلى نظائرها وليست لها الاهلية في تحديد صفات الله.

والله أعظم وأكبر أن يوصف بالأشياء.

١-٣ - البعد العملي

١-٣-١ - الخضوع و التوكل

إنما صدرت الأمور عن مشيئته^٥.

١ . (خ ١٨٢).

٢ . (خ ١٨٦).

٣ . (بس، ٨٢).

٤ . (خ ١٨٦).

٥ . (خ ٩١).

الإمام (عليه السلام) يذكر صفات الله وكيفية خلقه إنه خلق فأحكم تدبيره ودبر فألطف تدبيره وكل شئ متوجه إلى غاية وجوده ثم يريد من الإنسان المتعبد المخلص لله، الخضوع ويتسائل عن إمكانية عدم الطاعة و انه لا يمكن لأنّ الأمور صدرت عن مشيئته لا يتدخل غيره في إصدارها. قصر (صدور الامور) على (عن مشيئته) قصر الفعل على متعلقه، قصر الصفة على الموصوف. الامور لا يصدر عن إرادة المخلوق إلا بعد إرادة الخالق.

٢. العلاقة بالإمامة

٢-١- البعد المعرفي

٢-١-١- معرفة الإمام (عليه السلام)

إنّما أنا قطب الرحي تدور على و أنا بمكاني^١.

«عرّف الإمام (عليه السلام) نفسه و«استعار لنفسه لفظ القطب ملاحظة لدوران الإسلام ومصالحه عليه كما تدور الرحي على قطبها وذلك هو وجه الإستعارة وإستلزم ذلك تشبيهه الإسلام وأهله بالرحي وإنه أهملها بخروجه إلى الحرب اضطربت كإضطراب الرحي وخروج مدارها واستحارته على الحركة المستديرة إلى المستقيمة»^٢.

يقصر الموصوف على الصفة، يحصر هذه الخصيصة على نفسه.

إنّما الأئمة قوام الله على خلقه و عرفاؤه على عباده^٣.

الإمام (عليه السلام) يعرف نفسه ومنزلته وشأن الأئمة بأنهم قوام الله على خلقه و عرفاؤه على عباده فقط وأن أمور الناس تصلح بأيديهم فقط، قصر الموصوف على الصفة، القصر الحقيقي لا ينبغي الظن على خلافه.

٢-٢- البعد العاطفي

٢-٢-١- الإهداء

إنّما مثلي بينكم كمثلي السراج ففي الظلمة يستضيء به من ولجها^٤.

« مثل [الإمام (عليه السلام)] نفسه بينهم بالسراج في الظلمة وأشار إلى وجه مشابهته للسراج بقوله: فيستضيء به من ولجها»^٥ قصر المبتدا على الخبر فهو قصر الموصوف على الصفة .

يقصر بهذا الاسلوب، هذه الخصيصة لنفسه للتذكير بأن الهداية تحقق بوجود الأئمة؛ والنور والإهداء ينبع من صميم وجودهم، والإستناس والتمسك بهم يؤدي إلى الصلاح والرشاد.

٢-٢-٢- تقوية المطبوع

فإنّما أمرتم بالنهي بعد التناهي^٦.

«يشير إلى الأمر الظاهر شهدت به العقول السليمة والتجارب وهو أن النهي عن الشئ بعد الإنتهاء عنه هو النهي المثمر الذي ينتفع به الطباع»^٧؛ حصر الأمر بالإبتعاد عمّا لا يوافق الطبع

وما إنتفعت به النفوس.

٢-٣- البعد العملي

٢-٣-١- أداء الحقوق

إنّما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه^٨.

١. (خ ١١٩).

٢. (شرح ابن ميثم، ج ٣، ص ١١٢، خ ١١٦).

٣. (خ ١٥٢).

٤. (خ ١٨٧).

٥. (شرح ابن ميثم، ج ٤ ص ١٨٧، خ ٢٢٩).

٦. (خ ١٠٥).

٧. (شرح ابن ميثم، ج ٣، ص ٢٩، خ ١٠٢).

٨. (خ ١٧٢).

في هذا الفصل من الخطبة يذكر الإمام (عليه السلام) ما جرى له في يوم الشورى، ويحتج على أولويته بالخلافة وبانه أقرب وأخص بهذا الحق. يقصر طلب الحق على نفسه دون غيره، قصر الصفة على الموصوف ثم يشير إلى إنكار حقه وإغماض المجتمع عن هذا الحق الحقيقي به (عليه السلام).

٣- العلاقة بالمجتمع

٣-١- البعد المعرفي

٣-١-١- إختلاف الأحوال

إنما فرّق بينهم مباديء طينهم^١.

يحصر الصفة على الموصوف في الإشارة إلى السبب المادي لإختلاف الناس في الظاهر أي في أشكالهم وصورهم وفي الأخلاق والآداب وأنه إختلاف مبادئ تربتهم التي طبعوا منها، فالإنسان من التراب وجسمه مزيج من سبخ الأرض وعذبتها وعلى قدر قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر إختلافها يتفاوتون.

٣-١-٢- السنن والأهواء

إنما الناس الرجالن: متبع شرعة ومبتدع بدعة^٢.

الإمام (عليه السلام) يقصر الموصوف على الصفة وينحصر الناس على القسمين. ويذكر أن الناس ينقسم على القسمين فقط: الذين يتبعون سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويفعلون ما أمره ويجتنبون عما نهاه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ والذين يتغيرون سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويبتدعون البدع في المجتمع الإسلامي دون الإستناد إلى أي برهان وحجة من الله سبحانه وتعالى.

إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع^٣.

هذا بيان منه (عليه السلام) بعد حرب الصفين حول أسباب ظهور الفتن في المجتمع فإنه (عليه السلام) قصر بدء وقوع الفتن على اتباع الأهواء وابتداع الأحكام. فبقصر الموصوف على الصفة، يقلب آراء المخاطبين وينحصر أسباب الفتن بما في قلوبهم من الأهواء ومخالفة الأحكام.

٣-١-٣- خصائص الأجيال

إنما تسيرون في أثر بين وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم^٤.

فبقصر الصفة على الموصوف، تقلب آراء التي تظن بأن طريقتهم طريقة جديدة متفاوتة عما سبقها الآخر ونلانهم جيل جديد.

ويبين بأن جميع الأجيال يسيرون في طريق واحد فقط وهو الطريق الذي سلكوه آباءهم وأجدادهم في الماضي فانهم يعيشون كما عاشوا آباءهم. وينبههم على إتباع الحق ويريد منهم أن يجعلوا رضى الله معيارا لإختيار الأمور بعد الإعتبار بأحوال الماضين واتباع ما يؤدي إلى سخطه ورضاه.

٣-٢- البعد العاطفي

٣-٢-١- الأخوة

إنما أنتم إخوان على دين الله^٥.

يقصر الموصوف على الصفة، وينصح الإمام (عليه السلام) الناس بالتعاون؛ ويسمى بهم الإخوة لبيان شدة قربهم و علاقتهم ببعض وسبب هذه العلاقة، هو الدين؛ فينسبهم بالأخوة ولإثارة روح الوداد والتبادل، الشفقة والتعاون.

١. (خ ٢٣٤).

٢. (خ ١٧٦).

٣. (خ ٥٠).

٤. (خ ١٨٣).

٥. (خ ١١٣).

٢-٢-٣- الاعتبار بالماضين

إنما كانوا جميعاً فتشنتوا وآفاقاً فافتروا^١.

هذه إشارة إلى صفة الموت الذي ينزل على الجميع في مواعده وزمانه و يتشتت الجماعات ويضطربها كما نزل على الماضين، قصر الموصوف على الصفة. فالإشارة إلى هذه الخصيصة تنثير الإنتباه لكسب العبر من أحوال الماضين للاتعاظ به وإصلاح الأمور قبل فوات الفرصة. إنمّا هلك من كان قبلكم بطول آمالكم وتغيب آجالكم^٢.

هذه إشارة إلى أحوال الماضين وسبب هلاكهم. إنهم هلكوا بسبب طول آمالهم في الدنيا ونسيان موعد الأجل وغفلتهم عنها وقلة تفكيرهم فيها والانهماك في الملذات. وهذا تنبيه للمخاطبين للإعتبار عن أحوال الماضين، قصر الفعل على متعلقه قصر الصفة على الموصوف. الرحمة ٣-٢-٣

إنمّا ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية^٣.

بقصر الفعل (ينبغي) على (أن يرحموا)، ينهي الإمام (عليه السلام) الناس عن بيان عيوب الآخرين وملامتهم و يأمرهم بالأعمال الصالحة ثم «ينبه أهل العصمة بالرحم على أهل الذنوب والمعصية فيستفيد من أداة القصر ثم جاء بكلمة ينبغي حتى يجلب القلوب ويذكر الأذهان بأن يعتبر أهل المعصية إعتبارهم حال العصاة و وقوعهم في مهادي الهلاك وأن عادة عباد الله الرحمة لمن يروونه في مملكته وإنقاذه وإعانتته على الخروج منها»^٤.

٤-٢-٣- فلاح المجتمع

إنما يجمع الناس الرضى والسخط^٥.

عاقبة أفراد المجتمع متصلة بعضها ببعض، فكل أفراد المجتمع يمكن أن يقعوا في المهالك أو في النعم بسبب أعمال بعض منهم. فعند نزول البلاء يهلك الجميع ولو كان بعض منهم من الأبرار أو ممن لم يرتكبوا المعاصي. يحصر الفعل على الفاعل، في قصر الصفة على الموصوف، ينحصر عمل ما بشخص واحد فقط لكن نتيجة العمل تعم الجميع. كما يقول:

إنمّا عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضى^٦.

هذا بيان للإعتبار بأحوال الماضين ومنهم قوم ثمود الذين هلكوا بعذاب الله بسبب عمل فعله رجل واحد. يقصر الفعل على الفاعل ويقصر الصفة على الموصوف، فالعمل ينحصر في شخص واحد فقط لكن نتيجة العمل تشمل الجميع. العذاب يدرك الجميع ولو بعمل رجل واحد وأيضاً جزاء الخير ورضى الله يشمل الجميع ولو فعله عدد قليل منهم.

٣-٣- البعد العملي

١-٣-٣- احترام الآراء

إنمّا إجتماع رأي ملئكم على إختيار رجلين^٧.

يشير الإمام على (عليه السلام) بأنه قبل إجماع آراء المجتمع في قضية الحكمية وإخضاعه لهذا الجماع ولو كان خلاف ما يرغب فيه. يقصر إجتماعهم على إجماع آرائهم في إختيار حكم

١. (خ ٢٢١).

٢. (خ ١٤٧).

٣. (خ ١٤٠).

٤. (شرح ابن ميثم، ج ٣، ص ١٧٦، خ ١٣٩).

٥. (خ ٢٠١).

٦. (خ ٢٠١).

٧. (خ ١٢٧).

الرجلين وهذا الحصر يدل على أهمية وفاعلية إجماع الآراء ولزوم قبوله من قبل الجميع حتى صاحب الآراء المتباينة والمخالفة.

٢-٣-٣- إصلاح المجتمع

إنمّا أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والإعوجاج والشبهة والتأويل^١.

يصف حال المسلمين بعد ظهور الإسلام. يقصر الناسخ وإسمه على الخبر قصر الموصوف على الصفة لبيان أن جواز مقاتلة أفراد المجتمع الإسلامي ينحصر في حالة واحدة فقط وهو دخول الزيغ والشبهة والتأويل في الإسلام في المجتمع الإسلامي وهذه المقتلة تكون لغرض الإصلاح وحفظ الإسلام والمجتمع الإسلامي وإزالة الانحرافات والإعوجاجات.

٣-٣-٣- مراعاة حقوق الناس

لو كان المال لي لسويت بينهم. كيف وإنما المال مال الله^٢.

هذه إشارة إلى ضرورة العدالة الاقتصادية في المجتمع وتقسيم بيت المال بين الناس بالتسوية. المال العمومي في المجتمع يختص الجميع فإنه مال الله، يقصر الموصوف على الصفة وينحصر أموال الناس في تعلقها بالله فقط. وهو يتبين إهتمام الإمام (عليه السلام) بحقوق الناس وطاعته الله في أداء حقوق العباد.

٤-٣-٣- المجاهدة

إعلموا إن الشيطان إنما يسني لكم طرقه لتتبعونه عقبه^٣.

«يسني بمعنى يسهل»^٤.

يخير الإمام (عليه السلام) في الخطبة عن المستقبل الدامي الذي ينتظر المجتمع ويرشد الناس بالالتزام السنن القائمة و الشواهد البينة والأحكام الواضحة حتى لا يقعوا في المهالك والفتن ويشير إلى أن الشيطان يسهل طرقه لأن يتبعوا عقبه؛ فبقصر الصفة على الموصوف يختص صفة الليونة والسهولة بمنهج الشيطان، فهذا ينبغي المجاهدة في إتباع الطرق الصعبة وما تقع النفس في الإبتلاءات لتزكي النفوس.

٥-٣-٣- التعاون والمشاركة

من يقبض يده عن عشيرته فإنمّا تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة^٥.

يشير الإمام (عليه السلام) إلى ضرورة التعاون بين الأقرباء؛ فبقصر الفعل على فاعله وقصر الصفة على الموصوف، يخاطب الناس ويذكرهم بأن أفراد المجتمع لا يستغني عن عشيرتهم أبدا حتى ولو كانوا ذا المال وينصحهم بالإطلاع عن أحوال عشيرتهم وأقرباءهم ومساعدة المحتاجين ثم ينبههم بهذه الحقيقة وهي أن المرء إذا قبض يده عن عشيرته فالضرر يتوجه إليه وينحصر عليه فقط ومعظم الأثار السلبية في قطع صلة الأقرباء يرجع إلى الفرد. قطع العشيرة عن الفرد يؤدي إلى حرمان كبير بالنسبة إليه، لأن إنتفاع الإنسان بالأيدي الكثيرة أتم وأولى.

٤- العلاقة بالدنيا

الإنسان يحتاج إلى الإمكانيات المادية للهداية والتربية، فخلق الله كل النعمات والإمكانيات للتمتع منها في طريق الصلاح والرشاد والفلاح.

«في الاعتقادات الإسلامية تطرح موضوع الدنيا والآخرة كمسألة رئيسية، ذات أهمية في حياة الإنسان؛ بما ان لها دور هام في كمال الروح والجسم والنفس قد كانت موضع إهتمام الآيات والروايات.

١. (خ ١٢٢).

٢. (خ ١٢٦).

٣. (خ ٨٣).

٤. (المعجم المفهرس، ص ٦١).

٥. (خ ٢٣).

أما موضوع الدنيا و خصائصها ما طرح بصورة واحدة بل إنه طرح بصورة إيجابية وبصورة سلبية . فتوجد الآيات والروايات التي تشيد بدور الدنيا وتحرض على الاستفادة منها والتمتع بها وكما توجد الآيات و الروايات التي تذمّ الدنيا وترغب بالابتعاد عنها.
الآيات والروايات عن الترغيب في الدنيا:

قال الله تعالى: «وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»^١.

هذه الآية تدعو إلى الاستفادة من الدنيا ومواهبها وتأمّر بعدم نسيانها .
وفي نهج البلاغة نرى نماذج من تكريم الدنيا و الاهتمام بها: «إن الدنيا دار الصدق لمن صدقها و دار عافية لمن فهم عنها و دار غني لمن تزود منها و دار موعظة لمن إتّعظ بها، مسجد أحبباء الله و مصلي ملائكة الله و مهبط وحي الله و متجر أولياء الله إكتسبوا فيها الرحمة و ربحوا فيها الجنة»^٢.

يمدح الإمام (عليه السلام) الدنيا بهذه العبارات الجميلة ويقدمها كمنشأ الخير والرحمة الوافرة، انها دار الصدق ودار العافية ودار الغني ودار الموعظة، محل هبوط الملائكة ومقام تجارة عباد الله. كما جاء في أخبار حياة الإمام (عليه السلام)، عن إهتمامه بالمعاش و عمله الدؤوب لكسب الرزق ووصيته الدائم بالعمل والمجاهدة لإكتساب الرزق و إنتفاع الآخرين^٣؛ فكل هذه الشواهد تدل على عدم الكراهية من الدنيا ومواهبها ولزوم الانتفاع بها.

الآيات والروايات في ذم الدنيا:

قال الله تعالى: ما الحياة الدنيا إلا الغرور^٤.

من يرد حرث الدنيا نوّته منها وما له في الآخرة من نصيب^٥.

هذا وجه سلبي للدنيا ومطالبتها معارضة لطلب الآخرة، إنهما لا يجتمعان.
الروايات:

حب الدنيا رأس كل خطيئة^٦.

كما يوصي الإمام علي (عليه السلام): أحذرکم الدنيا^٧.

فعلى أساس هذا القسم من الآيات والروايات، الدنيا، دار الفناء، محل العبور، عامل الغدر والغرور، مليئة بالإبتلاءات والمشاكل والمخاطر، لا يليق بالالتجاء إليه والقرار فيه هو محل للإستراحة والتزوّد للسفر. حب الدنيا وطلبها يعتبر مصدر كل المشاكل والمفاسد فينبغي الابتعاد عنها.

في الرؤية الاسلامية القائمة على أساس التوحيد لم يخلق الله شيئاً عبثاً. الدنيا ليس مكروهاً أو مذموماً بذاتها؛ بل هذه الفكرة تنافي الروية الإسلامية. الحقيقة أنّ مذمة الدنيا والتنفير عنها ترجع إلى حبها الشديد وشدة الرغبة النفسية فيها الوؤدية إلى نسيان الآخرة، لان الدنيا ليس الهدف ومتاع الدنيا ليس متاعاً خالداً بل الدنيا وسيلة لكسب الزاد للآخرة ومحل الإستعداد لسفر طويل المدى ومحل للعبور إلى الحياة الآخروية الخالدة»^٨.

٤-١ - البعد المعرفي

١ . (قصص، ٧٧).

٢ . خ ١٢٦.

٣ . (وسائل الشيعة ج ١٢، ص ٢٤).

٤ . (حديد، ٢٠).

٥ . (شورى، ٢٠).

٦ . (غرر الحكم، ج ٣ ص ٣٩٥).

٧ . (نهج البلاغة خ ١١٢).

٨ . (نقش تربيته دنيا، صص ١١٨-١٢١).

الكلام الحصري الذي يمكن إعتباره في نطاق هذا البعد (المعرفي) لا يتطرق إلى كلا الجانبين الذي أشار إليهما مسبقاً في الآيات والروايات بل يتطرق إلى الجانب السلبي للدنيا فقط ويؤكد بأسلوب القصر كانه (عليه السلام) يتذكر هذا الجانب فقط، وبما يلتفت الناس إلى الدنيا ويهتمون بها فينبههم على هذا الوجه المؤكد، للتنفير عنها والترغيب بأمر الآخرة.

١-١-٤- معرفة الدنيا

أيها الناس إنّما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار.^١

يبدأ الإمام (عليه السلام) كلامه بخطاب الناس ويحدّثهم عن الاعتماد بالدنيا فيقصر الموصوف على الصفة ويذكر حقيقة الدنيا للتنفير عنه والترغيب في الآخرة بذكر الغاية من وجود الدنيا، فتكون الدنيا دار مجاز للوصول إلى الآخرة والآخرة دار قرار ويوصي الناس بقوله «فخذوا من ممركم لمقركم».

فلا يغرتكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنّما هو ظل ممدود إلى أجل معدود.^٢

يقصر الموصوف على الصفة؛ حقيقة الدنيا ومتاعها بأنّها اغترارا فينهي الناس عنه، وينحصرها في صفة واحدة وهي الظل الممدود إلى أجل معدود و«يستعار لفظ الظل له ووجه المشابهة كونه ممدودا وينتهي عند أجل ويزول به أي بالدنيا يشبه الظل الذي سيزول وينتهي عند الموت واقترب الأجل».^٣

الدنيا لا يطيل أمدّها إلى الأبد بل يقصر ظلّها عند اقتراب موعد الموت والرحيل.

٢-٤- البعد العاطفي

١-٢-٤- عدم الرغبة

أيها الناس إنّما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا.^٤

سرور الدنيا فانية ولذاتها لا يطيل إلى الأمد، فالموت يدرك الجميع. فلا يوجد غرض للدنيا إلا الموت والرحيل كما يقول ابن ميثم: «ذم الدنيا وتقبيحها بذكر معائبها لتحجف الرغبات فيها وتتصرف إلى ما ورائها من الأمور الباقية فاستعار لهم لفظ (الغرض) ووجه الاستعارة (كونهم مقعودين بسهم المنية من سائر الأمراض والأغراض كما يقصد الغرض بالسهم) واسند الإنتصال إلى المنايا مجازاً».^٥ قصر الموصوف على الصفة وهي كون الناس غرضا فيها للمنايا والذي يثير عاطفة التنفير والابتعاد عدم الرغبة.

إنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة.^٦

يقصر الموصوف على الصفة، يعرف الدنيا بأنّها دار البلاء محفوفة بالخطر وأهلها تنحصر في كونهم أغراضا لها. إنّها تخدع الناس بمتاعها، أهلها مقتنونون بها وهم أهداف أغراضها ونياتها، فلا ينبغي الاتكاء عليها وقبولها والإخضاع أمامها.

٢-٢-٤- البصيرة

إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى.^٧

يقصر الموصوف على الصفة وينحصر الدنيا على هذه الصفة و«استعار لفظ الأعمى للجهل ووجه الإستعارة ان الجاهل، هو الأعمى عن بصيرة الحق كما لا يدرك الأعمى من المبصرات».^٨ المبصرات».^٩ البصير على حقيقة الدنيا لا يهتم بالدنيا والمتغافل عن الحقائق يرغب فيها فقط.

١ . (خ ٢١٧).

٢ . (خ ١٩٩).

٣ . (شرح ابن ميثم، ج ٢، ص ٣١٤، خ ٨٦).

٤ . (خ ١٤٥).

٥ . (شرح ابن ميثم، ج ٣، ص ١٩١-١٩٢، خ ١٤٤).

٦ . (خ ٢١٧).

٧ . (خ ١٣٣).

٨ . (شرح ابن ميثم، ج ٣، ص ١٥٦، خ ١٣٢).

إنما هي كالمعلوفة للمدي لا تعرف ماذا يراد بها^١.

في هذا القسم من كلامه يخاطب الناس بقوله «أيها الناس غير مغفول عنهم والتاركون المأخوذ منهم» و يسمى الذين يرتكبون الخطأ وينسون يوم الحساب ويوم التساؤل من أعمالهم بالغافلين. ويقصر المسند إليه على المسند، قصر الموصوف على الصفة، يشبه الغافلين بالأغانم التي تهتم بأشباع أمعتها وقضاء شهواتها. فالغافلين لا يدركون الغاية الأصلية التي خلقهم ولا يفهمون السبب الرئيس لعيشهم في الدنيا فاقترضوا على الدنيا بملذاتها بسبب جهلهم بالحقيقة وتغافلهم عنها» وتشبيههم بمعلوفة النعم بسبب وجه الشبه الذي يشير أنهم لعنايتهم بلذات من المطاعم والمشارب كالنعم المعتني بعلفها وكون ذلك التلذذ غايته الموت تشبه غاية المعلوفة وهي الذبح»^٢.

الذبح»^٢.

٣-٢-٤ - عدم الاستقرار

فإنما مثلكم كسفر سلكوا سبيلا فكأنهم قد قطعوه^٣.

يوصي الإمام (عليه السلام) بقصر الموصوف على الصفة برفض متاع الدنيا وبنه على فناءها وقصر مدتها ويتذكر بأن الموت سيدرك الجميع حيث تصبح الاجساد مبلية. ويشير الإمام (عليه السلام) بأن الدنيا محل السفر للانسان مسافر فيها ولا يستقر الناس فيها، وينتهي سفر الدنيا بالموت فيجب أن يتزود منها للآخرة. إنمّا كنت جاراً جاوركم بدني أياماً^٤.

هذا فصل من وصية الإمام (عليه السلام) قبل شهادته في شهر رمضان، وهو يوصي الناس بألا يضيعوا سنة الرسول وبأن يقيموا عمود الدين وأن يوقدوا مصباحه ويقصر الموصوف على الصفة يشير إلى حقيقة الدنيا الموت، الذي أدرك الجميع وحتى لو كان إماماً أو قائداً. ويعتبر نفسه جاراً للناس لأيام وهذا تنبيه على أنه جار للناس ببذنه فقط لمدة قصيرة والبدن والجسد المادي لا يصاحب الأرواح عند الموت لانه يتعلق بالدنيا لكونه من المادة. فالمتعلقات الدنيوية لا يصاحب الفرد إلى الآخرة بل يبقى في الدنيا ويفنى.

٤-٢-٤ - الحكمة

إعلموا أنه ليس من شيء إلا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملئه إلا الحياة فإنه لا يجد في الموت راحة وإنمّا ذلك بمنزلة الحكمة التي حياة لقلب الميت وبصرة للعين العمياء وسمع للأذن الصمّاء وري للظمان^٥.

الانسان لا يشبع من ملذات الدنيا أبدا ولكن يدرك الموت الإنسان وولو لم يجد في الموت راحة. إن الدنيا دار فناء ومحل للإعتبار والتزود للآخرة، والموت ورحيل الدنيا حكمة فقط، بقصر الموصوف على الصفة؛ فهي حكمة تشفي عين العمياء والأذن الصمّاء وترفع عطش الظمان بالنظرة إلى باطن الدنيا وبمعرفة حقيقة الحياة.

٥-٢-٤ - تطهير النفس

إنمّا طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن أفاءها الله عليه^٦.

أفاءها عليه: أرجعها إليه. في هذه الخطبة يشير الإمام (عليه السلام) إلى وجوب طاعة القادة و الخضوع أمامها ثم يكشف عن مؤامرة الناكثين ويحصر مطالبتهم الدنيا على الحسد. أصحاب الدنيا الدنية يطلبون الدنيا بما فيهم من الخصائص الرذيلة والدنية مثل الحسد.

٦-٢-٤ - عدم تعلق بالدنيا

١. (خ ٧٥).

٢. (المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤٧، خ ١٤٧).

٣. (خ ٩٩).

٤. (خ ١٤٩).

٥. (خ ١٣٢).

٦. (خ ١٦٩).

إنما حظ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قيد قده متعفرا على خده.^١

الإمام (عليه السلام) بقصر المبتد على الخبر، قصر الموصوف على الصفة؛ يوصي بالتقوى وتذكير أحوال الماضين والذين رحلوا ولم يتخذوا شيئا من متاع الدنيا. إن الإنسان يكتفي من الدنيا في النهاية بأرض ذات الطول والعرض أي بقبره فقط ويرقد فيه في حين أنه قيد قده ويتعفر خده بالأرض فلو كان صاحب الأمتعة الدنيوية الكثيرة. ولا ينبغي الاجتهاد في طلب ما لا يصاحب الفرد ولا يخلد عنده.

٤-٣- البعد العملي

٤-٣-١- الاستعداد و التزوّد

تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم وآخركم.^٢

يشير الإمام (عليه السلام) إلى قرب موعد الموت. إنه ينتظر الجميع وسينزل على كل الافراد كما نزل على الأولين و يأمر بالتخفف من المتعلقات من متاع الدنيا يقصر الفعل على متعلقه، قصر الصفة على الموصوف، الانتظار للحلول على الافراد لقبض الارواح صفة مختصة للموت، فالإشارة إلى هذه الخصيصة تتذكر قصر المدة وموعد الرحيل ولزوم الاستعداد له. فإنما أنتم كركب وقوف لا يدرون حتى يؤمرون بالسير.^٣

يوصي الناس بالتزوّد من الدنيا لأيام البقاء أي الآخرة فيشبهه الناس بركب وقوف الذين لا يعلمون ساعة الرحلة من الدنيا ومدة وقوفهم فيها. فلا بد ان يكون على إستعداد تام لسفر الآخرة. قصر الموصوف على الصفة.

٤-٣-٢- المبادرة إلى الحسنات

إنما أراد أن يبيلوكم أيكم أحسن عملا فبادروا بأعمالكم.^٤

حكمة الدنيا الرئيسية هي الإبتلاء. وقد اراد الله منخلق الدنيا، إختبار وإمتحان ايمان الناس ومدى عبوديتهم له بخلق الدنيا. هدف الخلق يقصر في الإبتلاء، يبيلو الله الانسان ليتبين للإنسان حقيقة رغباته وباطنه أبادر إلى الاعمال الصالحة أو يميل إلى الشهوات ويرغب عن أمر الآخرة. فقصر الفعل على (أن يبيلوكم) المصدر الذي يحل محل المفعول، قصر الصفة على الموصوف.

النتيجة:

أسلوب القصر ب(إنما) يمكن ان يدل على الدلالات التربوية في جانبي حياة الإنسان للتذكير والتنبية و الإرشاد على وجوه يعرفها المخاطب لكن ينسى أو يتعافل عنها. يشير الإمام (عليه السلام) في الكلام الحصري إلى الابعاد الثلاثية في المسائل التربوية، إلى البعد المعرفي بتعريف الخصائص وحقيقة الصفات والموصوفات وإلى البعد العاطفي وبإثارة العواطف والمؤثرات النفسية وإلى البعد العملي وبتحريك الهمة في إتخاذ خطوات عملية لصالحه. يمكن كشف الحقائق الهامة المطروحة في أسلوب القصر ب(إنما) في علاقة الإنسان بذاته وبالمحيط في الابعاد المعرفية والعاطفية والعملية.

القصر في الدلالة على علاقة المرء بالمحيط يشمل علاقته بالخالق، علاقته بالإمام، علاقته بالمجتمع و علاقته بالدنيا.

استخدم أكثر اسلوب القصر ب(إنما) في نطاق الحياة الخارجية اي علاقة الانسان بغير ذاته و غير نفسه. و أكثر اسلوب القصر ب(إنما) يشاهد في موضوع الدنيا وعلاقة الانسان بها والذي يوحي الدلالات التربوية الإرشادية المفيدة لابد الدقة عليها.

القصر في بيان علاقة المرء بذاته ينحصر الذات في عبودية الله ويثير البصيرة للعمل بالتقوى.

١. (خ ٨٣).

٢. (خ ١٦٧).

٣. (خ ١٥٧).

٤. (خ ١٨٣).

القصر في بيان علاقة المرء بالخالق يوصف خصائص الله المنحصرة به ويبين عظمتة ويثير الخضوع و الطاعة أمامه.

القصر في بيان علاقة المرء بالإمام ينحصر القوامه على الإمام ويثير حس الطاعة للاهتداء وإحقاق الحقوق .

القصر في بيان علاقة المرء بالمجتمع يثير الأخوة وروح التعاون ويوصي بإصلاح المجتمع من الاعوجاجات والشبهات ويحرك الهمة نحو تنمية المجتمع لان مصيرة أفراد الشعب متلاصقة بعضها ببعض.

القصر في بيان علاقة المرء بالدنيا يشير إلى الخصائص التي تثير التنفير والابتعاد عن الدنيا. يعتبر الدنيا دار مجاز ودار الإبتلاء ولايليق التعلق بها ولابد الاعتبار بأحوال الماضين للإسراع إلى التزود والاستعداد للرحيل.

القصر في بيان خصائص الدنيا لا يهتم إلى جانبي السلبي والايجابي للدنيا المشيرة إليها في الآيات و الروايات بل يقتصر على الجانب السلبي لها فقط.

ويمكن القول بأن الجانب السلبي أهم من الجانب الايجابي للإشارة إليه. والناس حسب ذاتهم ورغباتهم يميلون إلى الدنيا ويتطرقون إليها فلهذا لا حاجة في تأكيد وتذكير الخصائص الايجابية بل من الواجب الاشارة إلى الجانب المغفول والخصائص التي يتجاهلونها الناس ولابد الشارة إليها لتنبيه العقول والتذكير بأن الدنيا ومتاعها خلقت لخدمة الآخرة.

دراسة المضامين المشتركة بين نهج البلاغة وأشعار حافظ

المدرس المساعد: آمنة موسوي شجري

الملخص:

إنّ نهج البلاغة للامام على (عليه السلام) مجموعة من خطبه ورسائله وكلماته القصار ومثل أعلى للفصاحة والبلاغة والايجاز بعد القرآن الكريم في اللغة العربية. إذا نظرنا إلى آثار الشعراء والادباء في التاريخ، نرى كثيراً منهم تأثر من هذه الشخصية البارزة التي لا مثيل لها ويظهر هذا التأثير في آثارهم الادبية. حافظ الشيرازي من الشعراء الذين تأثروا من امير المؤمنين (عليه السلام) على الخصوص من كتاب نهج البلاغة. هو شاعرٌ من الشعراء الإيرانيين في القرن الثامن الهجري وفي الواقع هذا التأثير هو رمز الخلود اشعاره. في هذا المقال نلقي نظرة عابرة على حياة امير المؤمنين (عليه السلام) و اوصافه و فضائله ثم درسنا المضامين المشتركة بين نهج البلاغة وأشعار حافظ خاصة في حقول التعلیمیة والأخلاقية.

المقدمة:

لاشك أنّ التكلم أو الكتابة حول امير المؤمنين وكتابه نهج البلاغة خاصة ليس أمراً سهلاً. إنّ نهج البلاغة هو أعظم كتاب أدبي وديني وأخلاقي واجتماعي بعد القرآن والحديث النبوي الشريف. إذا نظرنا إلى الأدب إما شعراً وإما نثراً نرى أنّ العلماء والادباء عالجوا و باحثوا حول نهج البلاغة وامير المؤمنين (عليه السلام) على امتداد القرون وأعترفوا إلى عجزهم أمام عظمة هذه الشخصية التي لا نظير لها. ونرى كثيراً من الأدباء والشعراء استفادوا واقتبسوا صريحاً أو غير صريحاً من كلام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في آثارهم. لأنّ كلامه قبس من نور الكلام الإلهي وشمس تضيء بفصاحة المنطق النبوي واستخدموا في آثارهم حتى يرفعوا قيمة آثارهم وزينوا آثارهم بأقواله وحافظ الشيرازي شاعر إيرانيّ أن يتأثر من امير المؤمنين (عليه السلام) وياخذ معاني أقواله و مبانى الفاظه ويستخدمها بصورٍ مختلفةٍ. لذلك المؤلف في هذا المقال بصدد أن يتناول إلى حياة علي بن ابيطالب (عليه السلام)، اوصافه وإلى حياة حافظ ثم يعالج المضامين المشتركة كالحرية، العدل، حسن الخلق، القناعة، الحزم و... التي يستخدمها حافظ في خلال اشعاره.

حياة أمير المؤمنين (عليه السلام):

هو علي بن ابي طالب بن هاشم بن عبد مناف ولد بمكة في البيت الحرام يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله تعالى سواه، إكراماً من الله تعالى له بذلك، و إجلالاً لمحلّه في التعظيم^١. كان ابوه أبا طالب عمّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومؤمن قريش. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم. لذلك كان امير المؤمنين هاشمياً من هاشميين^٢.

١ . الشيخ المفيد، ١٣٨٨ش، ص ١٧.

٢ . (احمد بن ابي يعقوب يعقوبي، ج ٢، ص ٧٤ / محمد بن جرير الطبري، ج ٤، ص ١١٧).

كنيته «ابوالحسن» و«ابوتراب». القابه كثيرة وهي اسد الله، سيد عرب، سيد المسلمين، سيد البلغاء، امام الفصحاء، امام المتقين وأهمها امير المؤمنين^١.

لم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام علياً: كما قال علي (عليه السلام):
أنا الذي سمّني أمي حيدرة
أو فيهم بالصاع كيل السندر^٢.

ثم نشأ في بيت النبوة وفي حضن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^٣.
كانت وفاة أمير المؤمنين (عليه السلام) قبيل الفجر ليلة الجمعة إحدى وعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، قتيلاً بالسيف، قتله ابن ملجم المرادي لعنه الله في مسجد الكوفة^٤.

اوصاف وفضائل امير المؤمنين (عليه السلام):

لا يخفى على اهل العلم والتحقيق أنّ فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) لا تحصى في أيّ كتاب، ولا يقدر عدّها أي لسان، بل لا تدرك درجاته ملائكة السموات أيضاً، في الحقيقة أنّ أخصاء فضائله كافر اغ ماء البحر في التعرّ، وقد ورد في الأحاديث الكثيرة أنّ أهل البيت (عليهم السلام) هم كلمات الله، ولا يمكن احصاء فضائلهم كما لا تحصر كلمات الله، ولنعم ما قيل:
كتاب فضل تو را آب بحر كافي نيس كه تر كنم سر انگشت و صفحه بشمار^٥.

أي إنّ ماء البحر لا يكفي لكي أبلل به أناملي فأعدّ صفحات كتاب فضلك.
و نكتفي هنا إلى أحاديث من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لذكر فضائل امير المؤمنين (عليه السلام) الذي قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَيْبَتِهِ وَآلِي مِيكَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رُثْبَتِهِ وَآلِي جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَلَالَتِهِ وَآلِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَلْمِهِ وَآلِي نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خَشْيَتِهِ وَآلِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُلُقِهِ وَآلِي يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَزْنِهِ، وَآلِي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَمَالِهِ، وَآلِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُنَاجَاتِهِ، وَآلِي أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صَبْرِهِ، وَآلِي يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي زُهْدِهِ، وَآلِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُنَّتِهِ، وَآلِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَرَعِهِ، وَآلِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حَسَبِهِ وَخُلُقِهِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيٍّ، فَإِنَّ فِيهِ تَسْعِينَ خِصْلَةً مِنْ خِصَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ وَلَمْ يَجْمَعْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ»^٦.

وقال أيضاً: «إن الله لأخي علي فضائل لا تحصى كثرة، فمن ذكر فضيلة من فضائله مقرا بها غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومن كتب فضيلة من فضائله لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي لتلك الكتابة رسم ومن استمع إلى فضيلة من فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنظر»^٧.

وأيضاً: «لو كان البحر مداداً، والرياض اقلاماً والانس كتاباً والجن حساباً، ما أحصوا فضائلك يا ابا الحسن»^٨.

- ١ . (عباس قمي، ١٣٨٦ش، ج ١، ص ١٩٩).
- ٢ . (احمد بن عبدالله الطبري، ٢٠٠٧م، ج ١، ص ٢٣٩).
- ٣ . (احمد رضا خضري، ١٣٨٥ش، ص ٤٥).
- ٤ . (الشيخ المفيد، ١٣٨٨ش، ص ٢٢).
- ٥ . (احمد زنديان، ١٣٨٦، ص ٢٧).
- ٦ . (ابراهيم بن محمد جويني، ١٣٧٨ش، ص ١٧٠ / نور الله شوشتري، دبت، ج ٤ ص ٣٩٧).
- ٧ . (محمد جواد مغنیه، ١٣٨٦، ص ١٩).
- ٨ . (سيد حجت موسوي، ١٣٨٢، ص ١٨٥).

حياة حافظ الشيرازي:

شمس الدين محمد، ولد في شيراز حدود سنة ٧٢٩ للهجرة. هو المعروف ؛ «خواجه حافظ الشيرازي» والملقب بـ«لسان الغيب وترجمان الأسرار»، كما لقب أيضاً بـ«الحافظ» لحفظه القرآن وهو اللقب الذي اختاره، فيما بعد «تخلصاً» عرف في اشعاره

ونُسب إلى مسقط رأسه ومدينته شيراز في بلاد الفرس. وشاعر الشعراء في إيران إلى يومنا هذا^١.

شمس الدين محمد كان يتعشق فتاة تعرف باسم «شاخ نبات»، وأنه كان يعرض لها فتعرض عنه، فدفعه هذا الحب الفاشل كما دفعه اخفاقه في قرص الشعر إلى أن يختار العزلة والإعتكاف، فاختار ضريحاً إلى شمال شيراز يعرف بضريح «بابا كوهي» فلزمه أربعين يوماً يتقرب فيها إلى الله بالدعاء و الضراعة.

فلما كاد يكمل أيام عزلته، زاره هنالك - كما يقولون - الإمام علي (عليه السلام) و أطمعه طعاماً سماوياً، ولقنه غزله المعروف:

دوش وقت سحر از غصه نجاتم دادند
بيخود از شعشعه پرتو ذاتم کردند
چہ مبارک سحری بود وچہ فرخنده شبی
واندر آن ظلمت شب آب حیاتم دادند
باده از جام تجلی صفاتم دادند
آنشب قدر که این تازہ براتم دادند^٢

معناه: ليلة أمس في وقت السحر، أعطوني النجاة من الألم والويل وناولني ماء الحياة، وسط هذه الظلمات من الليل.

- فأخرجوني عن نفسي، بما انبعث من ضياء ذاته وناولوني خمراً في جام يتحلى فيها صفاته.
- فيا له من سحر مبارك ويا لها من ليلة سعيدة!! ليلة القدر هذه التي منحوني فيها البراعة الجديدة.

ثم خبره الساقى بعد ذلك أنه سيكون شاعراً ذا شأن وأنه سيكون مؤيداً بتأييدات من عالم الغيب ! وتستمر القصة بعد ذلك فتقول إن الأمور تيسرت له بعد هذه الغزلة فأسلس له الشعر قيادة، وأسلس له « شاخ نبات » من قيادها فأقبل عليهما، ولكنه اضطر إلى الابتعاد عن معشوقته عندما تذكر قسمه في الخلوة بأن يكون زاهداً معرضاً عن متع الحياة^٣.

ويشتهر حافظ بالشعر الغزلي والعرفاني، ويتسم شعره بزروة الفصاحة والبلاغة والملاحة وعبر من خلال شعره عن كافة مكنونات قلبه مثل العشق للحقيقة والوحدة والوصل بين الارواح، واستخدم في اشعاره كلمات وتعابير خاصة بين من خلالها ما يقصده من مفاهيم وكان اسلوبه مبتكراً وفريداً من نوعه وتعتبر قصائده قمة الابداع في الادب الفارسي.

ويستخدم حافظ مصطلحات مثل «باده ومي» وتعنيان الشراب و«ميكدة» وتعني محل الشرب ويقصد منهما معان عرفانية وليس المعنى الظاهري لمثل هذه الكلمات^٤.

ان شعر حافظ هو مزيج من معاني العشق والمعاني الاجتماعية والعرفانية وفي كل قصائده الغزلية يقصد الى جانب العبارات العادية ايصال مفاهيم متعالية عن الوجود والحب والعفو والعنف والرياء والخداع الذي يمارسه من يصل الى السلطة، كما يقصد ايصال جماليات الخلق والطبيعة والارادة العرفانية للفكر القوي وكل واحدة من هذه المضامين لها طابع تعلى مي وملئنة بالعبير وتعلم الناس طريقة ونهج واسلوب الحياة^٥.

- ١ . (محسن فيض كاشاني : ٢٠٠٠م، ص٥١).
- ٢ . (ديوان حافظ، ص ٢٢١).
- ٣ . (ابراهيم الشواربي، ١٣٨٢ش، ص١٥).
- ٤ . (سيروس شميسا، ١٣٨٢ش، ص١٥٤).
- ٥ . (محسن فيض كاشاني : ٢٠٠٠م، ص٥٢).

وتوفى حافظ الشيرازي عام ٧٩١ هـ. ق بشيراز ودُفِنَ في منطقة جميلة وهادئة تسمى «كلكشت مصلى» كان حافظ يحبها كثيراً، وقد تغير اسم هذه المنطقة بعد دفنه فيها واطلق عليها اسم «حافظية» واشتهرت بهذا الاسم.^١

نظرة إلى المضامين المشتركة بين نهج البلاغة وديوان حافظ:

إذا نظرنا إلى آثار الأدباء والشعراء نرى كثيراً منهم أن يستمعوا في آثارهم من كلام على بن ابي طالب (عليه السلام) وزينوا كلامهم بكلام مولانا امير المؤمنين (عليه السلام) وجدير بالذكر هنا، من يقرأ اشعار حافظ في ديوانه يرى أنه من الشعراء الذين اقتبسوا مباشراً أو غير مباشر من نهج البلاغة .

في هذا القسم نحن نصدد أن نعالج المفاهيم والمضامين التي تشترك بين نهج البلاغة واشعار حافظ .

ومن هذه المضامين هي:

الحرية:

الحرُّ، بالضم لغة: نقيض العبد، و الجمع أحرار.^٢

وفي الاصطلاح ترك كل ما تعلق الإنسانُ إليه أو يشغل به.^٣

وجدير بالذكر؛ في الأدب الديني والعرفاني للحرية خاصة للحرية المعنوية، دورٌ هامٌ لذلك قال على بن ابي طالب (عليه السلام) في نهج البلاغة:

« ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً».^٤

يقول حافظ:

غلام همت آتم كه زيرچرخ كبود
زهرچه رنگ تعلق پذيرد آزاد است^٥
أي: أنا عبد لذلك الشخص «الرفيع الهمة»، الذي استطاع تحت هذه القبة الزرقاء، أن يحرر نفسه من كل ما تعلق به الصفات والألوان.^٦

يقول أيضاً:

داي كوي تو از هشت خلد مستغني است
اسير عشق تو از هر دو عالم آزاد است^٧
آزاد است^٨

أي: السائل في جادتك، غني عن جنات الخلد و أسير عشقك، متحرر من كلا العالمين...!!^٩
كما نلاحظ إن الحرية عند الامام على (عليه السلام) هي من عوامل التقوي والنزاهة وقال عليه السلام إن الله خلق الإنسان حراً وإذا نظرنا إلى اشعار حافظ نرى أنه يؤكد على الحرية وعدم التعلق إلى الدنيا وما فيها لأن خلق الإنسان حراً.

ويعتقد حافظ إن كل شيء في الدنيا والآخرة يتعلق إلى الله تعالى فقط.

الادب وتأديب النفس:

أدب بمعنى الدعوة إلى الطعام والأدب هو الداعي إلى الطعام.^{١٠}

١ . (ابراهيم الشواربي، ١٣٨٢ ش، ص ٢٤).

٢ . (ابن منظور: ١٩٧٧ م، مج ٤، ص ١٨١).

٣ . (محمد رضا امين زاده: ١٣٧٩، ص ٢٩).

٤ . (الرسالة: ٣١).

٥ . (ديوان، ص ٩٠).

٦ . (أغاني شيراز، ص ١٨٥).

٧ . (ديوان، ص ٨٨).

٨ . (أغاني شيراز، ص ١٢٩).

٩ . (الخليل، ٤٠٩ م، مج ٨، ص ٨٥).

أدبته فتأدب أي علمته الأدب فتعلم وسمي به لأنه يودب الناس إلى المحامد و ينهاهم عن المقابح
وأصل الأدب الدعاء^١.

الأدب عنصر حيوي كائن يتقمصه الوجود الإنساني ووسيلة من وسائل التهذيب الخلقى والنفسي^٢.
والنفسي^٣.

إن لنا من كلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ما يويد في جوهره وفي مغزاه
العميق وهي:
«ولا ميراث كالأدب»^٤.

«ومعلم نفسه ومودبها احق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم». (الحكمة: ٧٣).
يقول حافظ:

هرکه را نیست ادب، لایق صحبت نبود^٥

حافظ علم وادب ورز که در مجلس خا

نبود^٦

معناه: فاجتهد يا «حافظ» في تتبع العلم والأدب في مجلس الملوك فكل من لا أدب له، لا يليق
بصحبه ومجالسته...!!^٥

گر شاه پیامی به غلامی نفرستاد^٧

حافظا به ادب باش که وا خواست نباشد

يقول: يا «حافظ» تأدب، والزم جانبك... فلا اعتراض على ملك، إذا لم يبع برسالة إلى عبده
وغلامه...!!^٧

که سالکان درش محرمان پادشهند^٨

قدم منه به خرابات جز به شرط ادب

يقول: لا تضع قدمك في الخرابات إلا إذا التزمت طريق الأدب فالسالكون ببابها هم محرم أسرار
الملوك...!!^٨

كما نلاحظ إن حافظ ياخذ هذا المضمون من نهج البلاغة ويشير إليه مع بيان رائعة وذوقه الأدبي
ويقول كل من لا أدب له، لا يليق مجالسته وهذا يبين أهمية الأدب عند الحافظ.
إغتنام الفرصة:

من المضامين التي يؤكد كثيراً عليها هي اغتنام الفرصة كما نلاحظ في نهج البلاغة: «بادر
الفرصة قبل أن تكون غصة»^٩.

«الفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير»^{١٠}.

يقول حافظ:

کس را وقوف نیست که انجام کارچيست؟^{١١}

هر وقت خوش دست دهد معتنم شمار

- ١ . (الزبيدي: دبت، مج ١، ص ١٤٤).
- ٢ . (صادق آل طعمه: ١٣٨٨م، ص ٢٧٠).
- ٣ . (الحكمة: ١١٣).
- ٤ . (ديوان، ٤٤٢).
- ٥ . (أغاني شيراز، ص ٣٠٧).
- ٦ . (ديوان، ص ٢٢٦).
- ٧ . (أغاني شيراز، ص ٢٥٤).
- ٨ . (ديوان، ص ٤٠٨).
- ٩ . (أغاني شيراز، ص ٢٢٣).
- ١٠ . (الرسالة ٣١).
- ١١ . (حكمة: ٢١).
- ١٢ . (ديوان، ص ١٤٨).

يقول: اعتبر ما تهيأ لك من طيب الوقت فرصة عزيزة وغنيمة كبيرة، فلا علم لأحد بما تكون علىه نهاية الأمور.^١

نداني قدر وقت اي دل مگر وقتي كه درماني^٢

دريغا عيش شبگيري كه در خواب سحر بگذشت

درماني^٢

يقول: يا أسفا لعيش السهر والسهاد... فقد إلى نومة السحر الغافلة وأنت يا قلبي...! لا تعرف قدر الوقت إلا إذا تخلفت عن القافلة...!!^٣

نرى أن الوقت واغتنامه هام جدا ويشير الإمام على (عليه السلام) بأهميتها ونلاحظ أنه يشبه مرّ الفرصه بمرّ السحاب ويؤكد بأن تستفيدوا من وقتكم بأحسن وجه ولا تضيعوا لأنّ اضاعة الفرصة غصة وحرز.

وإذا امعنا النظر في اشعار حافظ الشيرازي ندرك أنه يستخدم هذا المضمون في أشعاره ويشير على اغتنام الفرصة ويبين لنا إن الإنسان لا يعرف قدر الوقت إلا إذا يخلف عن القافلة وأنداك لفائدة له.

الأمانة وحفظها: الأمانة لغة: الوفاء، وهي ضد الخيانة.

أما في الاصطلاح: كل ما يؤمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة.^٤

قد ورد في نهج البلاغة: «ثمّ اداء الأمانة فقد خاب من ليس من اهلها أنها عرضت على السموات المبنية... ولكن اشققهنّ من العقوبة وعقلنّ ما جهل من هو اضعف منهنّ وهو الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً».^٥

كما نلاحظ إنّ علي بن ابي طالب (عليه السلام) مع استخدام عبارة «هو الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً» يقتبس من مفردات القرآنية ويشير إلى آية من القرآن الكريم وهي «حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».^٦

قد ورد أيضاً في نهج البلاغة: «لو منّ استهان بالامانة ورتع في الخيانة... و هو في الآخرة أذلّ وأخزي».^٧

إذا نظرنا إلى هذا كلام البليغ والفصيح، نحن نجد البديع من المحسنات اللفظية وهي التضاد لأنّ علي بن ابي طالب (عليه السلام) يستخدم «الأمانة» وضدها (الخيانة) في كلامه معاً. يقول حافظ:

گر سالكي به عهد امانت وفا كنده^٨

حقا كز اين غمان برسد مژده امان

يقول: يا رب...! هل تصل إلى بشري الأمان من هذه الغموم والأحزان؛ إذا وفي السالك بعهد الأمانة...؟!^٩

قرعه كار به نام من ديوانه زدند^{١٠}

آسمان بار امانت نتوانست كشيد

يقول: لم تستطع السماء أن تتحمل عبء «الامانة» فاقترعوها على اسمي... أنا المولّه المجنون...!!^{١١}

١ . (أغاني شيراز، ص ١٣٧).

٢ . (ديوان، ص ٩٤٦).

٣ . (أغاني شيراز، ص ٥٥٧).

٤ . (احمد على رجايي بخارايي، ١٣٦٤، ص ٩٤).

٥ . (خطبة: ١٩٩).

٦ . (احزاب: ٧٣).

٧ . (الرسالة: ٢٦).

٨ . (ديوان، ص ٣٧٨).

٩ . (أغاني شيراز، ص ٢١٠).

١٠ . (ديوان، ص ٣٧٤).

إنَّ حافظ في هذا البيت يشير إلى هذه الآية الكريمة: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»^٢
 إذا ادقنا النظر إلى كلام مولانا أمير المؤمنين وشاعرنا الكبير، حافظ، نرى انهما يستخدمان هذا اللفظ على صور مختلفة ويشيران إلى أهمية الوفاء بالامانة حفظها وجدير بالذكر إنهما يقتبسان اللفظ والمعنى من القرآن الكريم كما رأينا.

الرجاء والحذر عن اليأس:

الرجاء لغة من الأمل نقيض اليأس^٣.

إنَّ الرجاء من أسس أعمال الإنسان وذلك من بواعث السعي و الجهد في حياة الإنسان.
 الرجاء والحذر عن اليأس و القنوط من المضامين التي قد نرى في اشعار حافظ ونهج البلاغة.
 قال امير المؤمنين (عليه السلام):
 « ولا تياس لشَرِّ هذه الامة من روح الله كقوله تعالى إِنَّه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون»^٤.

كما رأينا إن الإمام علي (عليه السلام) يشير اشارة صريحة إلى قول الله تعالى.
 حيث يقول «إِنَّه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون». إن اليأس؛ انقطاع الطمع من الشيء^٥.
 أو يقول في معرفة آيات رحمة الله: « ولم يويسك من الرحمة »^٦.

کمر کوه کم است از کمر مور اینجا نا امید از در رحمت مشو ای باده پرست^٧
 معناه: يا عابد الخمر! لا تياس من باب الرحمة، فالجبل الشامخ هنا أدقّ من خصر النملة النحيلة^٨.
 اذا نتأمل في شعر حافظ نرى إنّه يقتبس اللفظ و المعني من كلام امير المؤمنين (عليه السلام)
 حيث يقول: « نا امید از در رحمت مشو » أي لا تياس من باب الرحمة.
 النصيحة:

النصيحة هي الكلمة الطيبة الخالصة قولاً و عملاً وبذل الجهد في إصلاح المنصوح.
 إنَّ الإنسان العاقل من ينصح ويرشد^٩.

قال على بن ابيطالب (عليه السلام): « بينكم وبين الموعظة حجابٌ مِنَ العُرَّة »^{١٠}.
 يقول حافظ:

نصیحتی کنت بشنو و بهانه مگیر هر آن چه ناصح مشفق بگویدت بپذیر^{١١}
 معناه: أني انصحك، فاستمع إلى ... ولا تلتمس المعاذير وتقبل ما بقوله لك الناصح المشفق بغير تردد أو تفكير...!!^{١٢}

نصیحت گوش کن جانا که ازجان دوست تر دارند جوانان سعادت مند پند پیردانا را^{١٣}

- ١ . (أغاني شيراز، ص ٢٢٤).
- ٢ . (احزاب: ٧٣).
- ٣ . (ابن منظور: ١٩٩٧م، ج ١٤، ص ٣٠٩).
- ٤ . (الحكمة: ٣٧٧).
- ٥ . (ابن سيده: ١٣١٧هـ؛ ج ٣، ص ٧٠).
- ٦ . (الرسالة: ٣).
- ٧ . (ديوان، ص ٥٨).
- ٨ . (أغاني شيراز، ص ١١٠).
- ٩ . (أحمد على رجائي، ١٣٦٤ش، ص ١٢٧).
- ١٠ . (الحكمة: ٢٨٢).
- ١١ . (ديوان، ص ٥١٨).
- ١٢ . (أغاني شيراز، ص ٣٤١).

معناه: فيا حبيبي! استمع لنصيحتي فإن الشبان السعداء يحبون أكثر من انفسهم نصيحة « الشيخ » العارف.^٢

كما نلاحظ: إنّ الانسان السعيد عند حافظ هو الذي ان يصغي النصيحة و يستمتع منها. ويعتقد إنّ نُصَحَ الحكيم، هو الصواب المحض والخير. التفكير:

الفكر لغة: إعمال الخاطر في الشيء.^٣

أو هو ما وقع بخلد الانسان وقلبه.^٤

وهذا من المضامين التي نراه في نهج البلاغة أيضاً، نحو: « رحم الله أمراءً تَفَكَّرَ فأعتبروا واعتبر فابصر ».^٥

و« الفكرُ مرآة صافية ».^٦

يقول حافظ:

تو وطوبى و ما و قامت يار فكر هر كس به قدر همت اوست^٧

معناه: فعليك بشجرة طوبى؛ وعلينا نحن بقامة الحبيب، فكل امرئ فكره على قدر همته!^٨

إن لكلمة «طوبى» معنيين؛ الأول: الطلب والخير، والثاني: اسم نبات في الجنة.

كقوله تعالى: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحين مآبٍ».^٩

والمراد في هذا البيت، المعني الثاني.^{١٠}

نيل مراد بر حسب فكر و همت است از شاه نذر خير و ز توفيق ياوري^{١١}

معناه: بقدر الفكر والهمة يكون نيل المراد والمقصود وعلى الملك أن ينذر الخير ... وعلى الله التوفيق والتأييد...!^{١٢}

إذا نظرنا إلى شعر حافظ نرى أنه يستخدم الفكر والهمة معاً إلى حدّ نستطيع أن نقول إنّهما كلمتان مترادفتان وبينهما رابطة التي تأدّي حتى يصلّ الأنسان إلى أهدافه ومراده وهذا اشارة غير صريحة إلى كلام اميرالمؤمنين حيث يقول: « رحم الله أمراءً تَفَكَّرَ فأعتبروا واعتبر فابصر ».^{١٣}

القناعة:

قال الامام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة: « لا كنز أغني من القناعة ولا مال أذهب للفاقة من الرضى بالقوت ».^{١٤}

إن على بن ابيطالب (عليه السلام) يشبه القناعة بكنز ومال لن يقلّ.

١ . (ديوان، ص ٢٢).

٢ . (أغاني شيراز، ص ٩٢).

٣ . (ابن منظور: ١٩٩٧م، مج ٥، ص ٦٥).

٤ . (ابن دريد: ١٤٢٨م، مج ٣، ص ٦١).

٥ . (الخطبة: ١٠٣).

٦ . (الحكمة: ٣٦٥).

٧ . (ديوان، ص ١٣٦).

٨ . (أغاني شيراز، ص ١٠٦).

٩ . (رعد: ٢٩).

١٠ . (بهاءالدين خرمشاهي: ١٣٧٣، مج ٢، ص ٣١٩).

١١ . (ديوان، ص ٩٠٠).

١٢ . (أغاني شيراز، ص ٥٣٢).

١٣ . (الخطبة: ١٠٣).

١٤ . (الحكمة ٣٧١).

هر أنكه كنج قناعت به گنج دنيا داد
معناه: أما من رضي بأن يستبدل ركن القناعة بكنوز الدنيا العابرة فقد باع «يوسفاً» المصري
بأبخس الأثمان الخاسرة...!!^١

حافظ غبار فقر و قناعت ز رخ مشوي
معناه: فلاتغسل وجهك... يا حافظ... من غبار الفقر والقناعة فإن هذا الغبار خير لك مما تفعله
«الكيمياء» من صناعة...!!^٢

نلاحظ هذا المضمون يجد في شعر حافظ أيضاً ويؤكد إلى القناعة في الحياة و يبين لنا مثل
الاعلى التي يشير إلى قصة «يوسف(عليه السلام)» حيث يقول من رضي بأن يستبدل ركن
القناعة بكنوز الدنيا العابرة فقد باع «يوسفاً» المصري بأبخس الأثمان الخاسرة.
العقل:

العقل لغة، الحجر و ألّهي ضدّ الحمق.^٥ جدير أن نذكر حديث من رسول الله(صلى الله عليه وآله
وسلم) حول العقل؛ قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): قَسَمَ اللهُ العَقْلَ ثلاثة أجزاءٍ فمن كُنَّ
فيه كَمَلٌ عقله و من لم يَكُنْ فلا عقلَ له: حُسْنُ المعرفة بالله و حُسْنُ الطاعة لله، و حُسْنُ الصبر على
أمر الله.^٦

كما ورد في نهج البلاغة: «إن أغني الغني، العقل و اكبرُ الفقر الحمق».^٧
و«كفأك من عقلك ما أوضح لك سُبُلُ غِيَّتِكَ من رُشْدِكَ».^٨

إنّ الإمام علي(عليه السلام) يبيّن لنا إنّ العقل هو أغني الغني و ينجينا من الغيّ و الضلالة و يهدينا
إلى سُبُل النور و الهداية.
يقول حافظ:

من نگويم كه با كه نشين و چه بنوش
كه تو خود داني اگر زيرك و عاقل باشي^٩

معناه: و لن أقول لك: ماذا تشرب، وفي صحبة من تجلس...؟! فإنك إن كنت عاقلاً ذكياً، تعرف
ذلك من تلقاء نفسك...!!^{١٠}

حافظ يشير أيضاً إلى العقل.
ويبيّن لنا إنّ العقل يساعدك أن ينتخب صديق العاقل و من كان صديقه عاقلاً لن يضلّ و من يلازمه
العاقل لن يضرّ في حياتك.
العفو:

كما نعلم إنّ الإمام علي(عليه السلام) كان أحلم الناس و أكثرهم عفواً لمن أساء إليه و صحة هذا
الأمر تتضح من تعامله بالإحسان مع أعدائه.^{١١}
وقال عليه السلام في نهج البلاغة:

- ١ . (ديوان، ص ٩٥٢).
- ٢ . (أغاني شيراز، ص ٥٣٦).
- ٣ . (ديوان، ص ٩٠٠).
- ٤ . (أغاني شيراز، ص ٥٣٢).
- ٥ . (ابن منظور: ١٩٩٧م، مج ٥، ص ٦٥).
- ٦ . (محمد حرّاني: ٣٨٧ش، ص ٩٠).
- ٧ . (الحكمة: ٣٨).
- ٨ . (الحكمة: ٤٢١).
- ٩ . (ديوان، ص ٩١٠).
- ١٠ . (أغاني شيراز، ص ٥٣٤).
- ١١ . (عباس قمي، ١٣٨٦، ج ١، ص ١٨٤).

« الحمد لله الذي عظم حلمه فعفا»^١.

و « العفو زكاة الظفر »^٢.

يقول حافظ:

دارم اميد عاطفتي از جناب دوست كرم جنائتي و اميدم به عفو اوست^٣

معناه: إن لي أملاً في تعطف من ناحية الحبيب فلقد ارتكبتُ جنائية، ولكن أملّي في عفوهِ.^٤
إذا نظرنا إلى اشعار حافظ نرى أنّه يستخدم العفو ومعناه مراتٍ وبصورٍ مختلفةٍ والفاظٍ الجميلةِ والرائعةِ. علينا أن نعفو الانسان الخاطي والآثم في حياتنا، لأنّ قال علي بن ابي طالب (عليه السلام) زكاة الظفر هي العفو.

التواضع:

إنّ التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة.^٥

ويؤكد علي بن ابي طالب(عليه السلام) على التواضع في نهج البلاغة حيث يقول:

« ما أحسن التواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله »^٦.

يقول حافظ:

نظر كردن به درويشان منافي بزرگي نيست
سليمان با چنان حشمت، نظرها بود بامورش^٧

بامورش^٧

معناه: نظرك بالعتف إلى الدراويش والمساكين ... لا يتنافى مع عظمتك فإن «سليمان» مع عظمته وأبهته .. كان ينظر بعطف إلى النملة الصغيرة...!!^٨

به بال و پر مرو از ره كه تير پرتابي
هو گرفت زماني ولي به خاك نشست^٩

معناه: فلا تطرُ بجناحك وريشك وترتفع عن طريق؛ فالسهم الرائش يرتفع مدة في الهواء، ولكن سرعان ما يهبط إلى الأرض.^{١٠}

كما نعلم إنّ التواضع خصلة مرضية ويشير امير المؤمنين (عليه السلام) بكلامه الفصيح والبلوغ بهذه الخصلة ونلاحظ حافظ يأخذ معاني كلام علي بن ابي طالب (عليه السلام) ويستخدم هذه المعاني مع نوقه الأدبي واستعمال المحسنات البديعية من نوع التلميح وإن حافظ يشير إلى تواضع «سليمان» (عليه السلام) ويرسم هذا المضمون بصورة جميلة حيث يقول إن «سليمان» مع عظمته وأبهته كان ينظر بعطف إلى النملة الصغيرة.

الجود والسخاء:

قيل: الجواد: الذي بذل الاكثر، وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود.

والسخي: الذي أعطى البعض وأبقى لنفسه البعض فهو صاحب سخاء.^{١١}

كما نعلم إنّ الجود والسخاء من فضائل امير المؤمنين (عليه السلام)، كان يصوم نهاره ويقوم ليله ويبيتُ جائعاً ويتصدق بقوته على المساكين والفقراء ونزلت هذه الآية الكريمة في شأنه: (الَّذِينَ

١ . (الخطبة: ١٩١).

٢ . (الخطبة: ٢١١).

٣ . (ديوان، ص ١٣٢).

٤ . (أغاني شيراز، ص ١١٣).

٥ . (الاب هنريكوس لامنس: دبت، ص ٤٩).

٦ . (الحكمة: ٤٠٦).

٧ . (ديوان، ص ٥٦٢).

٨ . (أغاني شيراز، ص ٣٦٤).

٩ . (ديوان، ص ٥٦).

١٠ . (أغاني شيراز، ص ١٥٣).

١١ . (نورالدين الجزائري: ١٤٠٨ هـ ش، ص ٩٧).

ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).^١

ويشير امير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة إلى الجود والسخاء: «إن الله سبحانه فرض في اموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك».^٢ يقول حافظ:

مايه محتشمي خدمت درويشان است^٣

روضه خلدبرين خلوت درويشان است

است^٣

معناه: إن روضة الخلد الأعلى، هي خلوة الدراويش؛ وصفوة الجلال والإحترام، هو خدمة الدراويش.^٤

کیمیایی است که در صحبت درويشان است^٥

آن چه زر مي شود از پرتو آن قلب سياه

است^٥

معناه: وبنورهم ينقلب النقد الزائف ذهباً، وهذه هي الكيمياء التي في صحبتة الدراويش.^٦

به خواري منگر اي منعم ضعيفان و نحيفان را
که صدر مجلس عشرت گدای ره نشين دارد^٧

معناه: فيا ايها المنعم! لا تحقر أمر الضعفاء الهزيلين فإن السائل «المتخلف بالطريق»، له الصدارة في مجلس الشراب.^٨

وحافظ يؤكد على الجود والتفات الأغنياء إلى الفقراء والمساكين وهذا العمل يكون سبب محبوبة الانسان عند الناس ولأن الذين ينفقون اموالهم لهم أجرٌ وهذا الأجر عند الله تعالى. وكما نلاحظ أن حافظ يخاطب المنعم ويقول ايها المنعم! لا تحقر أمر الضعفاء الهزيلين. هذا المطلوب يدلنا أن نلازم المساكين في آلامهم ومشاكلهم.

التوكل:

التوكل لغة، إظهار العجز والاعتماد على غيرك.^٩

أما في اصطلاح فهي: ترك الأمور إلى الله والاعتماد عليه واطمئنان القلوب بذكر الله. والتوكل مرتبة من مراتب الطريقة.^{١٠}

قال علي بن أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة:

«وأتوكل على الله توكل الأنابة إليه».^{١١}

و«من توكل على الله كفاه».^{١٢}

يقول حافظ:

راهرو گر صد هنر دارد توکل بايدش^{١٣}

تکيه بر تقوا و دانش در طريقت کافري است

١ . (البقرة: ٢٧٤).

٢ . (الحكمة: ٣٢٨).

٣ . (ديوان، ص ١١٦).

٤ . (أغاني شيراز، ص ١٢٩).

٥ . (ديوان، ص ١١٦).

٦ . (أغاني شيراز، ص ١٢٩).

٧ . (ديوان، ص ٢٥٠).

٨ . (أغاني شيراز، ص ٢٢٨).

٩ . (ابن منظور: ج ١١، ص ٧٣٦).

١٠ . (بهاء الدين خرمشاهي، ١٣٧٣، مج ٢، ص ٨٦٨).

١١ . (الخطبة: ١٦١).

١٢ . (الخطبة: ٩٠).

١٣ . (ديوان، ص ٥٥٨).

معناه: من الكفر في طريقتنا الإستناد إلى العلم والتقوى لأن السالك يلزمه التوكل ولو امتاز
بكثير من الفضائل...!!^١

توكلنا على ربّ العباد^٢

نگارا در غم سوداي عشقت

أي: حبيبي ...! في لظي حبي وعشقي

إنّ الإمام علي (عليه السلام) يشير إلى التوكل إلى الله بكلمات القصار ولكن مملوء من المعني
حيث يقول: «من توكل على الله كفاه»^٣.

ويجب على الإنسان أن يتوكل إلى الله في كل امور حياته.
ونلاحظ هذا المضمون من المضامين المشتركة التي يوجد في اشعار حافظ أيضاً. أنه يؤكد على
التوكل إلى الله في كل أمور وأعمال حتى في الحبّ والعشق.

حسن الخلق:

إنّ حسن الخلق من الفضائل علي بن ابي طالب (عليه السلام).
وكان عمرو بن العاص يقول: إنّ علياً كان كثير الدعابة والمزاح، قد اخذ عمرو هذا الكلام من
عمر^٤.

ونرى أيضاً حسن الخلق والبشاشة في نهج البلاغة حيث يقول:

«كفي بالقناعة ملكاً وبحسن الخلق نعيماً»^٥.

و«البشاشة حباله المودّة»^٦.

يقول حافظ:

تورا دراين سخن انكار كار مانرسد^٧

به حسن خلق و وفا، كس به يار مانرسد

معناه: ليس في العالم من يبلغ مرتبة حبيينا، في الحسن والخلق والوفاء ومن أجل ذلك لن تنكر
حالنا معه، وما نقوله في صدق وصفاء^٨.

يعتقد علي بن أبي طالب (عليه السلام) بأن حسن الخلق يكون لصاحبها النعمة والعزة. ويعتقد
أيضاً أنّ البشاشة تأدي إلى المودّة.

ويستخدم حافظ هذا المضمون في اشعاره أيضاً ويصف حافظ ميّزات و خصائص حبييته ويعتقد
بأنّ ليس في العالم من يبلغ مرتبة حبييتي، في الحسن والخلق.

الحزم:

الحزم لغة: ضبط الإنسان أمره والأخذ فيه بالثقة.

أما في الاصطلاح: جودة الرأي في الحذر بمن يخاف من شره.^٩

كما ورد في نهج البلاغة:

«ثمره الحزم السلامة»^{١٠}.

يقول حافظ:

١ . (أغاني شيراز، ص ٣٦٩).

٢ . (ديوان، ص ٨٧٤).

٣ . (أغاني شيراز، ص ٥٢٧).

٤ . (الخطبة: ٩٠).

٥ . (عباس قمي، ١٣٨٦، ج ١، ص ١٨٤).

٦ . (الحكمة: ٢٢٩).

٧ . (الحكمة: ٦).

٨ . (ديوان، ص ٣٢٠).

٩ . (أغاني شيراز، ص ٢٦٦).

١٠ . (ابن منظور: ١٩٩٧م، مج ١٢، ص ١٣١).

١١ . (الحكمة: ١٨١).

ملول از همزهان بودن طریق کاروانی نیست بکش دشواری منزل به یاد عهد آسانی^١
معناه: و طریق «الحزم» أَلَا تحسّ بالملل من الرفاق والزلاء وتحملّ مشتقة «المراحل» ذاكرًا
عهد الراحة والرخاء....!!^٢

يعتقد أمير المؤمنين (عليه السلام) بأنّ للحزم ثمرةً وهي السلامة وإذا نتأمل في أشعار حافظ نرى
أنّه يعتقد بأنّ في طريق الحزم مشاكلٌ ومصائبٌ ويجب على الانسان أن يتحملها حتى يصل إلى
الراحة في حياته.

العدل:

العدل لغة: الحكم بالحق، وهو خلاف الجور.

أما في الاصطلاح: الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط.^٣

كما ورد في نهج البلاغة:

«فإنّ في العدل سعةً ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق».^٤

يقول حافظ:

خوش باش كه ظالم نبرد راه به منزل^٥

دور فلکی یکسره بر منهج عدل است

منزل

معناه: ودار الفلك فجأةً وفقاً لمنهج عدلك فأهناً... فلن يبلغ الظالم مبتغاه... و ليس بواصل...!!^٦

كما نعلم أنّ العدل من فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) إذا نظرنا إلى كلام أمير المؤمنين في
نهج البلاغة نرى أنّه يقول لابنه الحسين (عليه السلام) «أوصيك بتقوي الله... وبالعدل على
الصديق والعدو».^٧

ونلاحظ أنّ حافظ يستخدم هذا المضمون في خلال اشعاره ويقول كل العالم يبني على منهج العدل
والانسان الظالم لا يستطيع أن يصل إلى طلبه ومبتغاه و يجب علينا أن نحكم بين الناس ولن نظلم
إلى الآخرين.

نتيجة البحث:

إنّ كلام مولانا أمير المؤمنين مملوء من الثقافة القرآنية في المضمون وفي الشكل، وكثير
الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحديث النبوي، ونحن رأينا في أشعار حافظ وكلام مولانا أمير
المؤمنين (عليه السلام) المضامين والمفاهيم الاخلاقية و التعلمية و عالجاتها ثم استنتجنا إنّ
حافظ اشتهر بالشعر الغزلي والعرفاني و شعره مزيج من معاني العشق والمعاني الاجتماعية
والعرفانية واقتبس في مضامينه الشعرية من نهج البلاغة بصور عديدة وكل واحدة من هذه
المضامين لها طابع تعلّمي ومليئة بالعبير وتعلم الناس طريقة واسلوب الحياة كما يكون كلام
على بن ابي طالب (عليه السلام).

واشم شعره بذروة الفصاحة والبلاغة ورأينا في هذا المقال إنّ الصيغ الإنشائية في نهج البلاغة
أقوى من الصيغ الخبرية ولكن في شعر حافظ ليس هكذا.

جُمِلَ نهج البلاغة متوازنةً، ومملوء من التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز والجناس والسجع
و... ورأينا أيضاً إنّ حافظ كان قد استخدم في اشعاره هذه المحسنات اللفظية والمعنوية أيضاً.

١ . (ديوان، ص ٩٤٦).

٢ . (اغاني شيراز، ص ٥٥٧).

٣ . (ابن منظور: ١٩٩٧م، مج ١١، ص ٤٣٠).

٤ . (الخطبة: ١٥).

٥ . (ديوان، ص ٦١٢).

٦ . (اغاني شيراز، ص ٣٩٦).

٧ . (محمد حرّاني: ١٣٨٧ش، ص ١٤٢).

قائمة المصادر والمراجع:

- *قرآن الكريم .
**نهج البلاغة .
١. آل طمعه، السيد صادق: ١٣٨٨ق/١٩٦٨م، الحركة الأدبية المعاصرة في كربلاء؛، مطبعة أهل بيت كربلاء.
 ٢. ابن سيدة، ابوالحسن على بن اسماعيل: ١٣١٧هـ، المخصّص. مطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر، الطبعة الأولى، مصر.
 ٣. ابن عبدالله الطبري، احمد: ٢٠٠٧م، ذخائر العقبي في مناقب نوي القربي ؛ ، الطبعة الأولى، قم، دار الكتاب الإسلامي.
 ٤. ابن منظور، ابوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم: (١٤٠٥-١٩٩٧م) لسان العرب، الطبعة السادسة. دار صادر بيروت _ لبنان.
 ٥. امين زاده، محمد رضا: ١٣٧٩، «قرآن نهج البلاغة صحيفه سجاديه»، ناشر موسسه فرهنگي و انتشاراتي انصاري، قم.
 ٦. الجزائري، سيدنور الدين (١١٦٨): فروق اللغات في تمييز بين مفاد الكلمات، محمد رضوان الداية، مكتب نشر الثقافة الاسلاميه، الطبعة الثاني، ١٤٠٨ هـ.ق- ١٣٦٧ هـ.ش.
 ٧. جويني، ابراهيم بن محمد: ١٣٧٨ش، فرائد السمطين في فضائل المرتضي و البتول والسبطين والائمة من ذريتهم (ع)، تحقيق محمد باقر محمودي، تهران، داور.
 ٨. حافظ، خواجه شمس الدين محمد: ١٣٥٩ هـ.ش، ديوان حافظ؛ تصحيح پرويز خانلري، چاپ اول، نيل، تهران.
 ٩. حرّاني، شيخ ابو محمد: تحف العقول؛ ١٣٨٧ هـ.ش، ترجمه صادق حسن زاده، چاپ دهم، انتشارات آل على، قم.
 ١٠. خرمشاهي، بهاء الدين: (١٣٧٣هـ-)، حافظ نامه: چاپ ١٦، شرکت انتشارات علمي و فرهنگي، تهران.
 ١١. خضري، احمد رضا، (جمعي از مولفان): ١٣٨٥، تاريخ تشيع ١ [دوره حضور امامان معصوم(ع)]، چاپ دوم، قم، پژوهشگاه حوزه ودانشگاه.
 ١٢. رجايي بخارايي، أحمد على: ١٣٦٤، فرهنگ اشعار حافظ، انتشارات علمي.
 ١٢. الزبيدي، دبت: تاج العروس من جواهر القاموس،، بيروت، مكتبة الحياة.
 ١٣. زنديان، احمد: ١٣٨٦، قطب عالم امكان على عليه السلام، چاپ اول، انتشارات سفير اردهال.
 ١٤. شمس، سيروس: ١٣٨٢ش، سبك شناسي ١ (نظم)؛ دانشگاه پیام نور، تهران.
 ١٥. شوشترى، قاضي نور الله بي تا، احقاق الحق، قم، كتابخانه آيت الله مرعشي.
 ١٦. الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن نعمان: ١٣٨٨، الإرشاد في معرفه حجج الله على العباد، ترجمه امير خان بلوكي، چاپ اول، قم، انتشارات تهذيب.
 ١٧. طبري، ابوجعفر محمد بن جرير، بي تا، تاريخ الأمم والملوك(تاريخ الطبري)، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، بيروت، روائع التراث العربي .
 ١٨. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: دبت، كتاب العين، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، ابراهيم السامرائي، ط ٢، مؤسسه دار الهجرة.
 ١٩. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: دبت، كتاب العين، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، ابراهيم السامرائي، ط ٢، مؤسسه دار الهجرة.
 ٢٠. قمي، شيخ عباس: ١٣٨٦ش، منتهي الامال، ويرايش عقيقي بخشايشي، عبدالرحيم نصري، چاپ دوم، قم، نويد اسلام.
 ٢١. فيض كاشاني، ملا محسن: ٢٠٠٠م، شوق مهدي تضميني از غزليات لسان الغيب حافظ شيرازي در مديح مهدي موعود؛ تصحيح على دوناي، انتشارات انصاريان، قم.

٢٢. لامنس إلى سوعي، الأب هنري كوس: (د.ت)، فرائد اللغة في الفروق. الناشر مكتبة الثقافية الدينية.
٢٣. مغنيه، محمد جواد: ١٣٨٦، فضيلتهاي امام على (عليه السلام)، تحقيق سامي الغريري، ترجمه عبد الرزاق سيادت، چاپ اول، قم، دار الكتاب الاسلامي.
٢٤. موسوي خوئي، سيد حجت: ١٣٨٢، امير مومنان على (عليه السلام) (از ديدگاه شخصيتهاي بر جسته)، چاپ اول، تهران، انتشارات عهد.
٢٥. يعقوبي، احمد بن ابي يعقوب، د.ت، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر.

مظاهر الانسجام النصي في نهج البلاغة - رسالة الإمام علي (ع) للقاضي شريح أنموذجاً

المدرس المساعد: هادي سعدون هنون العارضي و عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي

المقدمة:

يعد نهج البلاغة من المؤلفات التي لا تبرح أن تنتهي أسرارها على مر العصور ففيه سيل من العلوم والآداب والفنون فحضت به كثير من الدراسات، إذ توالى عليه لتنهل وترتوي منه ونصحوا الناس الباحثين عن نفي اللغة العربية «أن يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم وأفضل مآثور هم، مع تفهم معانيه في الأغراض التي جاءت لأجلها، وتأمل ألفاظه في المعاني، التي صيغت للدلالة عليها وليصيبوا بذلك أفضل غاية، وينتهوا إلى خير نهاية».

وفي خضم هذا السيل من الدراسات حاولنا أن نبحت عن نبع جديد في بحر هائج فبدت لنا مظاهر الانسجام النصي واضحة المعالم في نهج البلاغة في ما يحويه من خطب ورسائل ووصايا ولكن الإحاطة بهذه الظاهرة في كل الفنون، أمر غير ممكن لما هو مألوف من سمات المشاركة في المؤتمرات كونه موضوع كبير وبحاجة إلى تفصيل يتجاوز الحد المقرر من صفحات المشاركة؛ لذا درسنا هذا الانسجام في كتاب الإمام علي (عليه السلام) إلى قاضيه شريح بن الحارث.

ولما كان الانسجام من الموضوعات الجديدة القديمة في نتاجنا الأدبي وقفنا عنده لتعريفه في اللغة والاصطلاح بعدها جاءت الدراسة في مبحثين:

الأول: علاقات الربط وتضمنت الأمور الآتية:

الفصل والوصل.

التكرار.

التقديم والتأخير.

أما المبحث الثاني فكان في علاقات التكامل وتضمنت الأمور الآتية:

علاقة السببية.

علاقة الإجمال والتفصيل.

علاقة الشرط والجزاء.

بعدها جاءت الخاتمة ونتائج البحث وقائمة بالمصادر والمراجع

المدخل:

لو تفصينا تراثنا النقدي القديم لو جدنا الحديث عن انسجام النص الفني واضحاً وجلياً في كتابات نقاده، فقد فصل في ذلك عبد القاهر الجرجاني بقوله: «فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدداً كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه يبنى وفيه أفرغ المعنى وأجرى، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن نقول في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) (منزل قفا ذكرى من نبك حبيب) أخرجته من مجال البيان إلى مجال الهديان، نعم وأسقطت نسبه من قائله، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختص بمتكلم».

ولاشك أن هذا الاهتمام الكبير لصغائر الأمور في اللغة العربية، يعود للإعجاز القرآني الذي أحدث دهشة أحلت بفحول العربية وروادها، فأخذوا يحيطون لغتهم بأدق التفاصيل ويضعون المفاهيم التي نظر إليها من جاء بعدهم.

وقد خلف لنا عباقرة اللغة العربية وروادها موروثاً لغوياً وبلاغياً كبيراً، لاسيما الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) والذي عرف بشجاعته وعلمه وبلاغته، فحرص على اللغة العربية

التي كرمها الله جل شأنه عندما جعلها أداة لبيانته فترك لنا كنز البلاغة نغترف منه ما نشاء بما يحتويه من خطب وحكم ووصايا ورسائل.

وتعد الرسائل من الفنون الأدبية و الوسيلة الكتابية الثانية التي اتبعها الإمام بعد الخطابة في نهجه وتعرف الرسائل بأنها: « ما يكتبه امرؤ إلى آخر مُعبراً فيه عن شؤون خاصة أو عامة»، وقد وردت الرسائل في نهج البلاغة على شكلين:

الأول: الرسائل الإخوانية أو الشخصية (الخاصة) وفيها ينقل الإمام رؤيته إلى خاصته فيوجه تارة وينصح ويرشد تارة أخرى.

والثاني: الرسائل الديوانية وهي: الرسائل الرسمية التي يوجهها الإمام إلى العامة كالرسائل العسكرية والسياسية والعهود والأحلاف وغيرها.

هذه الرسالة من الرسائل الرسمية التي وجهها الإمام إلى قاضيه شريح بن هانئ بعد سماعه بشراء شريح بن الحارث دارا بثمانين ديناراً فخاطبه قائلاً: « بَلَّغْنِي أَتْكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدُ فِيهِ شَهُوداً، فَقَالَ شَرِيحُ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَظَنَرُ إِلَيْهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) نَظَرَ مَغْضَبٌ ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا شَرِيحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مِنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْنَتِكَ، حَتَّى يَخْرُجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيَسْلَمُكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً، فَانظُرْ يَا شَرِيحُ لَا تَكُونَ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ.

أما إنك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق، والنسخة هذه: هذا ما اشتري عبد ذليل، من ميت قد أزعج الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى اللرحيل، اشتري منه داراً من دار الغرور، من جانب الفانين، وخطة الهالكين، وتجمع هذه دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي، وفيه يشرع باب هذه الدار. اشتري هذه المغتر بالأمل، من هذا المزعج بالأجل، هذه الدار بالخروج من عز القناعة، والدخول في ذل الطلب والضراعة، فما أدرك هذا المشتري فيما اشتري من درك، فعلى مبلبل أجسام الملوك وسالب نفوس الجبابرة، ومزبل ملك الفراعنة، مثل كسرى وقيصر، وتبع وحمير، ومن جمع المال على المال فأكثر، ومن بنى وشيد، وزخرف ونجد، وأدخر وأعتقد، ونظر بزعمه للولد، إشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب، وموضع الثواب والعقاب، إذا وقع الأمر بفصل القضاء (وخسر هنالك المبطلون) شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى، وسلم من علائق الدنيا».

المبحث الأول: علاقات الربط

قبل الخوض في تفاصيل مظاهر الانسجام الخطابي في رسالة الإمام علي (عليه السلام) إلى القاضي شريح من خلال مظاهر الربط المتمثلة في الفصل والوصل والتقديم والتأخير والحذف، لابد من الإشارة من أن الجملة ترتبط ب «سلسلة من المكونات تتفاعل فيما بينها كي تؤدي في النهاية المعنى الواحد المنشود وأساس هذا التفاعل التركيب النحوي».

وهذا ما سبق به الجرجاني غيره من علماء اللغة وأشار إليه في أكثر من موضع بأن الجملة في التركيب النحوي تحمل معنى واحد لا عدة معان منها قوله: «إذا قلت: ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم، هو معنى واحد لا عدة معاني كما يتوهمه الناس».

ولاشك أن الجرجاني يؤكد بذلك أن للجملة معنى واحداً أطلق عليه علماء اللغة المحدثون « المعنى المركزي» وهو لا ينفي وجود معاني جزئية ضمن التركيب الواحد أطلق عليها المحدثون « المعاني الهامشية» بل تسخر تلك المعاني لخدمة المعنى الواحد الذي صرح به الجرجاني أو المعنى المركزي كما أطلق عليه المحدثون.

وهذا ما يسير عليه بحث الانسجام النصي في دراسته القائمة على مبدأ الترابط الجملي في الرسالة الفنية التي بين أيدينا إذ أن هذا الربط « يجعل الجملة شبيهة باللوحه التشكيلية التي يصورها فنان؛ إذ لا يمكن فهمها أو تذوقها إلا من خلال نظرة شاملة متكاملة؛ فهي تقع في النفس موقعا واحدا، وكل جزئية فيها من لون أو خط أو ظل أو انحناء تؤدي وظيفتها، وتتحدد هذه الوظائف وتتألف من خلال علاقات؛ لتكون معنى اللوحه واحد».

وبذلك سنقتفي أثر التشكيل الجملي وما أحدثه من انسجام، وأثاره في تعميق الدلالة المركزية من خلال دراستنا لمظاهر ذلك الانسجام المتمثلة في:

أولا: الفصل والوصل:

لا يختلف في القول بأن فهم النصوص الفنية، لا يأتي عبثا من دون إطلاع ومعرفة أولية عن تلك النصوص وأنواعها وتحديد موضوعها الذي يرتبط بطبيعة الخطاب وطريقة عرضه للفرق الواضح بين الخطاب المسموع والخطاب المقروء والخطاب المرئي والمسموع، هذا الارتباط الذي يأتي عن طريق متكلمين عاديين أو غير عاديين وعلى وفقه يتجلى الخطاب المتناسق من غيره.

ولاشك أن تعميق هذه الرؤى ستولد قدرة تحليلية لدى أي باحث، تمكنه من معرفة علاقات الانسجام والتناسق في نصوصه المدروسة.

ويعد الخطاب الذي بين يدي البحث من النصوص الخطابية المقروءة التي تحتاج إلى معرفة بمواضع الربط الجملي لاسيما الفصل والوصل الذي عده الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) على لسان الفارسي البلاغة كلها.

فيما يعد معرفتها عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) طريقا لمعرفة سائر معاني البلاغة فعرّفها على أنها: « العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيه والمجيء بها منثورة تستأنف منها بعد الأخرى».

ولم يفارق هذا الفن البلاغي نهج الإمام في خطابه الذي بين أيدينا، فتظهر لنا في أكثر من موضع من خلال علاقة الوصل المقدمة بأداة العطف في قوله عليه السلام: «بَلَّغْنِي أُنْكَ ابْتَعْت دَارًا بِثَمَانِينَ دِينَارًا، وَكُتِبَتْ لَهَا كِتَابًا، وَأَشْهَدْتُ فِيهِ شَهُودًا...».

وعلى وفق المعطيات اللغوية في النص الخطابي، يكشف لنا البحث وسائل الانسجام من خلال تعميق النظر إلى بنية الخطاب من الداخل وتمحيص علاقات الارتباط الأفقية التي تنسج العلاقات بين البنى الداخلية من خلال:

*- الحديث عن الإطار العام لهذا الخطاب نجد أن المنشئ يتجاوز الحديث عن نفسه، ويسير بخطابه نحو منهج نفعي جماعي تظهر ملامحه في الحرص والمتابعة لقضائه في الأمصار وهذا ما يظهره النص من خلال خاصية العطف بحرف (الواو)، إذ أشرك المنشئ الجمل في الحكم الإعرابي لما ينماز به الواو من خاصية الإشراك في الحكم، فأشرك الجمل في الحكم والمعنى ويبدو لنا من خلال التشكيل النصي للبنى السطحية أن المنشئ وظف الخطاب ليرسم لنا عدة معاني جزئية منها:

*- استيائه من تصرف القاضي، وهذا ما يوضحه الدخول المباشر من دون مراعاة البناء الفني للخطاب؛ لما هو مألوف في كتابة الرسائل، إذا ما استثنينا السقط الذي قد يصيب النصوص الفنية التي وصلت إلينا، فهو ناتج من حالة المنشئ الشعورية واستيائه الواضح؛ لحرصه في تطبيق حكم الله في الأرض.

*- تأكده من الخبر الذي وصل إليه المنشئ وهذا ما يوضحه اللفظ (بلغني) ولم يقل (سمعت) ولاشك أن السمع للخبر ذات صفة شمولية لا تمنح المنشئ خصوصية الخبر في السمع كونها تؤدي لأمرين:

الأول: صدق الخبر.

الثاني: كذب الخبر.

إما (البلوغ) فهو الوصول والنهائية، وكأن المنشيء يريد أن يؤكد للمخاطب تيقنه من فعله فهو لا يدع للقاضي أي مجال للتشكيك بما يقوله المنشيء، ولتأكيد تلك المعلومة إسترسل في إظهار التفاصيل الدقيقة للحدث من خلال علاقة الوصل، فالقاضي قد أشتري تلك الدار بثمانين ديناراً ومن ثم كتب عقد تلك الدار، بل وضع على عقد البيع والشراء شهوداً، فلو وضعنا لتلك الوحدات النصية مخططاً يوضح كيفية تأكيد المعلومة في ذهن المخاطب من خلال علاقة العطف لكان لدينا الشكل الآتي:

البنية المحورية والتركيب الجملي لمعلومة البيع والشراء

ويبدو لنا من خلال التحليل السابق أن البنية المحورية في الجملة التي خضعت للتحليل، تفاعلت ضمن وحدات نصية منسجمة بعلاقة العطف، تم كشفها بتعميق الرؤية في آليات الترابط المفهومي وتعالق العناصر؛ لأن منشئ النص يقوم « بتعليق دلالات الألفاظ في عقله أولاً، وذلك بضم بعضها إلى بعض، وترتيبها بحسب معاني النحو، ووفقاً لمقدرة المتكلم اللغوية» وعلى الباحث أن يفكك تلك المعاني ليصل ما يريد أن يصل إليه المبدع في نتاجه الفني، ولعل سمة التأكيد في تقصي المعلومة هذه تشير إلى حقيقة مهمة، يجب أن يقف عندها كل الحكام والقضاة، والمسؤولين وهي التيقن من المعلومة قبل توجيه التهمة إلى الآخرين وهذا ما يؤكد عليه ديننا الحنيف فجاء بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين).

ولاشك أن الترابط و الانسجام النصي في الخطاب البلاغي، رسم أبعاد المعنى في ذهن المتلقي ورسخها على وفق ما نسجه من الإختيار الأمثل للألفاظ وطريقة نسجها. أما علاقة الفصل في الخطاب، فنجد مصاديقها في قوله: «هذا ما اشتري عبد ذليل، من ميت قد أزعج الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى للرحيل، اشتري منه داراً من دار الغرور، من جانب الفنانين، وخطة الهالكين وتجمع هذه دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي، وفيه يشرع باب هذه الدار....».

ويتجلى في الخطاب الفصل بين الجملتين الخبريتين، ولم يحدث الفصل إلا لدواعي الانسجام بين الجملة الأولى والجملة الثانية، فهناك ارتباط منطقي بينهما، لوجود مسوغ أوجب الفصل يقوم على أساس الإيحاء عند سماع الجملة الأولى منه سؤالاً: تقديره: ما هذه الحدود؟ وتبع الفصل في السؤال منطقيّة الإجابة التي تستدعي مواصلة الكلام بعد الفصل، فجاءت إجابة المنشئ بتفصيل تلك الحدود؛ لأن « من دواعي فصل كلام عن كلام سابق وجود سؤال مقدر غير متجل في سطح الخطاب»، ومن يتقصى التركيب في النص السابق يجد أن المنشيء حقق عدة أهداف بتضمينه هذا الأسلوب عمقت الانسجام النصي في الخطاب منها:

* - إغناء المخاطب عن السؤال ومواصلة المنشئ كلامه من دون إنقطاع.

* - تنبيه المخاطب عن موقعه وأهمية الحدث عند المنشئ.

* - تكتيف المعنى بتقليل اللفظ.

ثانياً: التكرار:

لا نريد تكرار تعريفات هذا الأسلوب في اللغة والاصطلاح؛ للاختصار وشيوع تعريفه عند المختصين، إلا أنه لا بد من الإشارة بأن التكرار لا يضيف في ذاته على النص الفني جمالاً، إلا بعد براعة المنشئ في إضافة لمساته الفنية وصياغة المعنى صياغة تدق في إنقاء الألفاظ وتوظيفها فتنبث الحياة في النص فتتحرك مع المعنى لتحمله بين كفي الراحة إلى المتلقي فتبعث فيه إحساسات المتلقي، وخلاف تلك البراعة يتحول التكرار داخل النص إلى مظهر سلبي يعوق توصيل المعنى إلى متلقيه.

وعلى هذا النحو سنتتبع هذه الظاهرة الفنية وأثرها في الانسجام النصي في النص الفني الذي بين أيدينا لتنتقل من خلاله على براعته في توظيف هذه الظاهرة في وجهتين:

الأولى: التكرار الملفوظ (التكرار اللفظي) والمتمثل بتكرار الألفاظ في لفظها ومعناها وقد يكون التكرار إسما أو فعلا أو حرفا أو جملة.

ونجد مصاديق هذا النوع من التكرار في النص الذي بين أيدينا في كلمة (الدار) التي تكررت في النص تسع مرات من دون أن نشعر بملل من تناوبها في النص، بل أضاف تكرارها انسجاما نصيا تتجلى ملامحه في الأمور الآتية:

*- القيمة المعنوية للنص من خلال تعميق المعنى في ذهن المخاطب و التأكيد على نقطة الخطاب المركزية وهي (شراء الدار) فأحس المتلقي بطرقة دلالية ذات وقع جميل تطرق الذهن طول سماعه أو قراءته للنص، وهذا ما يمتاز به النص العربي كون التكرار من سننه، وإعادة اللفظ ما هي إلا للإبلاغ بأمر ما على وفق أهميته.

*- القيمة النغمية التي وفرها التكرار في النص، لما يمتاز به هذا الأسلوب من توفير القرع على الأسماع وإثارة الأذهان لتوفيره مظهرا موسيقيا.

الثانية: التكرار الملحوظ (التكرار المعنوي) والذي نجد فيه الألفاظ لا تتكرر بذاتها وإنما تتكرر المعاني لغاية أو لأخرى تراود المنشئ فيحاول إظهارها من خلال استحوادها على الجانب النفسي للأداء الفني، وقد ورد هذا النوع من التكرار في أكثر من موضع في النص الخطابي من ذلك قوله (عليه السلام): «... ومن جمع المال على المال فأكثر، ومن بنى وشيد، وزخرف ونجد، وأدخر وأعتقد، ونظر بزعمه للولد، إشخاصهم جميعا إلى موقف العرض والحساب، وموضع الثواب والعقاب...».

فالأفعال « بنى - شيد- زخرف- نجد - ادخر- اعتقد...» كلها تكرار لمعنى واحد، حاول المنشئ تكثيفه من خلال ظلال تلك الأفعال، و ما تلقيه من أثر معنوي في تكرارها يعمق المعنى في ذهن المتلقي ويرسم أبعاده الآتية:

أولا: البعد الفني: ولا نختلف مع القائل أن هناك تفاوت في معنى تلك الأفعال فالذي يبني ليس كالذي يشيد، والذي يزخرف ليس كالذي ينجد وهكذا... ولكننا نتفق على أن كل تلك الأفعال تعملق المعنى الواحد الذي نفهمه من الفعل الأول « الذي يبني» وهو الذي يختر بالحياة الدنيا الزائلة وينسى الحياة الدائمة فهذه الصورة التي رسمها التكرار لتلك الأفعال سوف لن تكون بهذا العمق والانسجام لولا التكرار.

ثانيا: البعد النفسي: لا شك أن الطرق على الأذهان من خلال تكرار تلك الأفعال، ستحفز نفس المتلقي لاستقبال المعنى وشده نحوه، ومن ثم التأثير الذي ستقل وطأته لو كان الفعل الدال على المعنى غير مكرر، وهذا ما دفع المنشئ لتوظيفه بهذه الصورة.

ثالثا: البعد الإيقاعي: وهذا ما يتضح جليا في عملية تكرار الأفعال، إذ تنتهي تلك الأفعال بتكرار قافية واحدة وهي (الدال) كما موضح في الشكل الآتي:

ولاشك أن هذا البناء في النص يمنح الخطاب قيمة موسيقية من خلال توظيف المنشئ مادته اللغوية توظيفا منسجما، فهو يدرك أسرار العربية، إذ أن « العرب تحلي ألفاظها وتدبجها وتشبها بزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها وتوصيلا بها إلى إدراك مطالبها».

ثالثا: التقديم والتأخير:

يبني الكلام العربي كما هو سائد في التنظير والتطبيق « على نظرة عميقة إلى عنصرين قائمين في الصياغة هما الثابت والمتحول، يتمثل الثابت في تواجد أطراف الإسناد وما يتصل بها من متعلقات، أما المتغير فيتمثل في تحريك بعض هذه الأطراف من أماكنها الأصلية التي اكتسبتها من نظام اللغة إلى أماكن جديدة، ليست لها في الأصل، كما يتمثل هذا التغير أحيانا في تثبيت أحد الأطراف في مكانه وإعطائه حتمية، يتمتع معها نقله وتحريكه وهذا يمثل تغيرا».

وهذا التغير الذي يحدثه منشئ النص في تراكيبه اللغوية يسمى عدولا وهو لا يتم إلا بعد أن يسمح له المقام ويتطلبه السياق لإغراض إبلاغية أو فنية تؤثر في نفس المتلقي لأنها بمثابة منبهات حسية لذلك صار «العدول عن النمط العادي بمثابة منبهات فنية يعمد إليها المبدع ليخلق صورة نية متميزة» ولكون هذا المتغير الأسلوبي ذا أهمية فلقد رأينا عناية البلاغيين القدماء به

كثيرا فهو «باب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية» وهو أيضا «باب شجاعة العربية».

عند ابن جني لما يمنح النص من معان إضافية أو يحدث في قابلية التأثير في المتلقي، ونلاحظ ففي رسالة الإمام علي (عليه السلام) للقاضي وجود هذه الظاهرة التي جاءت عن قصد لأنها تحقق غايات أسلوبية مهمة ومن ذلك قوله (عليه السلام) «يا شريح أما انه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصا، ويسلمك الى قبرك خالصا» ففي هذا النص الذي حدث عدول وتغير في بنية التراكيب وخروج عن الأنظمة اللغوية المتعارف في البناء التركيبي، اذ قدم شبه الجملة المتكونة من الجار والمجرور (منها) على الحال (شاخصا) وكذلك فعل في الجملة اللاحقة فقدم الجار والمجرور (إلى قبرك) على الحال (خالصا) وهو هنا يخلق هيمنة للجانب التعبيري ويحقق فنية للنص لان فنية النص تظهر واضحة متى ما هيمن الجانب التعبيري وما كان هذا التغير ليحدث إلا ليخلق او يدل على غرض قصده المنشئ لكي يركز الدلالة المرجوة من النص ويحدث التأثير المطلوب في المتلقي الذي احتاج إلى هذا التغير البنائي الذي ركز على كلمات معينة في النص وحركها من موقعها قصد التنبيه والاهتمام ولكي «ينبئ عن غرض ما، ذلك الغرض هو إبراز كلمة من الكلمات لتوجيه التفات السامع إليها» الذي تشاغل عن الصواب بالمنفعة الدنيوية متناسيا يوم الميعاد عندما يخرج من دنياه عنوة ويسلم الى قبره خالصا، ولعل في نص رسالة الإمام (عليه السلام) مظاهر أخرى لهذه العلاقة الرابطة والمؤدية إلى جعل النص نصا متجانسا ملتحما، يشعر من يقرأه بقوة بلاغته وحسن سبكه وجمالية شكله وعمق دلالاته.

المبحث الثاني: علاقات التكامل في النص

تعد علاقات التبعية إحدى أهم مقومات النص، فلا نص يأخذ محله بين النصوص ويتبوأ مقعده في فضاء الأدب إلا إذا اكتملت لديه شروط النصية التي تتجلى في خصائص ذكرها اللغويون المحدثون ومنها خاصية الحبك (coherence) أو التماسك الدلالي الذي يمثل العلاقات المنطقية التي تحكم النص الأدبي وتمنحه صفة التماسك والانسجام لان هذه العلاقات هي وحدها «التي تجعل النص مترابطا، لأنه يعتمد على علاقات داخلية وعناصر مقاميه يتم بواسطتها فهم النص» وان هذا التصور أو الفهم للنص وللعلاقات التي تحكمه نجد له مصاديق فيما كتبه علماء العربية القدماء رغم أنهم لم يضعوا له قواعد أو يقيدهوه في نظرية ذات سمات واضحة وقابلة للبقاء أو للدراسة، بل ظلت آراءهم إشارات ومنها ما ذكره السيوطي (ت ٩١١ هـ) عندما قال: «لا يكون الكلام لخلوه من العقادة متحدرا كتحد الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعضوية ألفاظه أن يسيل رقة والقرآن كله كذلك....» وقد جاءت قرأته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه» ويبدو لنا من قول السيوطي انه لا يشير إلى العلاقات المنطقية التي تحكم النص وتسيره والتي تقوم بربط التراكيب اللغوية في النص الواحد والتي تتمثل في علاقات السببية، والإجمال والتفصيل، والشرط والجزاء، لذلك تتعدد العلاقات بين الجمل في النص «فإذا كانت هناك جملة اسمية يكون غيرها من الجمل أما معطوفا عليها أو بدلا منها، أو بينها لها، أو توكيدا لها أو تفسيراً، أو تعليلاً، أما موقع الجملة بالنسبة للمفرد فيمكن ان يكون خبراً، أو نعتاً، أو بدلاً، أو تعليلاً أو تفسيراً» وقد نجد أن جملة ما في النص قد جاءت جواباً لشرط أو لطلب، أو تفصيلاً لمجمل، وكل هذه العلاقات في تفاعلها داخل النص تؤدي غرضاً دلالياً سعى له منشئ النص وأراد له النمو والاستمرار لذلك نرى د. سعد مصلوح قد عدها «الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم.» إذ أن كل نص أدبي يطمح إلى إيجاد هذه الاستمرارية كسبا للمتلقي وتأدية للقصدية التي بني عليها النص ومن أجلها انشأ.

وسيحاول البحث توضيح هذه العلاقات التي جعلت من النص المدروس نصاً متماسكاً منسجماً، وان من أهم هذه

العلاقات: أولاً- علاقة السببية:

هي إحدى أهم العلاقات التي تحكم النص وتؤدي إلى انسجامه، كونها علاقة من علاقات التبعية النصية التي هي علاقات منطقية تصورية قد لا تظهر في النص، أي أنها «غير متمثلة بصراحة في النص، أي أنها لا تحظى باستثارة مباشرة من خلال ظاهرة النص، وإنما تقوم بتزويد المرء بما يلزم من العلاقات لاستخراج المعنى من النص» فتجعل منه نصا مترابطا، وهذا الربط بين جمل النص هو الذي يجعل النص ينمو ويثري القصدية التي من أجلها انشأ، وإن النص الذي قيد البحث قد توافرت فيه هذه العلاقات المنطقية وبأشكالها المختلفة ومنها العلاقة السببية التي لمسنا أثرها في انسجام النص، فما هي هذه العلاقة؟

تعرف علاقة السببية بأنها «الطرق والوسائل التي فيها يؤثر موقف أو حدث على الظروف المهيئة لوقوع حدث آخر» فهذه العلاقة تعمل عندما يكون هنالك سبب يؤدي إلى نتيجة تظهر إلى سطح النص جملة مكتملة لا تعرف دلالتها إلا بالرجوع إلى الجملة التي سبقتها في النص وكانت سببا في إيجادها، فهي على علاقة بها أي أنها مرتبطة بها وهذا الارتباط هو الذي يسمح للنص بالاستمرارية في تقديم المعاني المرجوة منه، ومثلما يؤدي الدلالة فإنه يعمل على تماسك النص وانسجامه ويسد ثغرات النص أن وجدت فقد «يستخدم السبب لإيضاح علاقة بين حدث وحدث آخر تلاه، فالحدث الأول أتاح الظروف لحدث حدث آخر وعلى العكس»، وهو ما نجده في قول الإمام علي (عليه السلام) «فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا والآخرة» فقد ربطت الخسارة التي أصابت القاضي بالسبب الذي أوجدها وهو شراءه الدار من غير أمواله الخاصة، فالجملة التي أعطت دلالة الخسارة، أي قدمت نتيجة الفعل هي جملة ارتبطت بسبب متقدم في النص دلت عليه الجمل السابقة، وهذا ما يشير إلى علاقة منطقية أوجدها النص فهي أداة من أدوات انسجامه ودالة على ترابطه اللفظي والمعنوي الذي يؤدي إلى بلوغ المعنى غايته المنشودة ويوثق الصلة بين المتكلم والمتلقي، ونلاحظ أيضا أن النص الذي اعتمد العلاقة السببية واحدة من علامات انسجامه وتلاحمه عندما قرن الفعل السببي بنتيجة سيئة مثله، وهذا الاقتران هو ما أوضح العلاقة السببية بين الجمل وساعد على انسجامها، مضافا إليه الاستعمال الدقيق للألفاظ وللأساليب، إذ أن إتباع أسلوب النداء الذي اعتمد أداة النداء «يا» وهي تستعمل لمناداة البعيد أصلا في مخاطبة القاضي ما هو إلا استعمالا واختيارا دقيقا أريد به الإشارة أو الإيحاء إلى دلالة البعد الحاصل بين المتكلم (الإمام عليه السلام) والقاضي الذي خالف الحكم الإسلامي عندما اشترى دارا من غير ماله الخاص.

وفي هذا النص تبدو العلاقة السببية جلية لان الجملة الأولى كانت سببا للجملة الثانية التي حملت دلالة الخسران في الدنيا والآخرة وهي إحدى الدلالات التي سعى النص إلى إظهارها، فقد كانت إحدى مقاصده التوجيهية أو الوظيفية «لان أي نص أدبي تتقاسمه وظيفتان لكي ينمو ويستمر... وهما الوظيفة التوجيهية والتعويضية» وهما اللتان ساعدتا على نمو النص واستمرار قدرته على التأثير في المتلقي الحاضر في المكان والذي سيأتي به الزمان والمكان في قادم الأيام، لان النص ينشد التوجيه والتوعية والإرشاد ولا يتوقف عند وصف لحادثة أو كشف غامض من الأعمال والأفعال بل يتعدى ذلك إلى ما هو أسمى منه في التأثير النفسي في بنية العقل الفردي المسلم ولغير المسلم أيضا لان القيم التي يتحدث عنها النص هي قيم إنسانية خالدة، إنما هي قيم عامة لا تخص قوم أو زمن معينين، إنما تنفتح على المستقبل، وتسمو على الخصوصية وتنفر من التقييد، وتسعى إلى إشاعة الشمولية في المقاصد والغايات النبيلة.

ونظرا لشمول العلاقة السببية علاقة رابطة في النص ومؤدية إلى تماسك النص الأدبي وانسجامه وظهوره بالمظهر البليغ القادر على إيصال الدلالة بأوضح صورها وأجملها وأكثرها تقبلا من المتلقي، فنرى الإمام (عليه السلام) يقول وهو يوجه إرشاداته إلى القاضي ويحدد الهدف بدقة ويدل عليه وبتركيز قاصدا التأثير، موضحا أن شراء الدار ما كان ليحدث لو أن القاضي أتى الإمام (عليه السلام) وحدثه بذلك أي لو استشاره فيما قدم عليه وهذا واضح في «أما لو أنك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتابا على هذه النسخة، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدهم فما فوق» ومن هذه الجمل نستنتج نتيجة لسبب، فالنتيجة هي عدم الشراء وعدم الوقوع في

الخطأ والحرام، والسبب في النص واضح أيضا تدل عليه جملة «لو انك أتيتني عند شراءك.....» وهذا يدل على أن النص قد اوجد علاقة سببية كعلاقة رابطة وهي علاقة منطقية وليست علاقة لفظية، وهذا يشير إلى الترابط والانسجام الحاصل في النص، لان الكتاب الذي يقدمه الإمام (عليه السلام) إلى القاضي سيكون سببا في حجزه عن الشراء الذي صار مقصد المتكلم وهو الدافع لإنشاء النص الذي يقدم لنا أفكارا نحن والمخاطب في حاجة ماسة لها لأنها تهذب النفس البشرية وتقومها، وما كان لهذا النص من تأثير إنما مرده إلى الفكرة النبيلة والصياغة الدقيقة التي جاءت على وفق الفهم المشترك بين المتكلم والمتلقي فهما قريبان من الحدث بل هما في خضمه و«كلما كان المتكلم والمتلقي قريبين من حيث الزمان والمكان والأعراف الاجتماعية، كان ذلك ادعى إلى وضوح علاقات الارتباط العرفية، مما يؤدي إلى فهم المتلقي المعنى الدلالي العام» وهو الغاية التي سعى لها النص ووفق في تقديمها عندما تضافرت علاقات النص ومنها العلاقة السببية فأنتجت نصا منسجما محكم البناء واضح الدلالة، قادر على إيصال الفكرة المركزية التي تمحور حولها النص وتركزت الدلالات المستوحاة من الجمل والتراكيب اللغوية التي تشكل منها النص في صورة تشعر المتلقي بقوة بنائها وحسن صياغته لأنها قد راعت التقاليد اللغوية التي وفرت للنص الاستمرارية الدلالية المنتجة من خلال مجموعة المفاهيم والعلاقات التي تتخلل النص إذ أن «الاستمرارية الدلالية تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم» التي استطاعت ان تؤسس لنص محكم بليغ توافرت لديه المقدره على التأثير والانتشار.

ثانيا-علاقة الإجمال والتفصيل:

تحكم أي نص أدبي علاقات لا تبدو ظاهرة على السطح، أي ليس لها وجود لفظي يمكن الاستدلال عليه في النص، وهذا يعني أنها علاقات منطقية عرفية، ومن هذه العلاقات التي وجدنا لها حضورا في النص الذي ندرسه -علاقة الإجمال والتفصيل التي يلجأ إليها منسئ النص عندما يريد تقديم فكرة تبدو مجملية تحتاج إلى إيضاح يتولاه التفصيل فيشرح ما كان مجملا ويدل على جزئياته، وفي ذلك تأكيد للمعنى ومحاولة لإرساء قواعد فهم صحيحة في نفس المتلقي، لان الشيء إذا صار مجملا تولدت في النفس رغبة لمعرفة تفاصيله، وأنا لنلمس هذا الإجمال في جملا وردت في النص المدروس، ثم جاءت جملا أخرى نهضت بمهمة التفصيل فإبانته ودلت عليه وهي بذلك استطاعت أن تؤكد المعنى وترسي الدلالة، وتلبي رغبة في نفس المتلقي، وتعيد صياغة علاقة الود والمشاركة بين المنسئ والمتلقي، ومن ذلك ما نجده في قول الإمام (عليه السلام) للقاضي شريح «انك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتابا على هذه النسخة، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق، والنسخة»، يبدو من النص ان لفظ (النسخة)لفظ مجمل، وهذا الإجمال مكتسب من التركيب وليس للبناء الصرفي دخل في ذلك، وقد ظل هذا الإجمال بحاجة إلى تفصيل وظل المتلقي في متلهفا لسماع هذا التفصيل، لذلك جاءت الجمل التالية تفصيلا لما أجمل فهو يقول «هذا ما اشتري عبد ذليل من عبد قد أزعج بالرحيل، اشترى منه دارا.....» وهذا التفصيل ما جاء إلا ليوفر أو يحقق غاية سعى لها المنسئ لان «علاقة التفصيل والإجمال لا تخلو من غاية، وهي تأكيد التفصيل للإجمال» والتأكيد غاية تتحقق من خلال الاستمرار في ذكر التفاصيل التي يحتاجها المتلقي من طرف، ويرغب المنسئ في إثباتها قصد الإبلاغ وإحداث التأثير في السامع وتؤدي أيضا إلى استمرارية الدلالة التي ينشدها النص في نموه وتطوره «لان علاقة الإجمال والتفصيل، تعد إحدى العلاقات الدلالية التي يشغلها النص لضمان اتصال المقاطع ببعضها عن طريق استمرار دلالة معينة في المقاطع اللاحقة» التي استطاعت ان تضمن نمو النص وسيرورته نصا محكما بليغا ذا وقع وتأثير وان اختلف زمانه وبعد به المكان

ونجد علاقة الإجمال والتفصيل مرة أخرى تبدو واضحة في قول الإمام علي (عليه السلام) وهو يصف الدار التي اشتراها القاضي بان لها «حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد

الرابع ينتهي إلى الشيطان الغاوي، وفيه يشرع باب هذه الدار» فلقد ذكر أن للدار حدود أربعة، وفي هذا القول إجمال إذ لا بد من توضيح وتفصيل لهذه الحدود لذلك نرى الإمام (عليه السلام) يبدأ بتفصيل هذه الحدود ذاكراً صفاتها دالاً على غاياته ومنتهاها مبتدأً بالحد الأول الذي يراه أنه ينتهي إلى دواعي الآفات ويستمر في توصيف هذه الحدود وتفصيل ما أجملته جملة (لها حدود أربعة) إذ أنها احتاجت إلى الإيضاح الذي أسند إلى التفصيل فكان خير توضيح وأفضل وإبانة، وقدر على ترسيخ المعنى في عقل المتلقي الذي ينشد المعرفة التامة بتفاصيل الفكرة. مضاف إلى ذلك أن التفصيل استطاع أن يضمن للنص استمراريته وتطوره وأن يحقق له الغاية التي من أجلها أنشئ ويؤدي الوظائف التي أسندت إليه ومن هذه الوظائف، الوظيفة التوجيهية التي «هي من ضرورات نمو النص وسيورته، إذ كل جملة تلقي مزيداً من الضوء على المنطلق، سواء أكان على أصله أم لا، فقد يحدث أن المنطلق يكون في البداية، ثم تتوالى جمل تخصصه» أو جمل تفصل ما أجمل فيه غرض الإبلاغ والتوجيه والرعاية للغاية والقصد الذي اكتنف النص وساعد على نشوءه ونموه وظهوره للعيان بلغة بليغة قادرة على إيصال الدلالة بأقصر السبل وأدقها أداء.

وتبدو لنا علاقة الإجمال والتفصيل واضحة جلية في مقاطع أخرى من هذا النص المدروس ففي قوله (عليه السلام) واصفاً للقاضي قوة الخالق جل وعلا وقدرته على إهلاك الملوك وسلب (نفوس الجبابرة) وهذه اللفظة (الجبابة) فيها إجمال لا بد من تفصيله وذكر هؤلاء وعدمهم، وهذا يدل على أن هذه اللفظة قد احتاجت إلى التفصيل لما له من أثر في المعنى والدلالة، لذلك نجد الإمام (عليه السلام) يفصلها فيقول هم «كسرى وقيصر، وتبع وحمير، ومن جمع المال على المال فأكثر، وبنى وشيد وزخرف ونجد وأدخر...» فهؤلاء وغيرهم هم الجبابرة الذين ورد وصفهم في النص، وفي هذا التفصيل إيضاح لعلاقة دلالية «لا يكاد يخلو منها أي نص، يحقق شرطي الإخبارية والشفافية مستهدفاً تحقيق درية معينة من التواصل، سالكا في ذلك بناء اللاحق على السابق، بل لا يخلو منها أي نص يعتمد الربط القوي بين أجزاءه» ولقد جاء هذا النص مترابطاً قوياً اجتمعت فيه علاقات منطقية ولفظية عدة ساعدت على ظهوره نصاً محكماً اتسم بالانسجام والترابط، وهذا ما أهله للقبول وأمدّه بالقدرة على التأثير في المتلقي وإن اختلف زمانه ومكانه لأنه نص عابر لحدود الزمان والمكان لكون الفكرة التي يقدمها فكرة إنسانية تتوالد مع البشر وتدخل في أخلاقهم وسلوكهم مهما اختلفت ألوانهم وأمصارهم لأن فكرة العدل فكرة إنسانية يسعى لها البشر السليم الفطرة جاهداً في كل العصور والأزمان.

ثالثاً- علاقة الشرط والجزاء:

هي إحدى العلاقات المنطقية التي تحكم النص وتؤدي إلى انسجامه، ومن ثم مقبوليته لدى المتلقي حين يجد فيه المتعة والمنفعة وإن هذه العلاقة قد تتواجد في النص الأدبي لغرض أراده المنشئ وعندها تتعاضد هذه العلاقة مع ما في النص من علاقات لفظية أو منطقية فتؤدي إلى ظهوره نصاً منسجماً ذي بناء رصين قادر على التأثير والبقاء والسيرورة وقابل أيضاً للتأويل والمشاركة، عندما يكون باستطاعته أن يثير في المتلقي أسئلة، ويثبت في وعيه علامات من التعجب، أو الاستفهام، أو الحيرة، أو القبول، أو الرفض، وهذه كلها تشير إلى التفاعل بين النص والمتلقي، وكلما كان هذا التفاعل عميقاً، صار النص أكثر إثارة وأحق بالتأثير من غيره، ولما كان غاية النص المدروس هو إحداث التأثير الفاعل وبث التوجيه الصارم، وإشاعة النص والرشاد العام، وجدنا أن الإمام علي (عليه السلام) يقول «فانظر يا شريح، لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك، فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة»، يبدو لنا من هذه الجمل التي صيغت بدقة، وبتحكم سليم في التراكيب وعناية فائقة في الدلالة التي أوجبت تغييراً في النمط المألوف وابتعاداً عن المعيارية في الصياغة، لذلك وجب علينا أن نقوم بصياغة أخرى للجمل من أجل البحث ليس إلا ولكي تتمكن من عرض ما وجدناه من علاقة منطقية تجمع بين جمل النص وتجعله نصاً منسجماً وهذه العلاقة هي علاقة الشرط والجزاء المتحققة في الجمل أعلاه، فلقد قدم الإمام علي (عليه السلام) جملة هذه على وفق

أسلوب النهي حين استعمل أداة النهي "لا" فقال (لا تكون) وكأنه يريد أن يبعد ما كان واقعا بالفعل وهي التفاتة مهذبة راعت الحالة النفسية للمتلقي حتى لا يكون الوقع شديدا وعندها يفقد النص والإرشاد أثره المنوط فيه، وما أوجنا إلى مثل هذا الأسلوب في خطابنا الراهن، ثم أن هذه الجمل قد اعتمدت أسلوب الشرط والجزاء أداة لنقا الدلالة وإيصال المعنى المبتغى، ولكن هذا الأسلوب قد طرأ عليه تغير تمثل في تأخير أداة الشرط "إذا" حتى جاز لنا ان نقدر القول ونعيد صياغته بالشكل الآتي لكي توضح العلاقة القائمة بين جملة، أي إننا نعمل إلى فك النص وإعادة تشكيله قصد التحليل لا غيره، لذلك فالنص يكون هكذا «إذا أنت ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك فأنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة) وبهذا تبدو علاقة الشرط والجزاء واضحة جلية، استطاعت أن تلم شمل الجمل وتحد الدلالة وتقدم المعنى بشكل مؤثر ومقبول لدى المتلقي لأنه «لكي يكون النص مقبولا عند المتلقي، لا بد من ان تكون مجموعة الوحدات الكلامية تشكل نصا متماسكا، يمس المتلقي من طرف ما، ويحدث فيه تغيرا، وعندها لا بد أن يكون النص ذا نفع للمستقبل، أو صلة ما به، أي اكتسابه معرفة جديدة، أو قيامه بالتعاون لتحقيق خطة ما»، والملاحظ أن كلا الحالتين قد تحققتا في النص، فهو نافع لمن أراد أن اكتساب معرفة بأمور العدل والحق والشرع، وهو دعوة إلى تجنب الخطأ في الأعمال وعدم التسرع في اتخاذ القرارات إلا بعد المشورة من ذوي الأبواب، وهو يعني أيضا أن على المرؤوس أن يأخذ رأي رئيسه فلا يتعجل ثم يندم أو يخسر ثقة الناس فيه وثقة قائده مضافا الى وقوعه في الإثم والخطيئة.

وقد لا تأتي علاقة الشرط والجزاء واضحة، إلا بعد التمهيص والثاني لشدة تماسك النص ولقوته البلاغية وصناعته المحكمة، مما يحتاج من محلل النص التمعن والروية والتقصي لإيجاد أماكن أدوات الشرط التي لا وجود ظاهري لها في النص، إنما يعتمد اكتشافها على فطنة الباحث الذي يستدل عليها من المعنى المعطى والدلالة العامة، ومن هذا النوع ما نجده في قول الإمام(عليه السلام) «فعلى مبلىل أجسام الملوك، وسالب نفوس الجبابرة، ومزىل ملك الفراعنة، مثل كسرى وقيصر، وتبع وحمير، ومن جمع المال على المال فأكثر، وبنى وشيد وزخرف، ونجد وادخر، واعتقد ونظر بزعمه للولد- اشخاصهم جميعا إلى موقف العرض والحساب» وعن هذا النص يقول الشارح محمد عبده-«أي إذا لحق المشتري ما يوجب الضمان فعلى مبلىل الأجسام إرساله هو والبائع إلى موقف الحساب» ونحن نوافق الرأي في هذا التقدير الذي ذهب إليه، لان لفظة (اشخاصهم) هي مبتدأ مؤخر خبره (على مبلىل الأجسام) لذلك وجبت صياغة النص بالشكل الذي رآه الشارح، وهذا يدل على أن النص قد تحكمت به علاقة الشرط الذي هو «تعليق أمر على أمر آخر، وعبارة الشرط وعبارة الجواب جميعا تؤلفان جملة واحدة تسمى جملة الشرط» وعندما يكون القول جملة واحدة فان الترابط والانسجام يكون عنوانا له، وهو أيضا قد ضمن للنص انسجامه «وكل ذلك خلق ترابطا شديدا في النص، كان الرابطة الأساسي له الشرط والجزاء» الذي تشير إليه إحدى أدوات الربط هي «الفاء» في قوله «فعلى» وللأداة أهمية في الاستعمال اللغوي العربي «لأنها القرينة اللفظية المستخدمة في التعليق وتعتبر من القرائن الهامة في الاستعمال العربي» فالأداة الرابطة الفاء استطاعة ان تدل على علاقة الشرط والجزاء لأنها تصاحب الجمل الشرطية في كثير من الأحيان، وأشارت إلى أن الجزاء -أي جملة الجزاء(اشخاصهم جميعا إلى موقف العرض والحساب) قد تقدمت على جملة الشرط في هذا التغيير في البناء والتركييب دلالة وغرض قصده المنشئ ليحقق إشعار المذنب بالعقاب، كوسيلة ردع عن ارتكاب الأخطاء في الزمان والمكان المعينين وفي الأزمنة القابلة، لان أسلوب الشرط يدل على العموم الشبوع ويستعمل دائما لنقل أفكار عامة، لذلك نراه شائع في الحكم والأقوال السائرة مسارها.

وفي النص المدروس نجد لهذه العلاقة مصاديق منها قوله (عليه السلام) «شهد على ذلك العقل إذا خرج من اسر الهوى وسلم من علائق الدنيا» وتبدو علاقة الشرط والجزاء واضحة جلية وان حدث فيها تقديم جملة الجزاء على جملة الشرط وذلك لدواعي بلاغية ودلالية تعمدها منشئ

النص وسعى إليها في تقدير لأهمية العقل في الإنسان ودوره في حسم كثير من الأمور ولمقدرته على التمييز بين الصائب والخطيئ، وهذه العلاقة جاءت لترسخ الترابط بين جزئيات النص من جمل أو مقاطع ولكي تظهره بالمظهر الذي يستدعي الانتباه ويثير في المتلقي الرغبة في الحصول على المنفعة بعد أن استطاعت التراكيب اللغوية المنسجمة من التأثير فيه بما وفرته من متعة صنعها الجمال الفني الذي اتسمت به هذه القطعة النثرية لسيد البلغاء والمتكلمين الإمام علي (عليه السلام).

الخاتمة:

إن دراسة مظاهر الانسجام في رسالة الإمام علي (عليه السلام) للقاضي شريح قد أوصلتنا إلى نتائج يمكن إجمالها بالآتي:

١- أكد البحث في كثير من تحليلاته للنص الخطابي، ضرورة العكوف على دراسة كتاب « نهج البلاغة» لوضع الحلول لكثير من المشاكل المجتمعية والأفات التي تنخر بالعلاقات الإنسانية السامية التي خطها الله للبشر، فنستطيع القول بأن النص الخطابي كان ولا يزال تطبيقاً لمبادئ القرآن الكريم وهذا ما تجلى للباحث من خلال تعميق الرؤية والتحليل في الخطاب الذي يقول فيه الإمام لقاضيه: «بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، وأشهدت فيه شهوداً».

فيبدو أن المنشئ متيقن من الخبر الذي وصل إليه، وهذا ما يوضحه اللفظ (بلغني) ولم يقل (سمعت) ولا شك أن السمع للخبر ذات صفة شمولية لا تمنح المنشئ خصوصية الخبر في السمع كونها تؤدي لأمرين:

الأول: صدق الخبر. والثاني: كذب الخبر.

إما (البلوغ) فهو الوصول والنهاية، وكان المنشئ يريد أن يؤكد للمخاطب تيقنه من فعله فهو لا يدع للقاضي أي مجال للتشكيك بما يقوله المنشئ، ولتأكيد تلك المعلومة أسترسل في إظهار التفاصيل الدقيقة للحدث من خلال علاقة الوصل، فالقاضي قد أشتري تلك الدار بثمانين ديناراً ومن ثم كتب عقد تلك الدار، بل وضع على عقد البيع والشراء شهوداً ولعل سمة التأكيد في تقصي المعلومة هذه تشير إلى حقيقة مهمة، يجب أن يقف عندها كل الحكام والقضاة، والمسؤولون وهي التيقن من المعلومة قبل توجيه التهمة إلى الآخرين وهذا ما يؤكد عليه ديننا الحنيف فجاء بقوله تعالى: «وإذا جاءكم فاسق بنبأ.....».

٢- لقد تمثلت مظاهر الانسجام بوجود علاقات منطقية ساعدت في تحقق انسجامه وظهوره نصاً محكماً، وقد كانت هذه العلاقات على ثلاثة أنواع هي: علاقة السببية، علاقة الإجمال والتفصيل، علاقة الشرط والجزاء.

٣- ارتبطت أغلب جمل النص بعلاقات منطقية غير واضحة للعيان، إنما يستدل عليها من خلال التحليل وإعادة صياغة النص أي إعادة تشكيله قصد العثور على هذه العلاقات وإظهار أثرها في الترابط والانسجام الذي بدا عليه النص.

٤- اتضح أن جمل النص كانت لا تقتصر في ترابطها على علاقة منطقية واحدة، بل أن هنالك تداخل بين هذه العلاقات، كان من نتائجها الواضحة قوة تماسك النص وانسجامه.

٥- اعتمد البحث على التقصي الدقيق لجميع العلاقات وأدوات الربط التي حكمتها وميزته نصاً قادراً على حمل الدلالة المؤثرة والشكل الفني الناضج الذي يستهوي القارئ والسامع.